شذرات البلاتين

من سير العلماء المعاصرين

لفتات تربوية - فوائد علمية - مواقف دعوية

تشحذ الأذهان وتسحر الألباب وتعلي الهمم

جمع وترتيب

أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري

مكتبة التوحيد

بورسعيد

...الكيان

...عة والنشر والتوزيع

...ياض : ٠٥٠٤١٩٧٢٤٨

دار الكيان
للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها / طلال حامد الأمير

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢٠٧٩٧

دار الكيان
للطباعة والنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الرياض
ص . ب : ٥٧٦٨٤ – ١١٥٨٤
هاتف وفاكس : ٢٠٦٧٠٦٧ – جوال : ٠٥٠٤١٩٧٢٤٨
البريد الإلكتروني : Dar_alkayan@hotmail.com
التوزيع داخل جمهورية مصر العربية
مكتبة التوحيد ببور سعيد
ت/٠٦٦٣٣٥٠٨٥٨- جوال/٠١٠٦٩٦٠٠٢٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ديباجة الكتاب

إن الحمد لله نحمدهُ ونستعينُه ونستغفرهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا مَنْ يهدهِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدهُ ورسولهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

وبعد...

فهذه شذارات التبر والبلاتين، قد حوت دررًا من حياة العلماء المعاصرين، وشذرًا من أخبار الدعاة العاملين، فيها من صور الثبات، وروائع المثلات، ما ينعش القلب العليل، وشحذ الخاطر الكليل، وهي طاقة من مكارم الآباء تهدى إلى الأبناء، يهتدون بها

في الظلماء، ويتسنمون بها ذروة العلياء، فكأنهم بها زهر الربى حل به ماء السماء.

وسيأتيك - أيها الحبيب- من نبأ تلك الثلة المباركة الطاهرة التي حشدتها لك بين دفتي هذا الكتاب، ما توقن معه بأن الله لن يخلي زمانًا من قائم بالحجة والبرهان، مجددًا ما الدرس من معالم الدين في هذا الزمان، ولترين من أفعالهم، وكريم شمائلهم ما توقن معه بصدق القائل:

أولئك الناس إن عُدّوا وإن ذكروا … وما سواهم فعلوا غير معدود

ولتهتفن مع الآخر:

كرر علي حديثهم يا حادي … فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

ثم إني بعد مخبرك بعلة التصنيف التي بسببها توجهت إلى ذلكم التأليف:

لقد شهد القرن الهجري المنصرم والربع الأول من القرن الحالي طلقة تتضوع مسكًا أذفرًا في ثلة من أجلة العلماء وسادة الفقهاء، وأعلام النبلاء، وما كاد الربع الأول من هذا القرن ينصرم، وإذا بالمنية قد أنشبت أظفارها منتزعة تلك الدرر من جيد الأمة تاركة إياه عاطلًا عن حلية العلماء وزينة الفقهاء.

وإذا بصاحبكم يجيل بصره بين الديار، ثم يرجع البصر كرة أخرى، وكرتين، فإذا بهذا البصر ينقلب إليه خاسئًا، وهو حسير وإذا بي أنشد نفسي قول القائل:

لما تبدلت المجالس أوجها … غير الذين عهدت من علمائها
ورأيتها محفوفة بسوى الألى … كانوا ولاة صدورها وفنائها
أنشدت بيتًا سائرًا متقدمًا … والعين قد شرقت بجاري مائها
أما الخيام فإنها كخيامهم … وأرى نساء الحي غير نسائها

ففزعت إلى كتبي، فأسلت منها جدول المداد إلى أوراقي، وأفرغت عليها نتفًا مما أعلم من سيرة القوم، عساها تكون سلوى لمن عرفهم ولم يجالسهم، ومواساة لمن عرفهم وجالسهم.

وليكن لمطالعها نصيب من قول الله - جل وعلا- : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

● وقد وضعت ترجمة موجزة لبعض أولئك الأعلام رأيتها تناسب المقام، ولم أجعل هذا مذهبًا مطردًا في جمعيهم.

● ولم أتخذ لنفسي منهجًا ثابتًا في هذا الجمع، فمن النمطية فررت وعدم الترتيب أردت، أردته هكذا بعجره وبجره؛ لينقل القارئ من عظة مبكية إلى طرفة مضحكة، على فائدة معجبة.

فأي رحيق هذا الكتاب تنسمت، فستجني من وراءه شهدًا صافيًا فيه شفاء للناس .

وليكن على ذكرٍ منك أني أَلْفِتُكَ إلى قول القائل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وقد أثبت في خاتمة كل ترجمة المراجع المهمة التي رجعت إليها، وإن لم أكن دقيقًا في إثبات الصفحات؛ إذ إنها قراءة، زمان فليس لي فضل - كما ترى - إلا الجمع، فليس هذا كتاب تراجم بالمعنى المألوف، فأنا فقط انتخبت لك من وسط سطور الترجمة ما يُحمض نفسك ويبهج روحك.

وبعد:

فهذا ما تيسر جمعه، لكم غنمه، وعليَّ غرمه والله وحده المسؤول أن يسبغ علينا ستره وفضله.

فما كان فيه من صواب فمن الله. وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

ونستغفر الله منه «فليمعن الناظر فيه النظر ،وليوسع العذر إن اللبيب من عذر، ويأبى الله العصمة لكتاب غير كتابه، والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه» وبالله التوفيق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب

الفقير إلى ربه

أبو الأشبال

أحمد بن سالم المصري

عفا الله عنه

هاتف جوال: ٠١٠٦٩٦٠٠٢٥ - ٠٠٢

الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ

تواضع وبغض للثناء

يقول الشيخ حمد الفهد:

قد صحبته ثمانية عشر عامًا، ما سمعته يومًا قال عن نفسه (الشيخ) أو (المفتي)، حتى لو كان ينقل الخبر عن غيره بل كان إذا ذكر اسمه ذكره مجردًا إلا مرة واحدة فقط وذلك عندما استضاف أحد وجهاء الخليج الصالحين فأراد مني أن أتصل له على الفندق ليحجز له فيه، فلما كلم موظف الفندق - وكان مصريًا - قال له: معك محمد بن إبراهيم، فلم يعرفه، فقال: محمد ابن إبراهيم آل الشيخ، فلم يعرفه، فردد عليه مرارًا فلم يعرفه، فقال: المفتي، فلما انتهت المكالمة قال: هداه الله، ألزمنا أن نقول هذه الكلمة.

وكان إذا أثنى عليه أحد أو مدحه يقاطعه بقوله: الله يتوب علينا، الله يعفو عنا.

علمه بالعربية

يقول الشيخ صالح آل الشيخ:

وأما في علوم العربية: فقد حفظ من متونها ما به تثبت القدم ويرسخ الفهم في علم العربية، أعني نحوها وتصريفها، فقرأ الآجرومية، وملحة الإعراب للحريري، وقطر الندى، وألفية ابن مالك المشهورة، قرأ هذه

المتون على العلامة النحوي الحليم المتورع الفقيه الشيخ حمد بن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد دَرَّس الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المتون النحوية وشهد تلامذته ومن رآه شهد له بأنه برز في ذلك شرحًا واستنباطًا، حتى أنه حصلت له مناقشات مع بعض الأزهريين في الرياض وكان هو مبرّزًا عليهم في النحو والأصول خاصة في المشكل في ما قالوا وكان الصواب من ذلك مع الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

من ذلك الحكاية المشهورة التي ذكرها لنا عدد من تلامذة الشيخ قالوا: كان الشيخ محمد حامد الفقي وهو العالم الشيخ المعروف في مصر رئيس أنصار السنة المحمدية في مصر، كان مرة في مجلس الشيخ والشيخ عبد العزيز بن شلهوب يقرأ على الشيخ محمد بن إبراهيم بين الإقامة والأذان للعشاء، يقرأ عليه في تفسير ابن كثير أو في تفسير ابن جرير، وصوب الشيخ محمد بن إبراهيم قراءةً للشيخ عبد العزيز بن شلهوب، صوب له قراءة، فردّ الشيخ محمد حامد الفقي على الشيخ تصويبه وقال الصواب كذا مخالفًا للشيخ، فقال الشيخ الصواب كذا فبين الشيخ محمد بن إبراهيم للشيخ محمد حامد الفقي وجه الصواب في ذلك، وكانت المسألة في الصرف.

من كانت له بداية محرقة فستكون له نهاية مشرقة

قال الشيخ صالح آل الشيخ:

وقد حدثني الشيخ عبد العزيز بن صالح بن مرشد حفظه الله أنه استأجر

هو والشيخ محمد بن إبراهيم بيتًا صغيرًا - يعني في شبابهما- ، وضعا فيه كتبهما، استأجراه للتفرغ فيه للمطالعة فكانا يأويان إليه يحفظان ويدرسان ويتذكران، وكانت الأجرة إذ ذاك قريبا من ٧ ريالات عربية، يعني فضة.

ورع وعقل

قال الشيخ صالح آل الشيخ:

لما توفي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف الشيخ الأكبر الذي طالت ملازمة الشيخ محمد بن إبراهيم له، لما توفي أوصى قبل وفاته، أوصى الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رحمه الله قبل وفاته الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله عند وفاته بالشيخ محمد بن إبراهيم، وكان الشيخ محمد بن إبراهيم إذ ذاك قريبا من ٢٨ سنة، ولكن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وهو الداهية السياسي المعروف العالم الكريم الشهم الذي فضائله متداولة إلى هذا الزمان كان متوسما في هذا الشاب الناشئ توسم فيه العقل، توسم فيه العلم، فأوصى به رحمه الله، أوصى به الملك عبد العزيز، وكان من بدايات تلك الوصية يُنيب الشيخ محمد بن إبراهيم مع صغر سنه ينيبه في مسجده مسجد الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المعروف الآن في دخنة بمسجد الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان ينيبه ويصلي الشيخ محمد الفروض عن الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف رحمهم الله تعالى، قَبل الشيخ ذلك يعني قبل الوكالة وأوصى الشيخ عبد الله الملك عبد العزيز بالشيخ محمد بن إبراهيم هذا الشاب الناشئ، والملك عبد العزيز لحظ ذلك فيه واعتنى به وقبل الوصية، وكان للملك عبد العزيز الأثر البالغ في صياغة شخصية الشيخ محمد بن إبراهيم، وكان للشيخ محمد في نفس الملك عبد العزيز محبة عظيمة فلم يكن يصبر عن لقائه وقبول مشاوراته بما هو معروف لدى

كثير من الناس.

لما توفي الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف فحانت الصلاة التي هي بعد وفاته امتنع الشيخ محمد بن إبراهيم أن يصلي بالناس، وقال كانت صلاتي بالناس وكالة وكلني بها الإمام؛ إمام المسجد الذي هو الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف، وأما الآن فلست متوليًا الصلاة لأن الوكالة قد انقطعت بموت الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف لأن هذه وظيفة شرعية، وكانت هذه بشهود العلماء في وقته كانت بداية لتورع وعقل وعلم وفقه في الأمر، ثم أُمر بالصلاة في مكانه فكان الشيخ محمد بن إبراهيم إمامًا للمسجد إلى أن توفي رحمهم الله تعالى أجمعين.

تقدير الشيخ للعلماء والمشايخ والدعاة والقضاة

يقول الشيخ حمد الفهد:

كان يثني على مشايخه الذين درس عليهم - وقد سبق ذكر شيء من ذلك- فكان يقول عن شيخه الشيخ سعد بن عتيق: شيخنا الشيخ الكبير والعالم الشهير، وكان إذا أتاه الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع قام له ورحب به وأجلسه مكانه.

ومن ذلك أنه كان يحب الشيخ عبد الله القرعاوي رحمه الله - الداعية في (جيزان)- ويقدره، فكان إذا أتى إليه يكرمه كثيرًا.

ومن ذلك أنه كان يحب الشيخ حمود التويجري رحمه الله، وقد رأيت الشيخ حمود مرة أتى إلى الشيخ محمد يقرأ عليه أحد ردوده التي ألفها ضد بعض المبتدعة، فلما نهض الشيخ حمود وانصرف قال الشيخ محمد: **الشيخ حمود مجاهد جزاه الله خيرًا.**

ومن ذلك أنه كان يحب الشيخ أحمد شاكر والشيخ محمد حامد الفقي رحمهما الله تعالى، وقد رأيتهما عنده كثيرًا إذا أتيا إلى المملكة، وكان يكرمهم ويجلهم.

ومن ذلك احترامه وتقديره أيضًا للشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب (أضواء البيان) والشيخ محمد المختار الشنقيطي.

ومن ذلك أنه كان لا يرضى لأحد من العامة أن يتكلم في القضاة مطلقًا إذا كان بغير حقٍ أو اتهام لنية القاضي وقصده، ولو حدث ما يستدعي عزل القاضي لعزله ولا يتكلم عليه ولا يجعل أحدًا يتكلم عليه إلا بحدود القضية.

منهجه في التدريس

ويحدثنا الشيخ صالح آل الشيخ عن منهجية الشيخ في التدريس وعلاقته بطلابه ومدى تأثيره فيهم فيقول:

وصف الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم دروس الشيخ محمد بن إبراهيم في فترة ما، دروس الشيخ كانت متنوعة يعني يختلف تقسيمها الزمني من وقت إلى وقت ما بين الخمسين والستين كان لها ترتيب وما بعد الستين كان لها ترتيب، ثم هكذا قد يكون الترتيب الذي سنسمعه الآن ليس متفَقا عليه في كل فترات الشيخ التعليمية؛ لكن هكذا وصف الشيخ محمد ابن قاسم، وهو من تلاميذه الذين لازموه سنين طويلة، قال الشيخ محمد ابن قاسم يصف دروسه قال: كان الشيخ محمد بن إبراهيم يجلس ثلاث جلسات منتظمة:

فالأولى: بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس.

والثانية: بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين ساعتين وأربع ساعات.

والثالثة: بعد صلاة العصر.

وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة- أي يأتي بها حينا ولا يأتي بها حينا آخر، وهي بعد صلاة الظهر..

قال ابن قاسم:

كان رَحِمَهُ اللهُ ينقطع بعد المغرب لمطالعة دروس الغد في الكتب التي كانت تُدَرَّس بعد الفجر.

والذي أعرفه أنه كان يحضر للدروس بعد العشاء، لكن ربما كان الشيخ محمد بن قاسم يحكي فترة من الفترات، أما بعد المغرب فكان يقرأ كما حدثني الشيخ حسن بن مانع وهو من تلامذة الشيخ المعروفين أنه كان يقرأ بعد المغرب في بعض الكتب الخاصة، ولا يحضر القراءة إلا خاصة تلامذته الذين يأذن لهم، وأما مراجعته فكانت بعد العشاء، المقصود أنه ربما ما ذكره الشيخ محمد بن قاسم في فترة من الفترات، فكان يحضر ويطالع دروس الغد إما بعد المغرب في فترة أو بعد العشاء في فترة أخرى تقرأ عليه في بعض الدروس التي تقرأ عليه بعد الفجر، ومن تلك الدروس ومنها: الروض المربع، وسبل السلام، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وما يعين عليها من المراجع؛ يعني التي كانت تقرأ على الشيخ ليحضّر بها أو يتذكر بها ما يتصل بالدرس الذي يدرسه التلاميذ من غد.

قال الشيخ ابن قاسم: بعد صلاة الفجر كان يدرس ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل، وزاد المستقنع مع شرحه الروض المربع، وبلوغ المرام والآجرومية والملحة وقطر الندى.

وهذه كانت متنوعة بعضها لصغار الطلاب وبعضها للمتوسطين وبعضها لكبار الطلاب، وهذه كانت في فترة متأخرة، وأما في فترة

مبكرة كان يدرّس بعد الفجر كتب التوحيد ونبذ أئمة الدعوة رحمهم الله تعالى.

قال الشيخ ابن قاسم: وكان يقرئ في الفجر أصول الأحكام والحموية والتدمرية ونخبة الفكر.

الثلاثة الأُوَل مستمرة - يعني ألفية ابن مالك والروض المربع وشرح بلوغ المرام- وكان يقوم بتدريسها على ترتيبها المذكور أما في باقي الكتب فبالتعاقبْ على فترات مختلفة طيلة أيام تدريسه.

بعد شروق الشمس: يدرِّس في العقائد كتاب التوحيد، كشف الشبهات، ثلاثة الأصول، العقيدة الواسطية باستمرار، مسائل التوحيد، مسائل الجاهلية، لمعة الاعتقاد، أصول الإيمان على فترات.

وفي الحديث: الأربعين النووية، عمدة الأحكام باستمرار.

وفي الفقه: آداب المشي إلى الصلاة، وقد يُدرِّس غيرها، لكنه نادر.

بعد الانتهاء من هذه المختصرات تقرأ المطولات - يعني في الفترة بعد ذلك- ومنها: فتح المجيد، شرح الطحاوية، شرح الأربعين النووية، صحيح البخاري، صحيح مسلم، السنن الأربعة، مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد ذكر لي سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله أنه كان يسمع قراءة جامع الترمذي على الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ ما بين فترة وفترة، وكان يقرأ عليه أحد الأسرة آل الشيخ، قلت للشيخ كنت تقرأ على الشيخ الترمذي أو تواظب عليه؟ قال لا كنا صغارا إذ ذاك وكان ذلك في الفترة ما بين الخمسين والستين، وكان الشيخ إذ ذلك من طلبة الشيخ محمد بن إبراهيم المبرّزين.

لكن ينتبه إلى أن الطلبة كانوا ينتبهون إلى التدرج في طلب العلم وكان الواحد منهم لا يأتي إلى هذه الكتب العظيمة ويقرؤها على المشايخ وهو لم يحكم الكتب الأولى؛ بل إن إحكام الكتب المختصرة كانت طريقة أهل العلم، لهذا الشيخ كان يقرأ عليه صحيح البخاري ويقرأ عليه صحيح مسلم والسنن؛ لكن كانت لخاصة من الطلبة الذين برزوا وربما كان ربما لكبار منهم أو لعلماء أيضا كما ذكرت لك آنفًا.

وكان يقرأ عليه أيضا في هذه الفترة مؤلفات شيخ الإسلام - يعني فترة الضحى- وابن القيم كذلك يقرأ عليه ابن كثير، وكل ما جد من كتب السلف والمحققين من العلماء، لكنها على فترات يتراوح ما يقرأ منها في اليوم الواحد ما بين خمسة وعشرة من تلك الكتب غالبًا.

بعد صلاة الظهر، ويدرس فيه: زاد المستقنع بشرحه على بعض الطلاب، وبلوغ المرام.

وهذا حدثني بعض المشايخ أنه يقرأ عليه صحيح البخاري بعد صلاة الظهر.

بعد صلاة العصر، يدرس فيه كتاب التوحيد وشرحه، وقد يقرأ في مسند الإمام أحمد، أو مصنف ابن أبي شيبة، أو في الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، أو نحوها. انتهى ما وصفه الشيخ ابن قاسم من القراءة. طبعا هذه في فترة متأخرة.

وهذا الوقت العظيم الذي يبذل من صلاة الفجر إلى أن تغيب الشمس كله في العلم، لا شك أن هذا هو حالة أهل العلم الذين انقطعوا للعلم والتعليم، وبهذا يخرج العلماء، بهذا يستفيد الطلاب أما بالقراءة في وقتنا هذا قراءة التذوق أو الدروس التي هي كالتذوق ما بين فترة وفترة، فهي كالمكملات لئلا تنقطع حلق العلم، أما تحصيل العلم فلا يكون بهذه فقط

بل لابد من الجد فيه ليلًا ونهارًا ما بين تدريس ودرس وتعليم ومطالعة، وهكذا كانت أحوال المتقدمين.

نظرت وسمعت إلى حال الشيخ رحمه الله من بعد صلاة الفجر وهو يُقرئ ويقرأ عليه، هذا مع ما يتخلل تلك الفترات؛ يعني بعد الفجر في قراءة، بعد طلوع الشمس في قراءة، في الضحى ثم قراءة، بعد الظهر في قراءة، بعد العصر في قراءة، بعد المغرب ثَم قراءة، بعد العشاء استعداد، أين نصيب أهله منه؟ أين وقت الفتاوى التي ترد عليه من كل مكان؟ كان وقته رحمه الله منقطعًا ليلًا ونهارًا للعلم.

بل قد حدثني بعض المشايخ في فترة متأخرة أنه كان كلما رام أحد أن يقرأ عليه كتاب ليراجعه إذا صنف أحد طلبة العلم كتابًا عرضه على الشيخ يقرؤه عليه هل ثم من ملاحظة أو نحو ذلك، وهذه سنة من سنن العلماء المتقدمين، قال واعده الشيخ قبل الفجر بساعة لأنه بعد الفجر مشغول مع الطلبة، والضحى كذلك، وقبل الظهر كذلك وبعد الظهر وبعد العصر وبعد المغرب فأين الوقت؟ قال لي أحد المشايخ قال كان يواعدني قبل صلاة الفجر بساعة كل يوم أعرض عليه ما ألفت حتى أنهيه أين وقت النوم؟ أين وقت الراحة؟ أين وقت الأهل؟ أين وقت كذا لأمور الإنسان؟ لم يكن ثم وقت إلا للعلم والتعليم والجهاد ونشر الدعوة ونفع الناس، وهكذا يكون العظماء.

هذا الوصف الذي ذكره الشيخ ابن قاسم يمثل فترة من عمر الشيخ، وهي في الغالب ما بعد الستين فيما أحسب يعني ما بعد ١٣٦٠هـ.

وقد ذكر لي الشيخ العلامة حمود التويجري رحمه الله أنه كان يقرأ عليه مؤلفاته يعرضها على الشيخ هل ثم ملاحظة عليها أو تصحيح أو نحو ذلك، وكان ذلك في الفترة ما بعد سنة ١٣٨٠هـ يقول الشيخ حمود التويجري:

كنت أقرأ عليه الكتاب ونجلس من بعد صلاة الفجر - يعني من بعد أن انقطعت الدروس المتواصلة بعد سنة ١٣٨٠هـ- نجلس جلسة واحدة ثلاثة ساعات أربع ساعات حتى تصلنا الشمس من بعد الفجر، يقول: وأنا صاحب الكتاب الذي ألفه أمل من القراءة وأتعب من ذلك وهو لا يمل ويسمع ويسمع. وهذا لاشك ينبئ عن شخصية فيها الصبر وفيها الجلد على العلم وفيها الرغبة في نفع الناس، ولهذا إذا رأيت حال أولئك وجدت العجب العجيب، إذا رأيت يوم الشيخ كيف قسمه على أولئك فلا تخرج منه إلا بأن الله جل وعلا يبارك في أوقات من شاء من عباده، والعلم إذا بذل فيه المرء ما بذل من الوقت بارك الله جل وعلا له فيما أعطاه من الوقت والوقت يبارك، ولهذا نجد في حياتنا الوقت ضعف؛ ضعفت الاستفادة منه، تنقضي الأوقات بسرعة، وهذا لأجل فيما أحسب لأجل عدم البركة فيما أعطينا من الأوقات، وأما المتقدمون فقد بارك الله جل وعلا لهم في الأوقات، ولاشك أن هذا له أسباب وأظن أن أعظم تلك الأسباب هو إخلاصهم لله جل وعلا وكثرة الرهب والدعاء إلى الله جل وعلا بالمباركة.

تعليقة على ما مرّ:

يقول الشيخ صالح: هذه المنهجية التي سمعت في التدريس، هذه المنهجية في القراءة في المختصرات، القراءة في هذه الأنواع من العلوم وفي الكتب، هذه المنهجية في العلم هي التي تخرج العلماء، حفظ للمتون بيان وشرح لها، ضبط للأصول ومعرفة للأدلة، هذه الطريقة هي التي خرجت العلماء الذين ينفعون الناس اليوم، علماؤنا اليوم، تلامذة الشيخ محمد بن إبراهيم اليوم - سيأتي ذكر بعض أسمائهم- هؤلاء نفعوا الناس سنين متطاولة بعد الشيخ رحمه الله، وهل كان النفع خاصا بالبلاد هذه السعودية؟ لا، فنفع تلامذة الشيخ محمد

ابن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصل الأرض من شرقها إلى غربها، وإذا تأملت نفعهم وتأملت فتاواهم وتأملت رسائلهم وكتبهم وكيف أثرت في الاتجاه الإسلامي العام في الأرض وجدت أن الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأجزل له المثوبة قد أنتج مدرسة وأنتج دعوة وأخرج أناسًا حملوا إلى الأرض العلم النافع، ولاشك فإن المتأمل يخرج بهذا بيقين، وهذا من فضل الله جل وعلا علينا وعلى الناس.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر لي بعضهم أنه كان يقسم الطلاب إلى ثلاثة طبقات: مبتدئون متوسطون منتهون. ذكر لي أحد الأجلة من تلامذة الشيخ أنه إذا أتاه الآتي وقال له أريد أن أقرأ عليك يا شيخ، قال هل حفظت القرآن؟ - أقرأ يعني أقرأ لك المتن وتشرحه لي- قال هل حفظت القرآن فإذا أجاب بنعم أدخله مع الطلاب إذا قال لا لم أحفظ القرآن قال لا علم إلا بحفظ القرآن اذهب فاحفظ القرآن أولًا ثم بعد ذلك تعلم العلم.

اليوم يقرأ الناس وتجد عندهم مؤلفات، وتجد عندهم كلام طويل وهو لا يحفظ القرآن، لاشك أن هذا من الغلط، وهذا من الأمور التي حدثت في الناس.

قال الشيخ محمد بن قاسم: كان الشيخ يحرص جدًّا على أن يحفظ جميع الطلاب المنتظمين المتون ولا يرضى بنصف حفظ، ولا ينتقل الطالب من متن إلى متن أطول منه إلا بعد حفظ الأول وفهمه، ولهذا كان الطالب المجد منهم يتخرج في سبع سنوات.

قد حُدثت أيضًا أن بعض المتعلمين؛ يعني بعض طلاب الشيخ بدأ يقرأ عليه فتتعتع في الحفظ مرتين فنهره الشيخ نهرًا بالغًا، قال ما هذه بقراءة وليس هذا بحفظ. مرتين، اليوم يصبر على القارئ عشر مرات يغلط وعسى أن يحفظ لكن المتقدمون يحفظون حفظ كأنه يحفظ الفاتحة هذا الذي

يسمى الحفظ، أما الحفظ مع الأغلاط فلا يسمى حفظا، لماذا؟ لأنه لا يبقى مع المرء، أما إذا حفظ جيدا يبقى معه مع الحفظ في فترات من عمره، أما الحفظ الذي ليس بحفظ فهذا لا يبقى مع المرء.

كان الطلاب مع الشيخ في عجائب، مما يذكر في هذا أن أحد المشايخ حدثني قال كنا نستغرب من أين يأتي الشيخ بهذه المعلومات التي يعطينا إياها في درسنا - يأتي في وصف طريقة الشيخ في إعطائه المعلومات وتركيزه للعلم- قال كنا نستغرب من أين يأتي الشيخ بهذه المعلومات، يقول فاجتمعنا على تحضير بعض الدروس، على مراجعة الدرس قبل أن يدرس الشيخ يعني في الفجر، يقول فسهرنا تلك الليلة وأتينا بالكتب المطولة، وراجعنا ما فيها بتدقيق على المتن الذي سيشرحه الشيخ في الصباح، يقول فلما أتينا صباحا وتكلم الشيخ، يقول أردت أن أبين للشيخ أني على علم بالمسألة وعلى معرفة، قال فسألته قلت له يشكل على هذا كذا، هذا الطالب غلط وأورد إشكالا ليس في موضعه يعني الإشكال في مسألة ستأتي فيما بعد وأورد الإشكال في غير موضعه فسبق، قال فلما أوردت الإشكال تأمل الشيخ ونظر تأمل ثم قال بعد ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وقام من المجلس تأديبا للطلاب، يقول فأخذ الطلاب يلومونني عن السؤال ففهم القصد أنه أراد إحراج الشيخ أو أراد أن يبين للشيخ أنه قرأ أو نحو ذلك، وهكذا كان الشيخ مع طلابه لا يسمح لأحد بأن يتعدى عليه أو أن يخطئ معه في حقه.

مرة من المرات كان في حلقة من التعليم، قسم مسألة من الفرائض؛ يعني أعطى تدريبا في الفرائض وكانت الحلقة فيها نحو ٥٠ من الطلاب، فأعطى نصف الحلقة مسائل للأول: اقسم كذا هلك هالك عن أعطاه

مسألة، الثاني الذي بعده هلك هالك عن وأعطاه مسألة، والثالث حتى وصل إلى نصف الحلقة يعني إلى نحو ٢٦ ثم لما أتم هؤلاء، قال ارجعوا فرجع إلى الأول قال اقسم مسألتك فقسم فصوبه إما بصواب أو بخطأ، ثم الثاني قال فلما وصل إلى بعد العاشر، قال اقسم مسألتك، قال مسألتي كذا وكذا وكذا قال كذبت ما هذه بمسألتك، هذه مسألة التي بعدك، وغضب عليهم الشيخ وقال طلاب العلم يكذبون هذا أول العلم الكذب ونحو ذلك، فكان شديدا مربيا للطلاب لا يسمح لأحد بأن يخطئ أو أن يتعدى حده، لهذا كانوا يحترمون الشيخ كمعلم وشيخ ووالد ومؤدب، وكانوا معه على أشد الخوف من البشر.

الطلاب كما تعلمون بعضهم يختلفون، كان الشيخ يحب تلامذته محبة بالغة ويعطف عليهم، ينقل لهم الطعام بنفسه من البيت إلى المسجد خاصة الإخوان، ويطبخ طعامهم في بيته ويعطيهم بين الحين والآخر، إذا وجد على أحدهم أثر الحاجة أو أثر الجوع أخذه معه في بيته وطعم معه وهكذا، بعض الطلاب كما هو المعتاد يحصل مع البعض الآخر بينهم منافسة ونحو ذلك، فكان منهم - في عرف الحاضرين- من يستهزئ بالآخر يعني يتعير على الآخر ويستهزئ به، فبلغ الشيخ أن فلانا من الطلاب أو فلانا من الناس يستهزئ بفلان ويسخر منه، قال خيرا إن شاء الله، ولما حصل هذا وأتى من الغد نادى هذا الذي بلغه منه الاستهزاء في وسط الحلقة، فلما قرب منه أخذه وضربه بكفه ضربة على وجهه وقال له إياك أن تستهزئ بطلبة العلم في يوم من الأيام، وفرح طبعا من كان مظلوما بهذا الاستهزاء.

مرة من المرات الشيخ رحمه الله - الطلاب كما تعلمون يتكلمون في شيخهم فلان ينقد فلان يبين حالته وفلان يقول هذا فيه كذا والشيخ فيه كذا على عادة الطلاب وهذا من العقوق أن يتكلم الطالب في

شيخ نفعه وبذل له وقتا- رام بعض الطلاب أن ينقل ما يقال في الشيخ للشيخ أتى للشيخ وقال له فلان يقول عنك كذا وكذا فمسكه الشيخ وضربه أمام الناس، وقال له ما وجد الشيطان من يرسل إلا أنت، ما فرح بما يقال هذا يُغِير الصدور والمؤمن مأمور أن يصلح ذات البين إذا قيل فيه قيل في الرسل وما يضر ذلك، المهم المرء أن يبذل وأن ينفع وليس المهم في حياة المرء أن يسمع ما قيل فيه لأنه سيكسبه ذلك عداوة وربما ينغص في نفسه على فلان وفلان من الناس.

المقصود أن هذه الحوادث تعطيك شخصية الشيخ في علمه، وتعليمه، وقوته، في عدم سماحه بالخطأ، في هيبة الناس منه وخوفهم منه أعني طلبته في عدم سماحه بمداخل الشيطان أن تكون بين الطلاب، في غرس المحبة والاحترام بين الإخوان بعضهم مع بعض في حلق التعليم رحمه الله رحمة واسعة.

ما طريقة الشيخ في التعليم؟

يقول الشيخ صالح: الشيخ رحمه الله خرج أعدادا غفيرة من الطلاب في فترة من الفترات بلغ عدد الطلاب كما هو موجود عندي مدون في كشف أكثر من ١٩٠ طالبًا، تنوعوا منهم من صاروا علماء، منهم من صاروا قضاة، ومنهم من صاروا مدرسين معلمين في الكليات أو في المعاهد، منهم من صاروا في الدعوة إلى آخره، هذه الأفواج التي تخرجت وحملوا العلم لاشك أنهم تخرجوا بعد اتصالهم وملازمتهم للشيخ، وكان الشيخ معهم في منهجية علمية جعل الطلاب في قوة علمية مؤتلفة غير مشتتة، ففي التوحيد - كما ذكرت لكم- كان اهتمامه بكتبه التأسيسية التي تبين العقيدة الحقة بأدلتها، وكانت طريقته في شرح كتب الاعتقاد أن لا يذكر الخلاف في الاعتقاد، بل يذكر أدلة أهل السنة والجماعة وما قاله أئمة التوحيد في المسألة، ويبين أدلتهم ويفصل في ذلك ولا يذكر قول المخالفين إلا نادرا

عند الاحتياج ويجمله؛ هذا قول الأشاعرة قالت المبتدعة كذا قالت الأشاعرة كذا، وليس على طريقة بعض الناس أنهم يفصلون في أقوال المخالفين، وهذا إنما يكون عند الحاجة إلى ذلك إذا اختلط الناس أو إذا احتاج الناس إلى ذلك؛ لكن الشيخ رحمه الله لم يكن يعرج على مذاهب الخرافيين والمبتدعة وشبههم إلا إذا دعت الحاجة، بينما تجد أكثر تفصيله وتدليله على معتقد أهل السنة والجماعة، وهذا ولاشك يعطي قوة علمية استدلالية ويعطي ثباتا في موقف الحق، وعدم تشويش الأذهان بكثرة الأقوال المبتدعة، وهذا لأجل أن المبتدعة وأقوال المبتدعة لم تكن مشتهرة إذ ذاك.

وأما في الفقه: فقد جعل دروسه رحمه الله منبثقة من متون الفقه الحنبلي، ومتون الفقه الحنبلي عند أهل العلم محررة مدققة، تفتق ذهن الطلاب، وتقوي إدراك الطالب الفقهي، فاعتماد متن للمذهب مما جعله الشيخ طريقة له وذلك لأنه خير طريقة لتحصيل الفقه، فبه يُبنى الذهن الفقهي، وبه تؤسس قواعد التصور للمسائل الفقهية، ويأتي بعد ذلك التفريع والتدليل وذكر الخلاف عند الحاجة والترجيح.

إذن فتكون معرفة الأقوال بعد إحكام الأصول وضبط تصور المسائل.

تعجب اليوم أنه تجد عند بعض الناس من معرفة الأقوال والخلافات بينما صورة المسألة لا تجدها واضحة عنده، وهذا غلط علمي يُذهب التقدم العلمي عند الطلاب؛ بل لابد أن تكون في طلبك للعلم معتمدا على متن من المتون في الفقه، وعلى متن من المتون عندنا متن من متون المذهب الحنبلي مذهب الإمام أحمد رحمه الله على شيخ، إذا ضبطت المتن وتصورت مسائله ودليل المذهب، ثم بعد ذلك يعرفك الشيخ بالمذاهب الأخرى شيئا فشيئا حتى تكون عندك ملكة فقهية وتصور للفقه كيف يعرض وكيف تعرض مسائله، أما هذا الشتات الذي تراه

اليوم في كثير من الدروس فإن هذا لم يكن طريقة للشيخ رحمه الله.

كان الشيخ رحمه الله، يعرض للمتن وهو (زاد المستقنع) بشرحه وهو الروض المربع، فيبين عبارة الماتن بدقة، بألفاظها ومحترزاتها ومفهومها إن كان لها مفهوم ويوضح ذلك بعبارة واضحة، ويصور المسألة تلو المسألة بحيث لا تشتبه مع نظيراتها في ذهن الطلاب، ولا يبدأ بالاستدلال أو ذكر الخلاف كما يفعل بعضهم اليوم في دروسهم إما في الجامعات أو في المساجد؛ بل كان هم الشيخ رحمه الله أن يحدث التصور الفقهي والملكة الفقهية في ذهن الطالب؛ لأن المعلومات يمكن للطالب أنه بعد حين يجمعها من الكتب إذا فرغ، لكن الذي ينقله المعلم للمتعلم إذا كان حريصا عليه أن يكون المتعلم طالب علم على الحقيقة ينقل له فهمه للمسائل، تصوره للمسائل حتى يكون المتعلم بذهن فقهي صحيح.

ثم يذكر الشيخ بعد أن يصور المسألة الدليل مع وجه الاستدلال، أو يذكر التعليل، أو إرجاع حكم المسألة إلى أصل أو قاعدة أو نحو ذلك من الحجج، وربما ذكر الخلاف القوي في بعض المسائل إذا كان الخلاف مشتهرًا، أو كان هناك حاجة لبيانه، وغالبًا ما يذكر اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ويذكر هل عليه العمل أو ليس عليه عمل أئمة هذه الدعوة رحمهم الله تعالى.

وأما مطولات الفقه فلم يكن الشيخ يفصل الكلام عليها بنحو ما سلف، ولكن يذكر بعض ما يحتاج إلى إيضاحه، فقد كان يقرأ عليه كشاف القناع وكان يقرأ عليه في المغني في بعض الفترات ولم يكن يفصل عليها لأنها كتب مطولة هي للخاصة من الطلاب.

هذه الطريقة النافعة التي درج عليها علماؤنا السابقون، وبها صعد في

مدارج التفقه فئام نفعوا العباد والبلاد رحم الله الأموات ونفع بالأحياء وأجزل مثوبة الجميع.

قلب نقي

ويقول الشيخ ابن قاسم عن طهارة قلب الشيخ:

كان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، ولا ينتقم من أحد ناله بأذى، وله في ذلك أحوال عجيبة.

كان أحد المشايخ المعروفين لما حصلت مسألة نقل مقام إبراهيم فكلم أحد المشايخ رحمهم الله: الشيخ محمد بن إبراهيم لما يأذن بنقله ولماذا يفتي ونال من الشيخ بكلام، وبلغ الشيخ بعض ذلك، وأنه كان يقول إذا أراد أن يذكر الشيخ ابن إبراهيم قال كذا، ابن إبراهيم قال كذا، وبالمناسبة هذه الكلمة ابن إبراهيم ما كان يقولها محبو الشيخ، وإنما كان يقول محبو الشيخ الشيخ محمد أو الشيخ محمد بن إبراهيم، أما كلمة ابن إبراهيم فما كان يقولها محبوه، فليتنبه الناشئة أو طلبة العلم إلى هذه؛ لأنها عند استعمال بعض من يغفل عن هذا قد تدل من يعرف المصطلح الأول على بعض الأشياء التي قد لا تكون صحيحة، هذا الشيخ كان ينال من الشيخ محمد فيقول ابن إبراهيم كان يقول كذا لا يقول الشيخ ونحو ذلك، وكان الشيخ عبد العزيز بن مرشد حفظه الله ذكر لي أنه نقل إلى الشيخ محمد بن إبراهيم قال له: فلان الشيخ تعرف مقامه وكان ينشر التوحيد في مكة وأنه وأنه، فلا تأخذ في خاطرك من كلامه قال مصداقًا عن كلام الشيخ ابن قاسم عن طهارة قلبه، وأنه كان لا يحمل ضغينة على من أساء إليه، قال: وماذا قال فلان؟ ما بلغني عنه أنه قال: إلا يقول ابن

إبراهيم وأفتى ابن إبراهيم وصدق فأنا ابن إبراهيم، قال الشيخ عبد العزيز ابن مرشد قال الشيخ محمد بن إبراهيم والله إنه لأغلى عندي من بعض أولادي، وذلك لما قامه ذلك العالم في مكة لما يقوم به من تدريس ونشر للعلم والتوحيد وإقرار لكتب أئمة الدعوة في ذلك، لاشك أن المرء إذا سلم من الهوى سلم من الدنيا، أهل العلم إذا سلموا من الدنيا سلموا من الهوى سلموا من الرغب في المناصب الرغب في الشهرة الرغب في الانتصار للنفس بارك الله جل وعلا لهم وفيهم ورزقهم القبول، أما إذا كان همه الانتصار للنفس فهنا يبدأ النزول في حق من كان كذلك.

شجاعة آسرة

ويقول الشيخ صالح آل الشيخ:

كان شجاعًا قويّ الشكيمة، لا يتردد في إعلان الحق أيًّا كان المخاطب به. وهذا له جهات منها نصرته لطلبة العلم، نصرته لأهل العلم، فكان قوي النصرة جدًّا لهم بحيث أنه لا يسمح أن ينال أحد من أهل العلم بأذى، وذلك لأن أهل العلم كانوا يأتمرون بأمره ولا يخرجون عن مراده، ما قال لهم سلموا به، فكان يحميهم أشد الحماية.

ومن هذه القصص قصة حصلت للشيخ عبد الله القرعاوي الداعية المعروف أنه رام مرة الذهاب من الرياض بالطائرة فلما ذهب إلى المطار وكان مهيئًا للحجز فقالوا له ليس لديكم حجز ولا يمكن أن تذهبوا، فذهب لمدير المطار وكان مدير المطار إذ ذاك نقيبًا يعني شرطي نقيب - هذا الكلام له الآن أكثر من أربعين سنة أو نحو ذلك- فدخل عليه الشيخ عبد الله القرعاوي ومعه مجموعة من الذين كانوا يريدون السفر ولم يمكنوا منه فقالوا له الأمر كيت وكيت، فقال له بالعبارة التي نقلت لي أنتم كَفُوا أننا

ننزل أحد أو أننا نساعدكم أو نحو هذه العبارة، انتم كفوا يعني أنتم طلبة علم يعنوا كفوا أنكم تروحون وتجون ونحو ذلك فالشيخ عبد الله القرعاوي بلغت هذه في نفسه مبلغها ورجع إلى الرياض وأخبر الشيخ محمد بن إبراهيم بالحادثة، فقال الشيخ بمن عنده اتصلوا بمدير المطار وقولوا له يحضر، فاتصلوا بمدير المطار وقالوا له الشيخ محمد يقول يأتيني الآن، فأتى مدير المطار الذي هو النقيب للشيخ محمد، ولما حضر قال أمركم سيدي، قال الشيخ يقول المشايخ أنهم أتوك وقلت لهم كذا وكذا فهل هذا صحيح، فقال نعم ولكن، قال هل هو صحيح أم لا أجب بنعم أو لا، قال نعم صحيح قال له اقترب فلما اقترب وكان عليه البدلة العسكرية وأيضا التي على الرأس هذه، فلما اقترب من الشيخ مسكه الشيخ من تلابيبه ضربه ضربة يعني صفقه صفقة على وجهه قوية طار منه ما على رأسه أمام طلبة العلم وهذا كما ذكرت شجاعة وقوة شكيمة وعدم السماح أن يُنال أحد من أهل العلم عنده بأذى، والشيخ عبد الله القرعاوي كان له عند الشيخ مكانة وكان الشيخ عبد الله دائم الصلة يستشير الشيخ ما يكون من نشر الدعوة في جنوب الجزيرة.

استخفاء بالعمل

قال الشيخ صالح آل الشيخ:

مرة دعا الملك سعود رحمه الله دعوة في الدرعية دعوة كبيرة وكان من عادة الملك سعود إذ ذاك أنه يعطي من يدعوه، فلما دعاه أرسل الملك سعود بعطية جزلة للشيخ قدرها أظن مائة ريال في ذلك الوقت، والناس منهم من تكلم وقالوا الشيخ دعا الملك سعود وسيعطيه الملك سعود، وسنرى ما يفعل، ولم يعلم أحد ما صنع الشيخ بذلك المال حتى توفي، وذكر أحد

المعروفين في الدرعية أن الشيخ أعطاه ليلة وصله هذا المبلغ، أعطاه لذلك الرجل ووكله في صرفه في إعمار ما خرب أو احتاج إلى إعمال من مساجد الدرعية.

لاشك من أن مثل هذا لو فعله فاعل منا اليوم حتى من كثير من أهل العلم صار يتحدث به سنة لأجل الحال، لكن المعامل مع الله جل وعلا ينشر الله جل وعلا فضائله؛ لأن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبدا وضع له القبول في الأرض.

إنما العلم الخشية

قال الشيخ صالح آل الشيخ:

كان من أهل الخشية - هذا من كلام ابن قاسم - ، كثيرًا ما يلهج بذكر الله والاستغفار، وتغرورق عيناه بالدموع حين يكون مناجيًا لله، ويسمع بعض ما يحرك القلوب، ولقد كان ذلك يتجلى كثيرًا فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره. يقول الشيخ ابن قاسم: وقد صحبته زمنًا طويلًا وهو يقوم في الليل ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل لا يترك ذلك.

وهذا مع كثرة الأعمال والدروس وقلة وقت النوم يُنْبِيكَ عن أمور كثيرة والتوفيق بيد الله جل وعلا، هكذا كان أهل العلم ليس العلم لفظا باللسان، إنما العلم معه عمل معه تقوى معه صلاح معه خشية وإنابة، وكان صلبا رحمه الله في الظاهر؛ ولكنه في الباطن كان رقيقا جدا دمعته تنحدر من أدنى موعظة أو إذا مات أحد من الناس أو نحو ذلك، كان قريب الدمعة كثير الوجل رحمه الله وأعقبه ورفع درجته في جنات النعيم.

من فتاواه وفوائده

قال الشيخ حمد الفهد:

١- سألته عن العقل هل هو في الصدر أو في الرأس؟ فقال: قيل هذا، وقيل هذا، ولكن الذي يظهر أن الصدر يحضر، والرأس يجمع.

٢- وسمعته يقول: لابد في الوضوء من أقل جريان ولا يكفي مجرد البلل.

٣- وكان أحد أبنائه الصغار يتوضأ فبدأ باليسار قبل اليمين فأخبرت الشيخ بذلك، فضحك وقال: يجوز، ولكنه خلاف الأفضل.

٤- وسأله رجل وأنا أسمع عن التسوك هل يبدأ باليسار أو باليمين؟ فقال: بل باليسار لأنه إماطة أذى.

٥- وكان يقول في المسح على الجوارب أنه إذا كان فيه شق يسير فلا بأس بالمسح عليه خصوصًا إذا كان مما يلي باطن القدم.

٦- وكنت معه مرة فصلينا المغرب خارج الرياض، فلما انصرف خلع الخفين، فسألته عن السبب، فقال: انتهى وقت المسح عليهما والإمام ليس كالمأموم- يعني يخاف من نسيان المدة- .

٧- وسألته عن التيمم هل يجزئ بكل تراب له غبار أو لا، وهل يجزئ التيمم على الرمل- لأن منطقتي (الزلفي) كثيرة الرمل- ، فقال: نعم يجوز.

وقد رأيت الشيخ محمد مرارًا يتيمم على الجدار وكان طينيًا يضربه مرة واحدة ثم يمسح يديه ووجهه.

٨- وسمعته يقول: إن النبي ﷺ لما غزا تبوك في السنة التاسعة كان طريقه إلى (تبوك) أكثره رملي ولم ينقل عنه أنه حمل معه ترابًا ليتيمم به، لو كان فعل ذلك لتوفرت الدواعي والهمم لنقله، فدل ذلك على جواز التيمم بالرمل وما أشبهه.

٩- وكان كثيرًا ما يسأل عن تغسيل اليدين من أثر الأكل وسريان الغسالة في ماء المجاري هل يجوز؟ فكان رحمه الله يقول: نعم، يجوز، وهل هو إلا وساخة من اليدين!!.

١٠- ورأيت مرة على (بشت) الشيخ دمًا يسيرًا بعد الصلاة فأخبرته، فقال: الشيء اليسير لا بأس به.

١١- وسأله رجل وأنا أسمع عن (الكولونيا) فقال الشيخ محمد: أما أنا فلا أستعمله، ولو أصاب ثوبي شيء منه ما غسلته.

١٢- وسمعته يومًا يتكلم عن الأذان ومشروعيته وأهميته، وقال: (إنه من شرائع الإسلام الظاهرة، وأن الرسول ﷺ كان إذا غزا قومًا انتظر حتى الصبح فإن سمع أذانًا وإلا أغار عليهم، وإنه لو صلى القوم ونسوا الأذان فإنهم يؤذنون و لا يعيدون الصلاة لأن الأذان للوقت وهو شريعة من شرائع الإسلام لا تترك، ثم قال: كنا عند الشيخ سعد بن عتيق رحمه الله في درسه قبل العصر في (الجامع الكبير)، ثم إنه صلى العصر وقد نسوا الأذان، فلما انصرف من الصلاة سأل عن الأذان، فأخبر بأنهم لم يؤذنوا، فأمر أحد المأمومين أن يقوم ويؤذن، قال الشيخ محمد: فقام في وسط الصف فأذن بعد الفراغ من الصلاة).

١٣- وكان رجل من أهل (الزلفي) يعمل بالتجارة ويسافر إلى بعض دول الخليج ليأتي ببعض البضائع، فذكر لي أنه يسكن بجانب مسجد إمامه يحلق لحيته ويشرب الدخان، وطلب مني أن استفتي الشيخ محمدًا عن

الصلاة خلف ذلك الرجل، فسألت الشيخ، فسكت الشيخ قريبًا من يومين، ثم أعدت عليه السؤال فقال: يبحث عن مسجدٍ آخر فإن لم يجد فلا يصلي خلف هذا الفاسق ما دام مسافرًا.

١٤- وسمعته يقول: إذا جلس الإمام للتشهد الأول وقام ولم يكمل المأموم تشهده فلا يتبعه حتى يكمل.

١٥- وفي عام ١٣٧٧هـ أصيبت رجلي بمرضٍ فوضع فيها (الجبس) في مدينة (جدة)، وكنت لا أستطيع الحركة فكنت أتيمم وأصلي إلى غير القبلة، فلما جئت إلى الرياض سألت الشيخ عن صلاتي وهل هي صحيحة أو أقضيها؟ فمكث أيامًا ينظر فيها ثم لم يفتني فيها بشيء.

١٦- ورأيت رجلًا أتى إليه وقال: إنني أسافر من (الخرج) إلى (الرياض) و تدركني صلاة المغرب في الطريق فهل يجوز لي أن أجمع معها العشاء مع العلم أنني سوف أصل إلى (الرياض) قبل صلاة العشاء، فقال: نعم يجوز.

١٧- وفي أحد أيام الشتاء نزلت أمطار غزيرة على مدينة (الرياض) قبل صلاة (الظهر)، فقام أحد الأئمة في أحد المساجد بالجمع بين (الظهر) و(العصر)، فلما علم الشيخ محمد رحمه الله تكلم في مسجده وأمر من صلى معهم بإعادة صلاة (العصر).

١٨- وتأخرت مرة عن صلاة (الجمعة) فوجدته رحمه الله قد شرع في الركعة الأولى فصففت مع الذين يصلون في (ساحة الصفاة) بجانب (الساعة) ويقتدون بمكبر الصوت - بدون اتصال الصفوف- ، فلما انتهينا من الصلاة سألته عن صلاتي هذه فأمرني بالإعادة.

١٩- وسألته عن صلاة (الكسوف) هل هي فرض عين أو فرض كفاية؟ فقال: إن ابن القيم رحمه الله قال في كلام له عنها إنه لو قيل بوجوبها لكان له

وجه.

٢٠- وصلى مرة على جنازة فكبر خمس تكبيرات، فلما انصرف أخبرته فقال: لا بأس بذلك.

٢١- وكان يقول بعدم وجوب الزكاة في الحلي، ويقول ثبت عن خمسة من أصحاب محمد ﷺ القول بذلك.

٢٢- وكان هناك رجل من أهل (الزلفي) يعطي زكاته لقريبة منه وكانت تجمع هذه النقود ولا تشتري بها شيئًا مطلقًا، فطلب مني أن أسأل الشيخ: هل يجوز أن يشتري بالزكاة التي يريد دفعها لها ملابس و طعامًا ونحو ذلك ودفعه إليها؟ فسألت الشيخ فسكت ولم يجب قريبًا من يومين، ثم قال: مادام الحال كما ذكر، فإنه يجوز هذا.

٢٣- وطلب مني رجل أن أسأله في مسألة حصلت له، فقال: عندي نقود وعلي دين فهل أخرج الزكاة عنها كلها، أو أزكي المال الذي لي وأترك الدين، فسألت الشيخ، فسكت الشيخ وقتًا ثم قال: بل زك مالك دون الدين.

٢٤- وسألته عن النقد الورقي: هل هو سند أو نقد بذاته؟ فتوقف في ذلك ولم يجب، والذي أعرفه عنه أنه مات رحمه الله ولم يفت فيها بشيء.

٢٥- وكنت معه مرة في اليوم التاسع والعشرين من رمضان بعد العصر، فقال: يظهر أن الليلة يهل هلال شوال، ثم قال: إن ابن مسعود قال: صام رسول الله ﷺ تسع رمضانات كلها تسع وعشرون يومًا.

٢٦- وفي عام ١٣٧٦هـ كتب عبد الله بن زيد المحمود رحمه الله كتابًا في المناسك أجاز فيه الرمي قبل الزوال و بالليل و لم يحدده بوقت فطلبه الشيخ للمباحثة، فكانت بينهما جلستان حضرهما جمع من المشايخ وقد حضرت

عندهم، ومما دار في النقاش:

أن المحمود ذكر في منسكه أن العاجز عن الرمي يسقط عنه الرمي ولا يوكل عن نفسه لأنه لا واجب مع العجز.

فقال الشيخ محمد: أيهما أوجب الرمي أو المبيت بمنى؟

قال الشيخ المحمود: الرمي والمبيت واجبان.

قال الشيخ محمد: سبحان الله!! الرمي أوجب، وإنما المبيت وسيلة للرمي.

قال الشيخ المحمود - يعني بعض الحاضرين من تلاميذ الشيخ- : إنه يوافقني على ما قلته من جواز الرمي في الليل.

فقال الشيخ - لهذا الذي أشار إليه المحمود- : ما دليلك على ما ذهبت إليه؟

فقال: قسته على يوم عرفة، فإن الحاج لو وقف في عرفة ليلة النحر لأجزأه لحديث عروة بن مضرس الطائي.

فقال الشيخ محمد: لا، هذا قياس مع الفارق، فإن الرمي أصل مستقل، واليوم ينتهي بغروب الشمس، والليلة تتبع اليوم الذي بعدها لا الذي قبلها.

ثم بعد هذه الجلسات اعتذر الشيخ ابن محمود وقرر أن يكتب كتابًا ينقض فيه الذي قرره أولًا، ولكنه لم يف بما ذكره للشيخ فرد عليه الشيخ محمد بكتاب (تحذير الناسك مما أحدثه ابن محمود في المناسك).

٢٧- وكان رجل بدوي في (الزلفي) اسمه (نافع) حج ولم يسع ومضى على ذلك قريبًا من ١٥ سنة، ثم إن الشيخ محمد حج عام ١٣٧٦هـ وكنت

معه، فلما ذهبت لأسلم على بعض الجماعة من أهل (الزلفي) وكان معهم (نافع) هذا، قالوا: إنه استفتى بعض أهل العلم - في الميقات من هذه السنة- وأفتاه بأن عليه دم، فقلت: الذي أعرفه أن السعي ركن والركن لا يجبر بدم، ثم أخبرتهم بأني سوف أسأل الشيخ محمدًا عن هذا.

فلما عدت إلى الشيخ أخبرته بالواقع وسألته، فسكت - وهذه عادته ﷺ فإنه كان ورعًا خصوصًا في العبادات- ولم يجبني إلا من الغد حيث ناداني وقال: إنه يحرم من مكانه ثم يسعى ويقصر ويلبس، وحجه تام إن شاء الله نظرًا لجهله.

٢٨- وسألته مرة عن معنى قول صاحب الروض حيث قال في باب الخيار: (ويقبل قول قابضٍ في ثابتٍ في ذمة من ثمنٍ و قرضٍ وسلمٍ ونحوه إن لم يخرج من يده) فقال: إن قبضت شيئًا ثابتًا في ذمة آخر فإنه يقبل قولك بأنه ناقص مثلًا و أنك لم تستوفه، لأنه ثابت في ذمة الآخر، ولكن يقبل هذا بشرط أن لا يخرج هذا المقبوض من يدك، فإن خرج من يدك لآخر لم يقبل قولك.

٢٩- ومن ذلك أنه كان هناك قط مؤذ في بيتي، فاستفتيت الشيخ في قتله فأفتاني لأنه مؤذ.

٣٠- وكان يفتي بلزوم الطلاق الثلاث، فمن طلق ثلاثًا بلفظ واحد فإن الشيخ محمدًا ﷺ يلزمه ويجعل امرأته تبين منه، وسمعته يقول: (إن شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ لما أفتى بأن الطلاق الثلاث في مجلس واحد يعد طلقة واحدة لم يكن يقصد بذلك مخالفة الجمهور الذين يفتون بلزومه ولكن لانتشار (نكاح التحليل) في زمنه بين المسلمين بسبب أيمان الطلاق هذه، رأى ﷺ أن مخالفة الجمهور أخف من مفسدة (نكاح التحليل) فأفتى بذلك).

وسمعته يقول إن ابن عباس رضي الله عنه الذي يحتج المخالفون بقوله ورد أن رجلًا طلق امرأته ثلاثًا فاستفتاه فقال: (عصيت ربك وبانت منك امرأتك).

وسمعته يقول: (إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى كان يوافق الجمهور في هذه المسألة، ولم يفت بخلاف ذلك إلا مرة واحدة لما طلق رجل امرأته ثلاثًا وكان له منها أولاد، ورأى أنهم سيفسدهم الافتراق فأفتى بقول شيخ الإسلام ابن تيمية).

٣١- وكنت معه مرة فأتت إليه امرأة من (الخرج) ومعها زوجها وأبوها وأخوها، وهي تطلب الطلاق، فحاول الشيخ الإصلاح بينهما ولكنه لم يستطع، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، ففرض الشيخ على الزوجة أن تدفع ٣٠٠٠ ريال ويكون خلعًا فوافقت فالتزمت بذلك، فقال للزوج: قل طلقت زوجتي فلانة، فطلقها.

٣٢- وحدث أن امرأة قتلت زوجها وقبض عليها واعترفت وحكم عليها القاضي بالقتل، ثم إن أولياء المقتول تنازلوا عن القصاص، فرفض الشيخ تنازلهم، وقال: إن قتلها حرابة لا قصاص لأنها قتلته غيلة فليس للأولياء حق في ذلك، وأمر بقتلها، فقتلت - وكنت من الحضور عند قتلها- .

٣٣- وحصلت قضية عند أحد القضاة - من طلبة الشيخ- وهو أن رجلًا قبض عليه بتهمة السرقة واعترف عند الشرطة بذلك، فلما أحيل إلى القاضي أنكر ما سبق أن أقر به، فسأله القاضي عن هذه القضية أثناء زيارةٍ للقاضي للشيخ في منزله وأنا أسمع، فقال الشيخ: أما الحد فيدرأ عنه، وأما المال الذي اعترف به فيلزم به.

٣٤- وسمعته يتكلم عن القضاء يومًا وأنه ابتلاء، ثم قال: لما كانت البينة على المدعي واليمين على من أنكر وبعض المدعين لا يأتي ببينة ولا يدري أن له حق اليمين على المدعى عليه فللقاضي أن يخبره بأن هذا حق له،

ولا يكون هذا من باب تلقين الخصم حجته المنهي عنه.

٣٥- وسمعته يومًا يتكلم عن تزكية الشهود وأنه لا بد للمزكي من معرفة تامة بالمزكى، وقال: إن عمر لما طلب تزكية أحد الشهود فزكاه رجل، قال له عمر: هل جاورته؟ قال: لا، قال: هل تعاملت معه في بيع وشراء؟ قال: لا، قال: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال: فأنت لا تعرفه.

من أحاديثه

قال الشيخ حمد الفهد:

١- سمعته يقول: «لما كبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله صار يؤم الناس في (التراويح) ابنه الشيخ عبد الله رحمه الله، فكان الشيخ محمد يسأل الناس عن ابنه فيثنون عليه فقال: الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يقوم بالواجب».

٢- وسمعته يقول: «كان الإمام محمد بن سعود رحمه الله دينًا عادلًا، وكانت له أكثر من امرأة وكان هناك قماش اسمه (المرود) فكان من عدله إذا أراد أن يقسم هذا القماش بين نسائه يزنه بالميزان».

٣- وسمعته يقول: «كان الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يقول: أنا أعرف رجال الحديث مثل معرفتي برجال الدرعية، ولو ذهب للنخيل ما فرق بين شجر(الجح) وشجر (القرع)».

٤- وسمعته يقول: «كان الإمام فيصل بن تركي رحمه الله شديد الخوف من الله ومن ذلك أنه استدعى أحد الرعية - لشكوى جاءته- فقال له - بعد أخذ ورد- : خف الله يا طويل العمر، فبكى الإمام فيصل رحمه الله».

٥- وسمعته يقول: (كان الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عن نفسه أنه يذكر ثدي أمه لما كانت ترضعه).

٦- وسمعته يقول عنه أيضًا: (كان رَحِمَهُ اللَّهُ حاد البصر، ولما كبر وثقل بقيت معه حدة البصر، فكانوا إذا تحروا الهلال حملوا الشيخ عبد الرحمن إلى سطح المسجد - وهو كبير- ليرى الهلال).

٧- وسمعته يقول عنه أيضًا: (إنه أسند التدريس لابنه عبد اللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ، فكان ابنه لا يشرح مطلقًا وأبوه موجود، فكان أبوه يخرج من الحلقة حتى يشرح ابنه ثم يأتي وهو لا يعلم به حتى يستمع شرحه).

٨- وكان للمسجد الذي يؤمه الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللَّهُ وقف قديم من وقت الشيخ عبد الرحمن بن حسن رَحِمَهُ اللَّهُ، فذكر للشيخ محمد أن البعض قد اعتدى على هذا الوقف فطلب ورقة الوقف - التي كتبها الشيخ عبد الرحمن- وكنت معهم، فلما قرئت عليه وكان فيها: «وقف على مسجد دخنة الكبير».

قال الشيخ محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (الله أكبر، لم يقل وقف على مسجد الشيخ لأنه هو الشيخ المقصود).

٩- وسمعت الشيخ محمدًا يذكر أن المسجد المسمى باسمه الآن إنما اسمه أصلًا (مسجد الشيخ عبد الرحمن بن حسن).

١٠- وسمعته يقول: «دعانا بعض أهل (ضرمى) على وليمة مع (الشيخ سعد بن حمد بن عتيق) رَحِمَهُ اللَّهُ وبعض الأخوة، فلما انتهينا من الغداء - وكان بعد العصر- استأذن الشيخ سعد ونهضنا معه - وكان هذا قبل السيارات ومعنا رواحل- فلما ظهرنا فوق عقبة (القدية) أردنا أن ننام فقيدنا الرواحل - ولم نعقلها- حتى تستطيع الرعي ولا تبتعد عنا، فلما أصبحنا ذهب الذين معنا للبحث عن الرواحل فوجدوها كلها إلا راحلة الشيخ سعد، فتفرقوا

للبحث عنها، وكان الشيخ سعد في هذه الأثناء يدعو الله تعالى أن يأتيه براحلته، فأتى الذين ذهبوا للبحث عنها ولم يجدوها، قال الشيخ محمد: فأتى رجل إلينا من بعيد وهو يسوق راحلة الشيخ سعد معه حتى وصلت إلينا، ثم اختفى ولا ندري من هو، وكان الذين ذهبوا للبحث عنها كل واحدٍ منهم يحسب أن الآخر هو الذي يسوقها حتى أتوا وسأل بعضهم بعضًا فأنكر كل واحد ذلك، وهذه من كرامات الشيخ سعد رحمه الله».

١١- **وسمعته يقول عن أبيه الشيخ إبراهيم:** (عندما وضعت له زوجته - أم الشيخ محمد- العشاء في أحد الأيام وكان بعد العصر في ذلك الوقت، فلما بدأ بالأكل إذا الباب يطرق، فخرج فإذا رسول من الشيوخ - يعني الملك عبد العزيز وكان يسمى بذلك في ذلك الوقت- يخبره بتكليفه بالقضاء، قال الشيخ محمد نقلًا عن والدته: فدخل البيت مهمومًا وترك العشاء وغسل يديه - ولم يتناول إلا اليسير - ، ولحظت عليه في الليل عدم نومه، فلما أصبح سألته عن السبب فأخبرها بأنه ولي القضاء، وكان ورعًا رحمه الله).

١٢- وجئت يومًا إلى الشيخ فلاقاني الشيخ حمود التويجري رحمه الله ومعه مسودة كتاب له قرأها على الشيخ، فلما دخلت على الشيخ - وليس عنده أحد غيري- قال: إن رجلًا قرأ عليه قبل قليل- يعني الشيخ حمودًا- كلامًا فيه بيت أعجبه وهو:

هي الأرض تهتز ابتهاجًا من الحيا كما اهتزت العذرا ارتياحًا من البعل

❁ ❁ ❁

[انظر: «ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم» إعداد الشيخ ناصر بن حمد الفهد، ومحاضرة: «ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم» لحفيده الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ومقدمة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم لـ «مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم»].

الشيخ العلامة أبو الأشبال
أحمد محمد شاكر

ترجمة موجزة بقلم أبي فهر محمود محمد شاكر

في الساعة السادسة بعد فجر يوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ. ١٤ من يونية سنة ١٩٥٨م، فقد العالم الإسلامي إمامًا من أئمة علم الحديث في هذا القرن، هو الأستاذ/ أحمد محمد شاكر، المحدث المشهور، وهو أحد الأفذاذ القلائل الذين دَرَسوا الحديث النبوي في زماننا دراسة وافية، قائمة على الأصول التي اشتهر بها أئمة هذا العلم في القرون الأولى. وكان له اجتهاد عُرف به في جرح الرجال وتعديلهم، أفضى به إلى مخالفة القدماء والمحدثين، ونصر رأيه بالأدلة البينة، فصار له مذهب معروف بين المشتغلين بهذا العلم، على قلتهم.

وقد تولى القضاء في مصر أكثر من ثلاثين سنة، فكانت له أحكام مشهورة في القضاء الشرعي، قضى فيها باجتهاده غير مقلد ولا متبع، وكان اجتهاده في الأحكام مبنيًا على سعة معرفته بالسنة النبوية، التي اشتغل بدراستها منذ نشأته إلى أن لقي ربه.

وهو أحمد بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من آل أبي علياء، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وأبوه الإمام العلامة الشيخ/ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقًا، وجده لأمّه هو العالم الجليل الشيخ هارون عبد الرازق، وأبوه وأمه جميعًا من مديرية جرجا بصعيد مصر.

وولد الشيخ أحمد رحمه الله بعد فجر يوم الجمعة ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩، الموافق ٢٩ من يناير ١٨٩٢، بمنزل والده بدرب الإنسية، بقسم الدرب الأحمر، بالقاهرة. وسماه أبوه: «أحمد شمس الأئمة، أبو الأشبال»، وكان أبوه يومئذ أمينًا للفتوى مع أستاذه الشيخ العباسي المهدي، مفتي الديار المصرية.

فلما صدر الأمر بإسناده منصب قاضي قضاة السودان، إلى والده الشيخ محمد شاكر، في ١٠ من ذي القعدة سنة ١٣١٧هـ = ١١ من مارس سنة ١٩٠٠م، عقب خمود الثورة المهدية، رحل بولده إلى السودان، فألحق ولده «أحمد» بكلية غوردون، فبقي تلميذًا بها حتى عاد أبوه من السودان، وتولى مشيخة علماء الإسكندرية في ٢٦ من أبريل سنة ١٩٠٤، فألحق ولده من يومئذ بمعهد الإسكندرية الذي يتولاه.

وكان السيد أحمد منذ عقل وطلب العلم، محبًّا للأدب والشعر، كدأب الشباب في صدر أيامه، فاجتمع في الإسكندرية وأديب من أدباء زمانه في هذا الثغر؛ هو الشيخ عبد السلام الفقي، من أسرة الفقي المشهورة بالمنوفية، فحرضه على طلب الأدب، وحرض معه أخاه عليًّا، وهو أصغر منه، وصار يقرأ لهما أصول كتب الأدب في المنزل زمنًا طويلًا. ثم أراد الشيخ عبد السلام أن يختبر تلميذيه، فكلفهما إنشاء قصيدة من الشعر، فعمل علي أطال الله بقاءه، أبياتًا، أما أحمد فلم يستطع أن يصنع غير بيت شعر واحد ثم عجز؛ فمن يومئذ انصرف أخوه علي إلى الأدب، وانصرف هو إلى دراسة علوم الحديث بهمة لا تعرف الكلل منذ سنة ١٩٠٩ إلى يوم وفاته. ولكنه لم ينقطع قط عن قراءة الآداب: حديثها وقديمها، مؤلفها ومترجمها، كما سيظهر بعد من الكتب التي تولى نشرها في حياته رحمه الله.

وكان أول شيوخه في معهد الإسكندرية الشيخ «محمود أبو دقيقة»،

وهو أحد العلماء الذين تركوا في حياة الفقيد أثرًا لا يمحى ؛ فهو الذي حبب إليه الفقه وأصوله، ودربه وخرجه في الفقه حتى تمكن منه. ولم يقتصر فضل هذا الشيخ على تعليمه الفقه، بل علمه أيضًا الفروسية وركوب الخيل، والرماية والسباحة، فتعلق السيد أحمد بركوب الخيل والرماية، ولم يتعلق بالسباحة تعلقًا يذكر.

أما أعظم شيوخه أثرًا في حياته، فهو والده الشيخ «محمد شاكر» ؛ فقد قرأ له ولإخوانه التفسير مرتين، مرة في تفسير البغوي، وأخرى في تفسير النسفي، وقرأ لهم صحيح مسلم، وسنن الترمذي والشمائل، وبعض صحيح البخاري.

وقرأ لهم في الأصول: جمع الجوامع، وشرح الإسنوي على المنهاج.

وقرأ لهم في المنطق: شرح الخبيصي، وشرح القطب على الشمسية، وقرأ لهم في البيان: الرسالة البيانية، وقرأ لهم في فقه الحنفية كتاب «الهداية» على طريقة السلف في استقلال الرأي وحرية الفكر، ونبذ العصبية لمذهب معين. وكثيرًا ما خالف والده في هذه الدروس مذهب الحنفية عند استعراض الآراء وتحكيم الحجة والبرهان، ورجح ما نصره الدليل بالصحيح. هكذا قال السيد أحمد في ترجمة والده. وقد أظهر أثر والده هذا ظهورًا بينًا في دراسة الشيخ أحمد للحديث، وفي أحكامه التي قضى بها في مدة توليه القضاء بمصر.

وكان لوالده أعظم الأثر في توجيهه إلى دراسة علم الحديث منذ سنة ١٩٠٩، فلما كانت سنة ١٩١١ اهتم السيد أحمد بقراءة مسند أحمد بن محمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ، وظل منذ ذلك اليوم مشغولًا بدراسته حتى ابتدأ في طبع شرحه على المسند سنة ١٣٦٥ من الهجرة = سنة ١٩٤٦ من الميلاد،

كما بين ذلك مختصرًا في مقدمة المسند.

ولما انتقل والده من الإسكندرية إلى القاهرة وكيلًا لمشيخة الأزهر في ربيع الآخر سنة ١٣٢٧ = ٢٩ من أبريل سنة ١٩٠٩، التحق السيد أحمد، هو وأخوه السيد علي بالأزهر، فكانت إقامته في القاهرة بدء عهد جديد في حياته، فاتصل بعلمائها ورجالها، وعرف الطريق إلى دور كتبها في مساجدها وغير مساجدها.

وتنقل بين دكاكين الكتبية. وكانت القاهرة يومئذ مسترادًا لعلماء البلاد الإسلامية، وكان من التوفيق أن حضر إلى القاهرة من المغرب الأقصى السيد عبد الله بن إدريس السنوسي، عالم المغرب ومحدثها، فتلقى عنه طائفة كبيرة من صحيح البخاري، فأجازه هو وأخاه برواية البخاري، ورواية باقي الكتب الستة. ولقي بها أيضًا الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي، فأخذ عنه كتاب بلوغ المرام، وأجازه به وبالكتب الستة، ولقي أيضًا الشيخ أحمد بن الشمس الشنقيطي، عالم القبائل الملثمة، فأجازه هو وأخاه بجميع علمه. وتلقى أيضًا من الشيخ شاكر العراقي.

وكان أسلوبه في التحديث أن يسأله أحد طلابه عن مسألة، فيروي عندئذ كل ما ورد فيها من الأحاديث في جميع كتب السنة بإسنادها مع بيان اختلاف رواياتها، فأجازه وأجاز عليًا بجميع كتب السنة. ولقي أيضًا في القاهرة من علماء السنة الشيخ «طاهر» الجزائري عالم سورية المتنقل، والسيد «محمد رشيد رضا» صاحب المنار، ولقي كثيرًا غير هؤلاء من علماء السنة يطول ذكرهم بالتفصيل.

وهذا اللقاء المتتابع، هو الذي مهّد لهذا العالم أن يستقل بمذهب في علم الحديث، حتى استطاع أخيرًا أن يقف في منتصف هذا القرن علمًا مشهورًا لا ينازعه في إمامة التحديث إلا قليل.

ولما حاز شهادة العالمية من الأزهر في سنة ١٩١٧، عُين مدرسًا بمدرسة ماهر، ولكن لم يبق بها غير أربعة أشهر، ثم عين موظفًا قضائيًا ثم قاضيًا، وظل في القضاء حتى أُحيل إلى المعاش في سنة ١٩٥١ عضوًا بالمحكمة العليا، ولكنه لم ينقطع في خلال ذلك عن دراساته، وعن المشاركة في نشر التراث الإسلامي، في الحديث والفقه والأدب.

وأول كتاب عرف به الشيخ أحمد محمد شاكر، وعرف به إتقانه وتفوقه، هو نشره رسالة الإمام الشافعي، عن أصل تلميذه الربيع بن سليمان، الذي كتبه بخطه في حياة الشافعي مع إملائه. ونشره رسالة الشافعي يُعدُّ من أعظم الآثار التي تولى العلماء نشرها في هذا العصر.

ثم شرح سنن الترمذي شرحًا دقيقًا ولكنه لم يتمه، وشارك في نشر شرح «سنن أبي داود»، ونشر كتاب «جماع العلم» للشافعي، وشارك أيضًا في نشر «المحلى» لابن حزم، وَشَرَح صحيح ابن حبان ولم ينتشر منه غير الجزء الأول.

أما عمله الذي استولى به على الغايات فهو شرحه على مسند أحمد بن حنبل، أصدر منه خمسة عشر جزءًا فيها من البحث والفقه والمعرفة ما لم يلحقه فيه أحد في زمانه هذا.

ونشر من كتب الأدب والشعر، كتاب «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة، و«المفضليات» للمفضل الضبي، و«الأصمعيات» للأصمعي، وشاركه في نشرها ابن خاله الأستاذ «عبد السلام محمد هارون»، ونشر كتاب «المعرب» للجواليقي نشرًا علميًا دقيقًا.

وشارك أخاه الأستاذ «محمود محمد شاكر» في تفسير الطبري، فتولى

جزءًا من تخريج أحاديثه إلى الجزء التاسع، وعلق على بعضها إلى الجزء الثالث عشر، ثم وافته المنية، ولم ينظر بعد في أحاديث الجزء الرابع عشر.

وكان قبل وفاته رَحِمَهُ الله قد شرع في اختصار «تفسير القرآن» لابن كثير وسماه «عمدة التفسير»، وصل فيه إلى الجزء الخامس من عشرة أجزاء. وقد قصد فيه الإبانة عن معاني القرآن، بما يوافق حاجة المتوسطين من المثقفين، مع المحافظة على ألفاظ المؤلف ما استطاع.

أما سائر الكتب التي تولى نشرها فهي كثيرة يطول ذكرها. وله في جميع ما نشره وألفه تعليقات دافع فيها عن أحكام الإسلام وآدابه دفاعًا تفرد به، ونطق فيه بالحق الذي يراه، غير متهيب ولا متلجلج.

وأما أهم ما ألفه فهو كتاب «نظام الطلاق في الإسلام» دل فيه على اجتهاده وعدم تعصبه لمذهب من المذاهب، واستخرج فيه نظام الطلاق من نص القرآن، ومن بيان السنة في الطلاق، وكان لظهور هذا الكتاب ضجة عظيمة بين العلماء، ولكنه دافع فيه عن اجتهاده دفاعًا مؤيدًا بالحجة والبرهان، ومن قرأ الكتاب عرف كيف يكون الاحتجاج في الشريعة، وظهر له فضلُ هذا الرجل وقدرته على ضبط الأصول الصحيحة، وضبط الاستنباط فيها ضبطًا لا يختل.

فرحم الله فقيدنا، وبعث في هذه الأمة من يخلفه للنهوض بما ابتدأه.

بهذه الكلمات يترجم أبو فهر محمود محمد شاكر لأخيه أبي الأشبال أحمد محمد شاكر محدث الدنيا، وفقيه الزمان، الأديب الأريب الناطق بالحق، المدافع عن الإسلام في زمن عز فيه الناصر وقل المعين.

❀ ❀ ❀

كلمة الحق

هذا مقالة رائعة صادعة مدوية، وهي من بديع ما كتب الشيخ عليه رحمه الله

يقول: ما أقل ما قلنا «كلمة الحق» في مواقف الرجال. وما أكثر ما قصّرنا في ذلك، إن لم يكن خوفًا فضعفًا، ونستغفر الله، وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا، كفارة عما سلف من تقصير، وعما أسلفت من ذنوب، ليس لها إلا عفو الله ورحمته، والعمر يجري بنا سريعًا، والحياة توشك أن تبلغ منتهاها.

وأرى أن قد آن الأوان لنقولها ما استطعنا، وبلادنا، بلاد الإسلام، تنحدر في مجرى السيل، إلى هُوة لا قرار لها، هوة الإلحاد والإباحية والانحلال. فإن لم نقف منهم موقف النذير، وإن لم نأخذ بحجزهم عن النار، انحدرنا معهم، وأصابنا من عقابيل ذلك ما يصيبهم، وكان علينا من الإثم أضعاف ما حُملوا.

ذلك بأن الله أخذ علينا الميثاق: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وذلك بأن الله ضرب لنا المثل بأشقى الأمم: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وذلك بأن الله وصفنا - معشر المسلمين- بأننا خير الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فإننا فقدنا ما جعلنا الله به خير الأمم. كنا كمثل أشقاها. وليس من منزلة هناك بينهما.

وذلك بأن الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وذلك بأن رسول الله ﷺ قال: «**ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يُقرب من أجل، ولا يُباعد من رزق، أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم**».

وذلك بأن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحقرن أحدكم نفسه**»، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**».

نريد أن نقول «كلمة حق» في شؤون المسلمين كلها، نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا، بالقول الفصل، والكلمة الصريحة، لا نخشى فيما نقول أحدًا إلا الله، إذ نقول ما نقول في حدود ما أذن الله لنا به، بل ما أوجب علينا أن نقوله، بهدي كتاب ربنا وسنة رسوله ﷺ.

نريد أن نحارب الوثنية الحديثة والشرك الحديث، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام، تقليدًا لأوربة الوثنية الملحدة، كما حارب سلفنا الصالح الوثنية القديمة والشرك القديم.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب الله بين أظهرنا، فمن متأول لآياته غير مؤمن به، يريد أن يفسرها على غير ما يدل عليه صريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أُشربته نفسه، من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يُقربه إلى عاداتهم وآدابهم - إن كانت لهم آداب - ليجعل الإسلام دينًا عصريًّا في نظره ونظر ساداته

الذين ارتضع لبانهم، أو رُبِّي في أحضانهم!!.

ومن منكر لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأ يحاور ويداور، ليجعل عالم الغيب كله موافقًا لظواهر ما رأى من سنن الكون، إن كان يرى، أو على الأصح لما فهم أن أُوربة ترى!! نعم، لا بأس عليه - عنده- أن يؤمن بشيء مما وراء المادة، إن أثبته السادة الأوربيون، ولو كان من خرافات استحضار الأرواح!!.

ومن جاهل لا يفقه في الإسلام شيئًا، ثم لا يستحي أن يتلاعب بقراءات القرآن وألفاظه المعجزة السامية، فيكذِّب كل الأئمة والحفاظ فيما حفظوا ورووا. تقليدًا لعصبية الإفرنج التي يريدون بها أن يهدموا هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليجعلوه مثل ما لديهم من كتب.

وهكذا ما نرى وترون.

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين، وأن نحارب ما أحدث «النسوان» وأنصار «النسوان» من منكرات الإباحية والمجون والفجور والدعارة، هؤلاء «النسوان» اللائي ليس لهن رجال، إلا رجالًا «يُشبهن» الرجال!! هذه الحركة النسائية الماجنة، التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين، والمخنثون من الرجال، والمترجلات من النساء، التي يهدمون بها كل خلق كريم، يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات، وإلى الشهوات فقط.

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين، والصالحات من المؤمنات: الذين بقي في نفوسهم الحِفاظ والغيرة ومقومات الرجولة، واللائي بقي في نفوسهن الحياء والعفة والتصون - إلى العمل الجدي الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي المصون، إلى حجابها الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، طوعًا أو كرهًا.

نريد أن نثابر على ما دعونا وندعو إليه من العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في قضائنا كله، في بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجي الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين.

والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

ثم يقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

نريد أن نتحدث في السياسية، السياسة العليا للأمم الإسلامية، التي تجعلهم «أمة واحدة»، كما وصفهم الله في كتابه، نسمو بها على بدعة القوميات، وعلى أهواء الأحزاب. نريد أن نُبصر المسلمين وزعماءهم بموقعهم من هذه الدنيا بين الأمم، وتكاليب الأمم عليهم بغيًا وعدوًا، وعصبية وكراهية الإسلام أولًا وقبل كل شيء.

نريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أوربة وأمريكا، اللتين يقلدانهما تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم.

نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة، التي اصطنعها كتاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون! يظنون أن هذا من حسن السياسة، ومن الدعوة إلى الحق ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ اللتين أمر الله بهما! وما كان هذا منهما قط، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص

على عرض الحياة الدنيا.

وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتامين أو منفرين. معاذ الله، و«**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان، ولا الفاحش ولا البذيء**». كما قال رسول الله ﷺ. ولكننا نريد أن نقول الحق واضحًا غير ملتو، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة، بأحسن عبارة نستطيعها. ولكنا نربأ بأنفسنا وبإخواننا، أن نصف رجلًا يلعن عداءه للإسلام، أو يرفض شريعة الله ورسوله ﷺ - مثلًا- بأنه «صديقنا»، والله سبحانه نهانا عن ذلك نهيًا حازمًا في كتابه.

ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستحذي، فنصف أمة من الأمم تضرب المسلمين بالحديد والنار، وتهتك أعراضهم وتنهب أموالهم، بأنها أمة «صديقة»، أو بأنها أمة «الحرية والنور»، إذا كان من فعلها مع إخواننا أنها أمة «الاستعباد والنار»! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم، من علمائنا - نعم من علمائنا- ومن كبرائنا وزعمائنا ووزرائنا! والله المستعان.

نريد أن نمهد للمسلمين سبيل العزة التي جعلها الله لهم ومن حقهم إذا اتصفوا بما وصفهم به: أن يكونوا «مؤمنين». نريد أن نوقظهم وندعوهم إلى دينهم بهذا الصوت الضعيف، صوت مجلتنا هذ المتواضعة. ولكننا نرجو أن يدوي هذا الصوت الضعيف يومًا ما، فيملأ العالم الإسلامي، ويبلغ أطراف الأرض، بما اعتزمنا من نية صادقة، نرجو أن تكون خالصة لله وحده، جهادًا في سبيل الله إن شاء الله.

فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلًا أو رجالًا خيرًا منا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خفاقًا إلى السماء، بإذن الله...

أحمد شاكر.

الجزاء الأوفى

وهذا خبر من روائع الأخبار التي يقصها علينا أبو الأشبال رحمه الله يقول:
كان «الشيخ طه حسين» طالبًا بالجامعة المصرية القديمة، حين كانت متشرفة برياسة «سمو الأمير فؤاد». (حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد رحمه الله). وتقرر إرساله في بعثه إلى أوربة، فأراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين رحمه الله أن يكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالًا كريمًا، وحباه هدية قيمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف، خطيب فصيح متكلم مقتدر، هو الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عزبان. وكان السلطان حسين رحمه الله مواظبًا على صلاة الجمعة، في حفل فخم جليل، يحضره العلماء والوزراء والكبراء.

فصلى الجمعة يومًا ما، «بمسجد المبدولي» القريب من قصر عابدين العامر. وندبت وزارة الأوقاف ذاك الخطيب لذلك اليوم. وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوه بما أكرم (الشيخ طه حسين)، وحُقَّ له أن يفعل. ولكن خانته فصاحته، وغلبه حب التغالي في المدح، فزل زلة لم تقم له قائمة من بعدها. واعتقد أنها كانت أخف من زلتك. إذ قال أثناء خطبته: «جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى»!.

وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمد شاكر، وكيل الأزهر سابقًا رحمه الله، فقام بعد الصلاة يعلن الناس في المسجد أن صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر، فأعادوها.

ذلك بأن الخطيب كفر بما شتم رسول الله ﷺ تعريضًا ولا تصريحًا. لأن الله سبحانه عتب على رسوله ﷺ حين جاءه ابن أم مكتوم الأعمى، وهو

يحدث بعض صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام، فأعرض عن الأعمى قليلًا حتى يفرغ من حديثه، فأنزل الله عتاب رسوله في هذه السورة الكريمة. ثم جاء هذا الخطيب الأحمق الجاهل، يريد أن يتملق عظمة السلطان رحمه الله، وهو عن تملقه غني والحمد لله. فمدحه بما يوهم السامع أنه يريد إظهار منقبة لعظمته، بالقياس إلى ما عاتب الله عليه رسوله. وأستغفر الله من حكاية هذا. فكان صنع الخطيب المسكين تعريضًا برسول الله ﷺ، لا يرضى به مسلم، وفي مقدمة من ينكره السلطان نفسه.

ثم ذهب الوالد رحمه الله فورًا إلى قصر عابدين العامر، وقابل محمود شكري باشا رحمه الله، وهو له صديق حميم، وكان رئيس الدايون إذ ذاك. وطلب منه أن يرفع الأمر إلى عظمة السلطان، وأن يبلغه حكم الشرع في هذا بوجوب إعادة الصلاة التي بطلت بكفر الخطيب.

ولم يتردد شكري باشا في قبول ما حُمل من الأمانة، وأعتقد أن عظمة السلطان لم يتردد في قبول حكم الشرع بإعادة الصلاة.

وكاد الأمر أن يقف عند هذا الحد، لأن قوانينكم هذه التي تدينون بها لا تحمي رسول الله ﷺ من سفه السفهاء، ولا من حمق الحمقى والأدعياء.

ثم دخل فيه دخلاء السوء، ممن يحرصون أشد الحرص - فيما زعموا- على حقوق الأفراد، ويغلون أشد الغلو في هضم العلماء وهدمهم، حتى يشغلوهم بأنفسهم عن نصر دينهم والذب عن حوضه. وكان ذلك الرجل الخطيب متصلًا ببعض المستشارين الكبار، اتصال التابع بالمتبوع، يؤدي لهم كثيرًا من الخدمات. فأشاروا عليه بأن يرفع دعوى جنحة مباشرة على أبي، لأنه سبه سبًّا علنيًّا في المسجد وفي ديوان السلطان. وأشفق من لم يعلم أن ينال أبي من ذلك سوء. وثار البلد، وكثر اللغط، ووقف رجال كرام

من رجال القضاء الأهلي في ذلك مواقف مشرفة، بين مسلم وقبطي، كانوا يدًا واحدة في الذب عن رسول الله ﷺ، وإنكار أي مساس ولو من بعيد بمقامه الكريم.

ولم يعبأ والدي رحمه الله بقضية الخطيب، ولا بمن وراءه من الكبار. بل وكَّل عنه صديقه الأستاذ الكبير محمد بك أبو شادي.

وكان موقف أبي في القضية أنه لن يحتكم في حكم الشرع في جريمة هذا المجرم إلى علماء الأزهر ؛ لأن حكم المساس برسول الله ﷺ ولو تعريضًا معروف للدهماء، لا ينكره جاهل أو متعنت أو غبي. وإنما نقطة البحث الصحيحة فيها عربية لغوية صرفة: آلذي صدر من الرجل الجاني المدعي أنه مجني عليه تعريض بالمقام الكريم مقام الرسول الأعظم، بدلالة اللغة والاستعمال أم ليس بتعريض؟

ولا يحتاج الفصل في هذا الأمر إلى علماء الأزهر، خشية أن يظن بهم ما هم برءاء منه من العصبية. بل هي نقطة عربية لغوية، يكفي فيها رأي بعض المستشرقين الإفرنج، ممن لا يظن بهم العصبية لرسول الله ﷺ، بل هم مظنة الضد من ذلك.

فكان تصميم الوالد رحمه الله وعزمه، على أنه إذا وصلت القضية إلى المحكمة، وعُرضت، أن يطلب ندب خبراء مستشرقين، ليحددوا بخبرتهم في لغة العرب دلالة كلام الخطيب من الوجهة العربية أهو تعريض أم لا؟؟ ثم يكون الفصل القضائي طبقًا لما يقرره الخبراء.

ثم دخلت الحكومة في الأمر، خشية ما يكون من وراء هذه القضية من أحداث وأخطار. وطوي بساطها قبل أن ينظرها القضاء.

ولكن الله لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه جزاءه في الأُخرى. فأقسم بالله: لقد رأيته بعيني رأسي، بعد بضع سنين، وبعد أن

كان متعاليًا متنفخًا، مستعزًا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته مهينًا ذليلًا، خادمًا على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها، في ذلة وصغار. حتى لقد خجلتُ أن يراني، وأنا أعرفه وهو يعرفني، لا شفقة عليه، فما كان موضعًا للشفقة، ولا شماتة فيها، فالرجل النبيل يسمو على الشماتة، ولكن لما رأيت من عبرة وموعظة.

ومضات من سلوك الشيخ وسيرته

يقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»:

وقد كان في سلوك الشيخ المحدث مايُضيء صحيفته على رؤوس الأشهاد، إذ إن أبرز صفاته هي الأمانة العلمية الدقيقة، حتى لتصلح هذه الأمة أن تكون مفتاح شخصيته، وفي فلكها سنقدم من مواقفه علمًا وعملًا ما يدل على سلامة الاتجاه، وطهارة الحافز، وخلوص النية، ولعل السِّمة الأولى من سمات هذه الأمانة هي البراءة من الأثرة المريضة التي تتضخم وتتوسع لدى بعض الكاتبين، حتى ليظن الواحد منهم أنه لا ينطق عن الهوى، فإذا نهض لمناقشته مُعترض ظن ذلك حسدًا يختفي وراء المعارضة، وأخذ يركب اللجاج في الجدل، فما يرعوي عن مكابرة في حق، وتعضيد لباطل.

وقد تنزه الأستاذ عن هذه الأثرة المريضة، فأنا أعرف له من المواقف الحميدة ما يؤكد هذه النزاهة بإشعاع وتألق، ولا شك أن من كانوا على صلة شخصية به يعرفون له في هذا المجال أكثر مما أعرف، وإذا كنت لم أر شخص الأستاذ مع معاصرته إياي، فقد رأيت علمه وتحقيقه وفقهه، وذلك يجعلني أقرب إليه ممن رآه وخالطه، ولم يقرأ ما نشر وكتب وحقق،

فلأضرب المثل الساطعة على نزاهته العلمية بما أعرف عنه من الأنباء:

أ- لقد أصدر الأستاذ رحمه الله كتابه المجدِّد «نظام الطلاق في الإسلام» فصدر عن اجتهاد صائب، وبحث حر، إذ سار على طريقة السلف من الرجوع في استنباط الأحكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ دون تقيد بأئمة المذاهب الأربعة وحدهم، إذ يأخذ من أقوالهم ويدع كما يسفر له الدليل.

وكان واسع النظر حين درس فقه الشيعة واعتمد عليه في مسألة خاصة هي وجوب الإشهاد على الطلاق أخذًا بقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٥]. ومستندًا إلى قول ابن عباس في تفسيره، ثم كشف اللثام عن صحة وقوع الطلاق المثلث مرة واحدة بأدلة حصيفة ذات نظر محكم.

وكتاب مبتكر كهذا الكتاب لابد أن يترك عاصفة من النقد، فنهضت فئة من المجلات الأسبوعية والشهرية لمعارضته، وكان مما يؤسف له حقًا، أن يفسح أصحابها المجال لنفر من صغار المتعلمين لا يبلغون مبلغ الأستاذ كي يتطاولوا عليه بغيًا دون علم.

وفي غمار هذه المعركة التي أدراها المتشددون - أُصلاء ودخلاء - جاء إلى المؤلف خطاب شخصي مع شيخ علماء الشيعة بالعراق، وإمام مجتهديهم الشيخ العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أثنى فيه على جهود الشيخ أحمد بدءًا، ثم كرّ على مخالفته في أمور هامة تتعلق بوجوب الإشهاد في الطلاق دون المرجعة، في الفقه الشيعي موضحًا أدلة الإمامية في ذلك، فاقتضت نزاهة الأستاذ شاكر أن ينشر على صفحات الرسالة ما تضمنه خطاب شخصي يعترض على بعض النقاط في كتابه، وقد قال ممهدًا لذلك:

«ومما يجب علي إحقاقًا للحق، وإتباعًا لسبل الهدى، أن أُفكر فيما ورد على كتابي من اعترض ونقد، وأبعد النظر فيما اخترت ورأيت، وأكشف عن حجة خصمي وعن حجتي لي وللناظرين، فإما انتصر قول خصمي فرجعت عن قولي، وإما انتصرت لقولي وزدته بيانًا وتأكيدًا، لا أبالي أي ذينك كان، وإنما أنا طالب علم، فأي قول أو رأي نصره عندي الدليل، فإنه العلم الذي أطلب، وأسعى إليه لا أبغي بذلك بدلًا».

ثم أعقب ذلك بكتاب العلامة كاشف الغطاء متبوعًا بما يراه المؤلف من نقاش، ولم يُبال بما يعرفه من أن صغار مُخالفيه في المجلات المنابذة، سيجدون في خطاب العلامة العراقي الكبير ما يواصلون به الشغب الجدلي القاصر عن ادعاءٍ، وتلك هي النزاهة المبتغاة!.

ب- عُرِفَ إمام عصره، وقمة العلماء في عهده، أستاذنا الأكبر الشيخ: محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق بالاجتهاد الصائب، والاهتداء الثاقب في أحكام فقهية مُشتهرة، وكان مما رآه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكون الحساب الفلكي بديلًا عن الرؤية الشخصية في إثبات أوائل الشهور العربية، فنهض لمخالفته فريق من كبار العلماء أطالوا الجدل حتى تعبوا وأتعبوا، وكان في طليعتهم والد الأستاذ/ أحمد شاكر، وهو أستاذنا العلامة البحاثة الشيخ/ محمد شاكر شيخ الكبار من العلماء لعهده.

وكان الشيخ/ أحمد ممن اعتقدوا بدءًا بصحة فتوى والده الكبير، فكتب مقالات تؤيد مَنحاه عن ثقة جازمة، ثم بَدَا له بعد التحقيق والتريث ما يخالف وجهه نظره ونظر والد الإمام، فلم يفقد أمانته العلمية قيد أُنملة، بل خرج على الناس برسالة صغيرة كتبها في حياة أبيه، يعلن فيها انتصاره لرأي الإمام المراغي، ويقول ما نصه:

«لقد كان للأستاذ الأكبر الشيخ المراغي منذ أكثر من عشر سنين حين كان رئيسًا للمحكمة العليا الشرعية، رأي في رد شهادة الشهود، إذ كان الحساب يقطع بعدم إمكان الرؤية، كالرأي الذي نقلته هنا عن تقي الدين السبكي، وأثار رأيه جدلًا شديدًا، وكان والدي وكنت أنا وبعض إخواني ممن خالف الأستاذ الأكبر في رأيه، ولكني أُصرح الآن أنه كان على صواب، وأزيد عليه وجوب إثبات الأهلة بالحساب، في كل الأحوال، إلا لمن استعصى عليه العلم».

جـ- كان انتماء الطالب أو الأستاذ بالأزهر في أوائل هذا القرن، وما تقدمه من القرون الماضية، إلى مذهب فقهي معين كالشافعي، أو الحنفي، أو المالكي، أو الحنبلي مدعاة تعصب شائن لدى الكثيرين ممن يتجاهلون أن أئمة الإسلام جميعًا أصدقاء، يعملون في جبهة واحدة، وأن طالب الفقه عليه أن يرث علم الشافعي، كما يرث علم أبي حنيفة وأضرابهما دون استعلاء، وقد ترجع أسباب هذا الضيق المذهبي إلى أمور مادية أو معاشية ليس هنا مجال الكشف عنها، بعد أن آذنت سحائبها الآن بالانقشاع.

وحين كان الكثرة من قُضاة المحاكم الشرعية بمصر يعتزون بالمذهب الحنفي وحده، ويرون أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه إمام الأئمة أجمعين، عمد الأستاذ / أحمد محمد شاكر إلى تحقيق الرسالة للإمام الشافعي تحقيقًا لا يكاد يُعرف نظيره - وأقولها بكل وثوق- في دنيا النشر المعاصر، فاعتمد على أقدم نسخة من الرسالة بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعي المُشافه، وقارنها بغيرها من النسخ، وضبط بالترجيح كلا خلاف يراه، وخرَّج الأحاديث النبوية تخريجًا يصل به إلى كتابة صفحات متتابعة عن حديث واحد، يتناول المتن والسند بما يندر من التحقيق، حتى جاءت الرسالة في سبعين وستمائة من الصفحات فوق مقدمتها

التي تبلغ المائة، مع أنها في طبعتها البولاقية لا تزيد عن اثنين وثمانين من الصفحات.

وليس هنا مجال الحديث الشافي عن جهد الأستاذ في تحقيق رسالة الشافعي، ولكن أُمهد به لذكر ما قاله القاضي الحنفي الكبير عن الإمام الشافعي في مقدمة الرسالة وما بعدها، حين شهد بأنه «يعتقد غير غالٍ ولا مُسرف، أن الشافعي لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسُّنة، ونفوذ النظر فيهما، ودقة الاستنباط مع قوة المعارضة، ونور البصيرة، والإبداع في إقامة الحجة، وإفحام المناظر، فهو صحيح اللسان، ناصع البيان، في الذروة العالية من البلاغة، تأدّب بآداب البادية، وأخذ العلوم والمعارف عن أهل الحضر، حتى سَمَا عن كل عالم قبله وبعده».

ثم قال في ختام حديثه: «وقد يفهم بعض الناس من كلامي عن الشافعي أني أقول عن تقليد وعصبية، لما نشأ عليه أكثر أهل العلم في قرون كثيرة، من تفرقهم شيعًا وأضرابًا علمية، مَبنية على العصبية المذهبية، مما أضر بالمسلمين حتى صاروا يحكمون بقوانين تخالف دين الإسلام، خنعوا لها واستكانوا، في حين كان كثير من علمائهم، يأبون الحكم بغير المذهب الذي يتعصبون له، ويتعصب له الحكام في البلاد.

وقد نشأ في طلب العلم، وتفقهت على مذهب أبي حنيفة، ونلت شهادة العالمية من الأزهر الشريف حنيفًا، ووُليت القضاء منذ عشرين سنة، أحكم كما يحكم إخواني بما أذن لنا في الحكم به من مذهب الحنفية، ولكني بجوار هذا بدأت دراسة السنة النبوية أثناء طلب العلم من نحو ثلاثين سنة، فدرست أخبار العلماء والأئمة، لم أتعصب لواحد منهم، ولم أجد عن سُنة الحق فيما بَدَا لي، فعن هذا قلت ما قلت، واعتقدت ما اعتقدت في

الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه».

ومما نلفت إليه النظر في مجال الحديث عن تحقيق هذه الرسالة، أن العزة العلمية لم تمنع محققها أن يذكر في مقدمتها أسماء إخوانه من العلماء، ممن رجع إليهم فقهيًا ولغويًا ونحويًا في بعض مشكلاتها، وهو إنصاف حميد.

د- نشر الأستاذ/ أحمد شاكر كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة محققًا مضبوطًا، في جزأين كبيرين، أخرجتهما في طبعتهما الأخيرة دار المعارف إخراجًا جيدًا، وقد قال المحقق في مقدمته: «وخير ما ندل به على منزلة هذا الكتاب من العلم، وعلى فائدته للعلماء والمتأدبين، أن نخرجه إليهم إخراجًا صحيحًا متقنًا، وعلى ما أستطيع بجهدي القاصر، بأني رجل جل اشتغالي بعلوم الحديث والقرآن، إلا أني أرى أن الأدب والشعر هما أكبر عون في فقه القرآن والسنة، وما أستطيع أن أزعم أني أهل لمثل هذا العمل، إلا أن أبذل ما في وسعي، والتوفيق والعون من الله».

وذلك قول ظلم به الأستاذ نفسه، لأن جهده الكبير لم يقتصر على القرآن والسنة - وهما ما هما- بل تعداهما إلى كتب الأدب واللغة، فنشر «المفضليات» للضَّبي، و«المعرَّب» للجواليقي، و«لُباب الآداب» لأسامة بن منقذ، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة وغيرها، كما أشرنا من قبل، وكان في ذلك سابقًا غير مسبوق.

وقد صادف أن تعرّض تحقيقه لكتاب «الشعر والشعراء» لنقد علمي دقيق، كتبه البحاثة المحقق النقاد الأستاذ/ سيد أحمد صقر، ونشره بجزأين من أجزاء مجلة الكتاب القاهرية، فقرأ الأستاذ شاكر النقد معجبًا، وأخبر صاحبه بأنه سينشره في الطبعة المقبلة، ليقف القرّاء عليه، ووفى بما وعد، وموضع الدهشة في هذا الصنيع المثالي، أن الناشر المحقق في صميم رأيه

لا يوافق على كثير مما أتى به الناقد الدقيق، ولكنه عمل على نشر النقد ليكون القارئ على بينة من اختلاف وجهات النظر بين المحقق وناقده، وهذا ما عبّر عنه الأستاذ/ أحمد شاكر حين قال في مقدمة الطبعة الثانية التي نشر بها نقد الأستاذ سيد صقر:

«ورأيت أن الأمانة العلمية تقتضيني ألا أتصرف في نقد الأستاذ سيد صقر على ما فيه من هنات أو تحامل اعتاده كثير من شباب هذا العصر العجيب، ولا بأس عليَّ في ذلك، فما كان من نقده صوابًا، وإرشادًا، إلى خطإٍ، ووقعت فيه تقبلته راضيًا شاكرًا، وصححته في هذه الطبعة، وما كان من خطأً أو تحاملًا لم أفكر في التعقيب عليه إلا فيما ندر، وما كان من مواضع اختلاف وجهة النظر تركته للقارئ يرى فيه رأيه، فيقبل منه ما يقبل، ويرفض منه ما يرفض، فما يكون لي على الناس من سلطان أفرض به رأيي عليهم، وما كان هذا من أخلاق العلماء.

وسيجد القارئ أن كثيرًا من نقد الأستاذ/ سيد صقر ما هو إلا تحكم أو افتيات على ابن قتيبة أو غيره دون دليل مرجح، فنجده كثيرًا ما يذكر البيت أو النص من كلام ابن قتيبة، ثم يزعم أن صوابه كذا، دون دليل مقنع، وأحيانًا دون نقل عن مصدر معتمد، والروايات في الشعر في نصوص المتقدمين تختلف كثيرًا، فمن المصادرة والتحكم أن نجزم بصحة رواية أخرى في كتاب آخر، دون رواية ابن قتيبة، وقد يكون راوي تلك الرواية دون ابن قتيبة منزلة في العلم أو الثقة بروايته».

أقول: -بعد هذا الكلام العجيب- : إن موضع الدهشة أن ينشر الأستاذ/ أحمد شاكر نقدًا، لا يوافق على كثير مما احتواه، وأن يجعله في المقدمة من كتابه، وقد رأينا الأستاذ/ أحمد أمين ينشر نقد الأستاذ/ محمد كرد علي في تحقيق «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان! ولكن القياس مع الفارق، لأن الدكتور أحمد أمين ينشر نقد

صاحبه موافقًا عليه، أما الأستاذ شاكر فيري فيه ما يخالف! ولست أُبخس قليلًا من قدر الأستاذ سيد صقر، فهو عندي بالمنزلة العالية التي شهد بها المنصفون، ولكني أحكي ما كان لآخذ منه موضع العبرة فحسب!.

❊ ❊ ❊

[انظر: «كلمة الحق» (ص١٠، ١٧، ١٤٨، ١٥٣)، و«حكم الجاهلية» كلاهما للشيخ أحمد شاكر، و«النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصري» للدكتور محمد رجب البيومي].

❊ ❊ ❊

الشيخ العلامة محمد الخضر حسين

ترجمته في سطور

١- ولد الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين رضوان الله عليه في بلدة «نفطة» بالقطر التونسي عام ١٨٧٣م، من أسرة علم وصلاح وتقوى يتصل نسبها بالرسول الأعظم ﷺ. وجده للأب سيدي علي بن عمر، وجده للأم سيدي مصطفى بن عزوز، وخاله العلامة / محمد المكي بن عزوز، وشقيقاه العلامة اللغوي المرحوم/ محمد المكي بن الحسين بتونس، وسيدي الوالد العلامة المرحوم/ زين العابدين بن الحسين التونسي بدمشق.

٢- لما بلغ من العمر الثانية عشرة، انتقل مع والده إلى العاصمة تونس، والتحق بطلاب العلم بجامع الزيتونة أرقى المعاهد الدينية وأعظمها شأنًا في المغرب. وحصل منه على الشهادة العالمية في العلوم الدينية والعربية.

٣- أصدر مجلة «السعادة العظمى» وهي أول مجلة ظهرت في المغرب وأغلقتها سلطات الاستعمار الفرنسي. ثم تولى القضاء في مدينة «بنزرت» عام ١٩٠٦م. ولم يرقه ميدان القضاء إذ حال بينه وبين الدعوة للإصلاح والجهاد، فتركه إلى التدريس في جامع الزيتونة أستاذًا للعلوم الدينية والعربية، كما تولى التدريس في مدرسة «الصادقية» بتونس.

٤- حُكم عليه بالإعدام لاشتغاله بالسياسة ودعوته إلى النضال والتحرير، فهاجر إلى دمشق مع عائلته، وأقام فيها مدة طويلة، تولى

في مطلعها التدريس، واعتقله جمال باشا فترة من الزمن ورحل بعدها إلى الآستانة وألمانيا. ثم عاد إلى دمشق، فلاحقته سلطات الاحتلال الفرنسي فرحل إلى مصر لا جئًا سياسيًّا عام ١٩٢٠م والتقى بكبار علمائها ورجالها.

٥- قام بتأسيس جمعية الهداية الإسلامية، وأصدر مجلة تحمل نفس الاسم. واشترك في تأسيس جمعية الشبان المسلمين. واستلم رئاسة تحرير مجلة «نور الإسلام» التي يصدرها الأزهر والمعروفة اليوم باسم مجلة «الأزهر». وانضم إلى علماء الأزهر وعين مدرسًا للفقه في كلية أصول الدين، ثم أستاذًا في التخصص.

٦- عين عضوًا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لأول نشأته. كما عين عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق. واختير عضوًا في جماعة كبار العلماء بعد أن قدم رسالته العلمية «القياس في اللغة العربية».

٧- استلم رئاسة تحرير مجلة «لواء الإسلام» كما ترأس جمعية «جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية» ثم اختير عام ١٩٥٢م إمامًا لمشيخة الأزهر.

٨- توفي عام ١٩٥٨م، ودفن في المقبرة التيمورية بالقاهرة، إلى جانب صديقه المرحوم أحمد تيمور باشا. رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة ونفع بآثاره المسلمين.

محمد الخضر حسين
في آثاره العلمية

يقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين»:

يحلو لكثير من النقّاد أن يصنفوا المؤلفين طبقتين: طبقة العلماء، وهم أرباب البحوث العلمية في الفقه والتشريع والعلوم اللسانية من نحو وبلاغة وتصريف. وطبقة الأدباء، وهم أصحاب الآثار الفنية من نثر بارع الصّوغ صادق العاطفة، وشعر رائع المعنى دقيق التصوير. فإذا نظم العالم شعرًا أو ألّف الأديب مصنفًا علميًّا، فقد سلك مسلك التكلّف والافتعال.

وربما دعّم هذا التقسيم لديهم ما يشاهدونه كثيرًا من ركاكة أشعار العلماء، وضحالة إنتاج الأدباء!.

وهذا حق في أكثر أحواله، ولكنه لا يمنع أن يوجد من الموهوبين من يبرز في الناحيتين على نحوٍ يدهش ويروع!.

أذكر أني كنت أقرأ كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصوصه» للقاضي الشهير/ علي بن عبد العزيز الجرجاني، فأجد الرائع المُبدع من التحليل الأدبي والصّوغ البياني، مع الاستشفاف الملهم لأسرار الروح ونوازع الوجدان، ثم أنتقل إلى ما رواه الثعالبي من شعره، فأجد المطرب المرقص مما يملك الوجدان دقة إحساس ولطافة منزع! والرجل بعد قاضٍ فقيه! يؤلّف في الفقه والتشريع، ويحذق أساليب الاستنباط والقياس وقواعد الأصول ذات المنحى العويص!! وتفوّقه في

الناحيتين المختلفتين دليل ملموس على أن العالم لا يمنع الأدب، فقد يوجد من ذوي المواهب من يطير بجناحين متعادلين، فيحرز قصب السّبق في مضماري العلم والأدب دون نزاع.

ولقد كان السيد محمد خضر حسين أحد هؤلاء دون جدال!.

فالرجل قاضٍ فقيه، يكتب في الأصول والتشريع والتاريخ كتابة المتعمق الدقيق، وقد كان يدرس لطلاب كلية أصول الدين أبوابًا من السياسة الشرعية، يغوص فيها مغاص الأصولي الجدلي المتكلّم النظّار. ثم هو صاحب رسائل أدبية، ومقالات تحليلية، وديوان شعري، يجعله في طليعة أرباب الفن الرفيع، ولا ندري كيف تأتّى له ذلك، ومنشؤه العلمي بجامع الزيتونة في «تونس»، إن استطاع أن يلهمه بصر العالم، فلن يستطيع أن يورثه ذوق الأديب دون جهدٍ جهيد!!.

وُلد الأستاذ بقرية من قرى «الجزائر» على حدود القطر التونسي، في أُسرة تعتز بعراقة النسب، وتفخر بمن أنجبت من العلماء والأدباء، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة طالبًا، وأكبّ على التحصيل والتلّقي حتى نال الشهادة العالمية عن جدارة، وتهيأ للإفادة العلمية كاتبًا ومدرسًا وقاضيًا.

وتسألني عن طريقة التدريس بجامع الزيتونة إذ ذاك، فلا أجد أحسن مما قاله الأستاذ/ أحمد أمين في كتابه «زعماء الإصلاح» (ص١٤٨):

«وعلى رأس هذه الكتاتيب جامع الزيتونة، وهو صورة مصغّرة من الأزهر في ذلك العهد، تقرأ فيه علوم الدين: من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبيان ومعان، في كتب مقرّرة لها مُتُون وشروح وحواشٍ، ويقضي الوقت في تفهم تعبيراتها، وإيراد الاعتراضات والإجابة عنها، فالعلم شكل علم لا علم، والنتاج جدل

لا حقائق، والناجح في الامتحان الذي يستحق أن يكون عالمًا أقدرهم على الجدل، وحفظ المصطلحات الشكلية، أما الجميع فسواء في عدم التحصيل إذا مسّوا الحياة الخارجية. فالمناقشة في أن شرب الدخان حلال أو حرام، والغيبة أشدّ حُرمة أم سماع الآلات الموسيقية، وخيال الظلّ تجوز رؤيته أو لا تجوز» [في هذا الكلام نظر (أحمد)].

ويقصّ الأستاذ / محمد الخضر حسين نفسه طريقة أحد أساتذته في التدريس، فيقول عن شيخه/ عمر بن الشيخ نقلًا عن مجلة «الهداية الإسلامية» جمادى الآخرة سنة (١٣٥٥هـ):

«أما أسلوب الأستاذ في التعليم فمن أنفع الطرق، كان يقرر عبارة المتن، ويبسطها حتى يتّضح المراد منها، ثم يأخذ في سرْد عبارات الشرح، وما تمسّ الحاجة إليه من الحواشي والكتب التي بحثت في الموضوع، لاسيما الكتب التي استمد منها شارح الكتاب، ويتبعها بالبيان جملة جملة، ولا يغادر عويصة أو عقدة إلا فتح مغلقها، وأوضح مجملها، بحيث يتعلّم الطالب من دروسه كيف تلتقط جواهر المعاني من أفواه المؤلفين زيادة عما يستفيده من العلم».

ثم يقول عنه: «تلقيت عن الأستاذ رَحِمَهُ اللهُ دروسًا من تفسير البيضاوي، ودروسًا من شرح التاودي على العاصمية، ودروسًا من شرح الشيخ عبد الباقي على المختصر الخليلي، وكنت بعد أن استقال من منصبي الفتوى ونظارة الجامع أزوره كثيرًا حرصًا على الاستفادة من علمه».

هذه الطريقة في الشرح والتلقين هي نفسها الطريقة الأزهرية القديمة التي نادى محمد عبده بوجوب إصلاحها، ودعا إلى نمط آخر من الدراسة يهتمّ باللّباب دون القشور، وأُرجح أن بعض أساتذة الزيتونة لم يكونوا من هذا الطراز، لأن الشيخ الخضر في غضون مقالاته الكثيرة يتحدث عن

أستاذه سالم أبو حاجب، فيُرينا نمطًا من العلماء الأفذاذ يهتمون بالحقائق الخاصة، ويعملون على إحياء الوعي المجدد الناهض، فهو مثلًا في دروسه كان يستشهد على كل كلمة لغوية ببيت من الشعر، مما ينبئ بكثرة محفوظه الأدبي، وزملاؤه إذ ذاك كانوا لا ينظرون إلى دواوين الشعر العربي نظرة تأمل واستيعاب، وأكاد أجزم أن وجود هذا الأستاذ في حياة الخضر العلمية كان ذا أثر بعيد في اتجاهه الفكري، فهو الذي حدا به إلى البُعد عن دائرة الحواشي والمتون والتقريرات، وهيّأه لأن يرد التراث العلمي من أصفى موارده في أُمهات الكتب للشافعي وابن حزم والغزالي والفخر والشاطبي، وأمثال هؤلاء من أفذاذ العلماء!.

ولا تجد تعليلًا لنبوغ الخضر في حداثته، وتفوقه عن أقرانه غير صفاء مورده، ودسامة غذائه الفكري، على حيث يظل الزملاء في مصر وتونس مُولعين بكتب المُماحكات، وحواشي المتون!.

تخرّج الأستاذ في الزيتونة صحيح العلم، واسع الأفق، فصيح العبارة، وراعه أن يرى الاحتلال الفرنسي يأخذ بمقبضه الحديدي على أعناق المسلمين في أصقاع المغرب بشتى نواحيه التونسية والجزائرية والمراكشية! فطفق يدعو إلى اليقظة والتحرّر، وأنشأ مجلة «السعادة العظمى»، لتوضح للقارئين مأساتهم الدامية، وتكشف تخلّفهم الحضاري والعلمي، وبُعدهم عن تعاليم الإسلام في مجتمع يقول الأستاذ أحمد أمين في وصفه (ص١٤٩):

«جزء كبير من السكّان بدو لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين، ولا يصل إليهم شيء من علم إلا في بعض أماكن أنشأ فيها الصوفية زوايا تعلم الناس شيئًا من الدين، وللجاليات الأجنبية من فرنسية وإيطالية وإنجليزية مدارس تعلم أبناءها وقليلًا من أبناء البلاد؛ اللغات والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة، فتخرج من هم أقدر على فهم الحياة، فإذا

انغمسوا فيها، تحوّلت مالية البلاد إلى أيديهم. وأما إدارة البلاد ففوضى، الحاكم حاكم بأمره، وأحب الناس إليه مَن يجمع له المال من حله وحرامه، ولا ضبط في دخل ولا خرج، والعدل والظلم متروكان للمصادفات، فإن تولى بعض الأمور عادل عدل، وكان العدل موقوتًا بحياته - وقلّما يكون- ونظام القضاء والجيش والإدارة والضرائب وجباية المال وإنفاقه على النمط العتيق البالي، وكثير من الأمور تنفذ بالأوامر الشفوية، لا مرجع لها ولا يمكن الحساب عليها».

هذه حال تونس! وهي مشابهة لأكثر أحوال الممالك الإسلامية في أواخر القرن الماضي، وأوائل هذا القرن، ولو كان الأستاذ الخضر ممّن يفكرون في ذواتهم الخاصة، لقنع بما أُسند إليه من وظائف القضاء بالمحاكم، والتدريس والخطابة بالزيتونة وغيرها من المدارس، وهي وظائف تضمن العيش الرغيد، وتوفّر صعاب الرزق، بل إنها كانت عند بعض الوصوليين مَدعاة التقرب من المحتلين، إذ يصيرون لعبة هيّنة في أيديهم، يصدرون عن آرائهم، ويمهّدون لتمكين سيطرتهم بما يلفّقون من تقريب وتمهيد!.

ولكن الرجل حيّ الضمير، شديد الحساسية، فقد رأى الأجنبي يحاول أن يطمس نور الشريعة عن عيون تهيم بالإسلام، كما يبذل قوّته الحاشدة لتشويه اللغة العربية والحكم عليها بالجمود والتقهقر، لينصرف الناس عن قرآنهم المجيد، وأحاديث نبيهم الكريم، ثم تنقطع صِلاتهم بأصحاب الذخائر العلمية الرائعة من ورثة الأنبياء وهُداة المُصلحين!.

لذلك أنشأ صحيفة السعادة على نمط العُروة الوُثقى، لتنشر محاسن الإسلام، وتفضح أساليب الاستعمار، وكانت خطة السيد منذ حمل لواء الدعوة في صِباه إلى أن لقي الله في شيخوخته واضحة مفهومة، فهو يعتقد أن فساد الأمم الإسلامية يرجع في أصحّ أسبابه إلى انصراف المسلمين عن

هدى الشريعة الإسلامية، ويرى أن السيطرة الأوربية لم تملك زمام الأمور في الشرق إلا حين اعتصمت بالعلم واستضاءت بالعقل، وأن الشلل العقلي لم تتمهّد وسائله المؤسفة وأسبابه القاتلة في ربوع الدين الحنيف إلا حين استطاع الدّخلاء أن يلبسوا الحق بالباطل، فيصمُوا الإسلام بما هو براء منه من الجمود والتزمّت والاستسلام، والأخذ بالخرافات والبِدَع والغيبيات المزعومة مما لم يأت به وحي سماوي، أو هدي نبوي!.

ولذلك كانت مهمة السعادة العظمى شاقة خطيرة، إذ أخذت تحارب القوة والمال والنفوذ بعزم واثق، وجهد صابر أمين!!.

والرائع حقًّا أن الأستاذ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، قد ثبت على معتقده ثبات الأبطال في كل مكان رحل إليه، فهو في تركيا ودمشق وألمانيا والقاهرة شابًّا وكهلًا وشيخًا، هو هو في تونس، يافعًا غضًّا يناهض الباطل بالحق، ويحارب الكفر بالإيمان!.

ومَن يطالع روائع قلمه، وبخاصّة كتاب «رسائل الإصلاح» بأجزائه الثلاثة، يدرك يقينه الثابت بماضي الأمة الإسلامية، فهو في كل مقال يخطّه، أو محاضرة يُلقيها، يلتمس الأدلة اليقينية على مجد السلف، وعزّ الأجداد، وكان ذلك أمرًا لابد له أمام مزاعم الاستعمار وأذنابه ممّن يرون في الشرق كل تأخر وانحطاط، وفي الغرب كل تقدّم وازدهار.

ويمكننا أن نستعير بعض ما كتبه السيد في مقدمة كتابه «نقض الشعر الجاهلي»، ليُري القارئ إجمال دعوة الرجل موجزًا بقلمه البليغ، قال الأستاذ:

«نهضت الأمم الشرقية فيما سلف نهضة اجتماعية، ابتدأت بطلوع كوكب الإسلام، واستوثقت حين سارت هدايته سيرها الحثيث، وفتحت عيون هذه الأمم في طريقة الحياة المُثلى، سادت هذه النهضة، وكان لها

الأثر الأعلى في الأفكار والهِمم والآداب.

ومن فروعها نهضة أدبية لغوية، جعلت تأخذ مظاهرها العلمية لعهد بني أُمية، واستوت على سوقها في أيام بني العباس.

تمتع الشرق بنهضته الاجتماعية والأدبية حقبًا، ثم وقف التعليم عند غاية، وأخذ شأنًا غير الشأن الذي تسمو به المدارك وتنمو نتائج العقول، فإذا غفوة تدبّ إلى جفون هذه الأمم، ولم تكد تستفيق منها إلا ويد أجنبية تقبض على زمامها.

التفت الشرق إلى ما كان في يده من حكمة، وإلى ما شاد من مجد، وإلى مَن شبّ في مهده من أعاظم الرجال، أخذ ينظر إلى ماضيه ليميز أبناؤه بين ما هو تراث آبائهم وبين ما يقتبسونه من الغرب، ويشعروا بما كان لهم من مجد شامخ، فتأخذهم العزّة إلى أن يضموا إلى التالد طريفًا، وليذكروا أنهم ذرية أولئك السّراة، فلا يرضوا أن يكونوا للمستبدين عبيدًا».

هذا هو المجال الذي انطلق فيه يراع الأستاذ طيلة حياته، مجال التذكير بالأمجاد عن دراسة وتنقيب، وكشف الخداع عن بهارج الغرب في استشفاف ونفاذ، ووضع العلاج لأدواء الشرق في بصر وتشخيص!!.

وقد ألحّ في ذلك إلحاحًا جعل فريقًا من المؤرخين يفهمون رسالته الإصلاحية على غير وجهها الصحيح.

فالأستاذ ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال، يضع كتابًا عن الإسلام في التاريخ الحديث، يتعرّض فيه إلى مجلة الأزهر، موازنًا بين رئيسي تحريرها السابقين محمد الخضر حسين ومحمد فريد وجدي، فيجعل الأول ممثلًا للمدرسة السلفية فقط، والثاني مجددًا عصريًّا تسير طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة، وهذا شطط بالغ تنبّه إليه الأستاذ عباس العقاد حين تعرّض لنقد الكتاب، فقال نقلًا

عن مجلة الأزهر رجب سنة (١٣٨١هـ):

«ويقول صاحب الكتاب في مقابلته بين منهج الشيخ الخضر، ومنهج الأستاذ وجدي، أن أولهما يعتبر الإسلام وحيًا تامًّا، قد تنزل على صورته الكاملة عند عصر الرسالة الإسلامية، فلا إضافة إليه ولا زيادة عليه، ولا تحوير فيه، وإنما الإيمان بالإسلام هو الذي يحتمل القوّة والضعف، كما يحتمل زيادة المعرفة أو النقص فيها، أو يحتمل المراجعة من عصر إلى عصر لتفقّد الآثار العصرية فيه، وليس الأستاذ الخضر كما يرى المؤلّف من أنصار الحنين إلى الماضي، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها، لأنها صالحة لكل زمان، ومهما تتجدد مذاهب المعرفة، فالمسلم يسلّم أمره إلى إرادة الله كما هدته معارفه إلى فهم تلك الإرادة الإلهية بالدرس والإلهام، وقد تساوى في نظر الشيخ الخضر كِلا الطرفين من المسلمين في الحاجة إلى التصحيح والإصلاح، وهما -على تعبير المؤلف- طرف اليسار من المتعلّمين الذي جاوزوا حدود الإسلام، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيقوا حدوده عليهم وإن لم يجاوزوه».

ولم يسكت المستعمرون الفرنسيون عن صاحب السعادة، وقد أقضّ مضاجعهم بما ينادي به من استقلال وإصلاح، فآذوه وناوؤوه، وحكموا عليه بالإعدام، حتى اضطر إلى الفرار إلى الآستانة واهمًا أن مجال الإصلاح بها أوسع وأرحب، ولكنه فوجيء بانهيار آماله حين وجد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحًا للدسائس المغرضة والمؤامرات الرخيصة، أن مَن يجعلون أنفسهم رجال الدين هناك لا يدعون إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة، بل لا يتناهون عن مُنكر يفعلونه، فهم يحيكون المكائد بالليل، ويفسرون المنامات، ويقرؤون الكف بالنهار، على أنهم يضيقون بكل عالم مُصلح يصدع بالحق، وينادي باليقظة والاستبصار.

فهاجر الرحّالة الصابر المُحتسب إلى دمشق، وحرص على البقاء بها

مُدرسًا للعربية في المدرسة السلطانية، ولكن مبادئه تهتف به أن يُسهم بنصيبه في البعث الإسلامي، فيكتب ويخطب ويدعو، ثم يسافر إلى ألمانيا فيلتقي بالأحرار من أنصار الفكرة الإسلامية أمثال [محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعبد الحميد سعيد]، ويعملون جميعًا على استقلال الدول الإسلامية أمدًا طويلًا في وطأة الحرب العالمية الأولى، وبين طلقات المدافع وأزيز الطائرات، في مسرح جهنمي يشيب له الرؤوس !!.

ثم يعود إلى دمشق ثانية، فيواصل التدريس بالدار السلطانية ويقرأ كتاب مُغني اللبيب، ليكون فيما بعد أساسًا لمؤلف نحوي بلاغي شامل، حتى إذا ختمت الحرب، وأسرعت فرنسا باحتلال الشام، رأى نفسه مضطرًا إلى الهجرة بنفسه، فرارًا من هؤلاء الذين حكموا عليه بالإعدام في تونس، يسابقه جهاده، ورائعة نضاله، فيمّم وجهه شطر الديار المصرية، ليصبح له فيها شأن جديد.

❁ ❁ ❁

حضر السيد محمد الخضر حسين إلى مصر في وقت عصيب من تاريخها الفكري، وكانت الحاجة ماسّة إلى رجل مثقف من رجال الدين، قد فهم الشريعة فهمًا صحيحًا، يستند إلى الأصول من القواعد والأُمهات من المراجع، مع مطاوعة سهلة للبيان النيّر المُشرق، يوضح به للقرّاء ما التبس عليهم من أوجه الخلاف بين دُعاة الإلحاد وأنصار الفكرة الإسلامية، هؤلاء الذين وُصفوا فيما بعد بأنصار القديم، ووصفت خصومهم بأنصار الجديد، كما حلا للدكتور طه حسين أن يُسهب في ذلك ويزيد!.

نعم كان المخلصون من حُماة الفكرة الإسلامية في غير الدوائر الدينية الرسمية كثيرين، ولكن وجود العالم المحقّق الأديب المبين محمد الخضر

حسين أمر ضروري، يحتّم أن يقوم أحد أصحاب العمائم المستنيرة بالجهر بكلمة الإسلام فيما ران من شكوك، وما أذاعه أذناب الاستشراق من مفتريات! وقد ملئ كتابا الشعر الجاهلي، والإسلام وأصول الحكم بأقسى عبارات التهكم بالمعمّمين ! فحقّ لأحدهم أن يقول فيجيد!.

كانت سيطرة الثقافة الاستعمارية بعد الحرب العالمية الأولى مَدعاة إلى إغراء برّاق بأوربا، وازدراء ناقم لأمجاد الشرق في رأي من جهلوا الحق فضلّوا عن سبيله، ومن عرفوا الحق مستبصرين ولكنهم مالؤوا الباطل ليصلوا إلى الشُهرة والجاه والزعامة الفطرية من سفاح دنيء لا يعرف معنى الشرف في القول أو الفعل، وإن تستّر بخداع زائف من التصايح بالحرية الفكرية، والمنهج العلمي، ويشهد الله أن لا حرية ولا منهج، ولكن الهوى يُعمي ويُصمّ.

ما كاد الأستاذ الخضر ينزل حيّ الحسين بمصر غريبًا لا يعرف أحدًا من الناس، ومهاجرًا في سبيل الله بقلمه المجاهد الشجاع، حتى وُفِّقَ لعمل بدار الكتب بأجر زهيد لا يتفق ومنزلته الكبيرة، ولكنه كان بتوفيق الله صلة حميدة إلى اشتهاره الأدبي، ونبوغه العلمي، ثم إلى اتصاله بأشباهه من الغُيَّر على مقدسات الإسلام من أعلام المفكرين، [كأحمد تيمور، ومُحب الدين الخطيب، وعبد الحميد سعيد، وعبد الوهاب النجار، ومحمد رشيد رضا]، ثم شاءت الأقدار أن تفتضح معركة الشعر الجاهلي، وأن يكون الأستاذ بطلًا معلمًا من أبطال المعركة، يصيح بالحق ويندّد بالضلال.

لقد ظهر كتاب «الشعر الجاهلي» ينادي باحتقار كل قديم دُوِّنَ في صُحُف الأدب والشك فيه، ويزعم أن جُلّ ما قيل منسوبًا إلى شعراء الجاهلية اختلاف زائف بغيض، وهذه الآراء مهما صادمت البداءة الواضحة لا تُحدث ضجّة بين الناس يسعى إليها الدكتور طه حسين باذلًا جهده الجهيد، فلابد إذن من الهجوم على المقدسات الدينية

هجومًا لا هوادة فيه، فليتعرض الكاتب إلى القرآن المجيد، وليزعم أن حديثه عن إبراهيم وإسماعيل لا يكفي لإثبات وجودهما في التاريخ!.

وليعلن أن المنهج الديكارتي هو الذي يفرض عليه هذه الجرأة الطاغية، وأنه اتباعًا لهذا المنهج يشكّ في كل شيء يقال في قول قرآني، أو أثر محمّدي، أو متواتر ذائع من القصص والشر والخطب والتاريخ، إذ أن رواية ذلك وتسجيله لا يكفيان لإثباته دون بحث عن العوامل القريبة والبعيدة في الرواية والتدوين.

ونحن لا نريد أن نفيض في دعوى الانتحال الشعري ؛ لأنها لبّ الكتاب وفحواه، وهي دراسة أدبية يتبين وجه الحق في بُطلانها من أيسر طريق.

ولكننا نلخص ما تورّط فيه الكاتب مُلحًّا ليهاجم الإسلام هجومًا يُرضي أساتذته من قساوسة المستشرقين، ويجعل الرجل صاحب دعوة جديدة في الفكر الإسلامي الحديث.

فالدكتور طه يعلن أن محمدًا قد استغل المقدسات الدينية بمكة وفي مقدمتها البيت الحرام الذي بناه إبراهيم، كيلا يفقد قوته الروحية مع صراع الشرك، فالمسالة مسألة استغلال للسيطرة فحسب لا أن بيتًا لله بناه إبراهيم على وجه التحقيق.

والدكتور يعلن أن القرآن لم يكن جديدًا على العرب، إذ أن عقائده الجديدة كانت معروفة في شبه الجزيرة بدليل عجيب يرتضيه طه وحده. وهو قبول من قبل ومُعارضة من عارض، إذ لو لم يكن مألوفًا ما حفل به أحد.

والدكتور طه يعلن أن دعوة الإسلام دعوة محلية في جماعة خاصة وفي حياة خاصة، فهى ليست دعوة عامة للبشرية كما ينطق بذلك القرآن

الصريح.

ومنطق هنا كله كما يقول الأستاذ البهيّ في كتابه «الفكر الإسلامي الحديث» (ص١٩): إن القرآن ليس وحيًا لرسالة الله!!.

وإذا كان المؤلف النابغة قد أثبت اقتراب هذه الأفكار من كتاب المذهب المحمدي للمستشرق الإنجليزي جب، فإن الأستاذ الخضر قد استطاع أن يجد الأصل الاستشراقي الذي سطا عليه الدكتور سطوًا فاحشًا فيما كتبه الدكتور مرغليوث في مجلة الجامعة الأسيوية الملكية سنة (١٩١٦)، وفي كتاب «محمد» المطبوع سنة (١٩٠٥).

وقارئ الرد المُفحم الذي كتبه الأستاذ يرى عجبًا حين يجد الدكتور يضطر للشك في المتواتر من أخبار القرآن بحكم منهج ديكارت، ثم يقبل كل رواية مريضة واهية يذكرها كتاب الأغاني، كحق مسلّم يستند إليه في قضية الانتحال، حتى اضطر القارئ إلى الاعتقاد بأن المنهج الديكارتي لا يصلح فقط إلا حين يجابه الحقائق لا الأراجيف، وإذا كان فريق من الأساتذة الأعلام كالأستاذ [الرافعي، والغمراوي، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد فريد وجدي]، قد مزّقوا كتاب الدكتور تمزيقًا علميًّا بما فضحوه من السرقة والتدليس ومُجافاة الحق، فإن الأستاذ الخضر زاد عليهم جميعًا بشيء تفرد به، وهو غوصه على النصوص العربية من أُمهات كتبنا العلمية التي جهلها الدكتور، فظن أفكاره في الشك والانتحال والاستشهاد بالقرآن ستكون جديدة على القارئ العربي! وأكثرها مدوَّن بنزاهة في الكتب الأمينة التي حرفها الاستشراق عن قصد ثم سطا عليها طه بعد التحريف فثرثر وأطال.

فطه مثلًا يقول في (ص٩): «وينتهي بنا البحث إلى نتيجة غريبة، وهي أنه لا ينبغي أن يستشهد بهذا الشعر على تفسير القرآن وتأويل الحديث،

وإنما يستشهد بالقرآن والحديث على تفسير هذا الشعر وتأويله».

والأستاذ الخضر يقول - مثلًا- في الردّ على ذلك (ص٢٢): «لم تكن هذه النتيجة غريبة، إلا عند مَن يتناول البحث خطفًا ولا يمشي فيه على رويّة وأناة. وقد أنكر بعض أهل العلم فيما سلف على مَن يتوقف من النحويين في تقرير ألفاظ القرآن على شاهد عربي، ومن هؤلاء فخر الدين الرازي حيث يقول في «تفسيره الكبير»: «وإذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول عن قائل مجهول، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم كان أولى، وكثيرًا ما أرى النحويين متحيّرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وقفه دليلًا على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن على صحته أولى»!.

وأنكر أبو محمد بن حزم على مَن لا يمضي في الاحتجاج بظاهر القرآن في كتاب «الفِصَل»: «ولا عجب ممّن إن وجد لامرئ القيس، أو لزهير، أو لجرير، أو الطرمّاح، أو لأعرابي أسدي أو تميمي، أو من سائر أبناء العرب لفظًا في شعر أو نثر جعله في اللغة، وقطع به ولم يعترض فيه، ثم إذا وجد الله تعالى خالق اللغات وأهلها كلامًا، لم يلتفت إليه، ولا جعله حجّة، وجعل يصرفه عن وجهه»!.

وهكذا نرى في الكتاب عشرات النصوص القوية التي تسلك مسلكًا جديدًا في الفهم، ولو كانت هذه مزية الكتاب الواحدة لكفته فخرًا، فكيف إذا لم يدع شُبهة تحوم إلا وبدّدها برأيه ونقله وعقله في بصر وتمكين!.

وكأن المصادفات العلمية الفذّة قد هيّأت للرجل أن يجول الجولة الثانية بمصر، حين صدر كتاب «الإسلام وأصول الحكم»، لعالم من علماء الأزهر، وقد امتلأ يقينًا بأقوال الاستشراق، فجعلها المنبع الأول لفهم

الحكم في الإسلام على ضوء ما يفهم الأوروبيون من المسيحية، إذ أن المعروف المتفق عليه أن المسيحية دين لا دولة، ولكن الإسلام شيء والمسيحية شيء آخر، فالإسلام دين ودولة، والرسول حاكم ومُبلغ معًا، ونصوص القرآن مليئة بما يجعل هذه الحقيقة في مرتبة البدهيات، ولكن الأستاذ علي عبد الرازق يجهر بدعواه واهمًا أنه وحده صاحب القول الفصل! وقد تطرّق إلى الرّد عليه في الصُّحف اليومية مَن لا يقف معه في مستوى واحد.

كما وجد من تساند الإلحاديين وتكالبهم على تأييده بما يملكون من صُحُف وأندية وأقلام، ما يخلع على كلامه بعض الوجاهة لدى الضعفاء.

ولكن السيد محمد الخضر - نضّر الله وجهه - يتصدى لهذا الإفك الصريح، فيأتي على بُنيانه من القواعد، وكان مجاله النقدي هذه المرة في قمة من القوة والتمكن والإفحام، لأن الجدال ليس في الرواية والقصص والانتحال كما في أكثر فصول الشعر الجاهلي، ولكنه يدور حول قواعد أُصولية عميقة في الفقه والحكم والتشريع، ويجد من تاريخ الإسلام الحافل برجاله وحوادثه ومؤلفاته ما يُعين على جلاء الشك وردّ الزيغ، لذلك: كان مؤلف الخضر حجة قوية تقود المُنصفين إلى مراشد اليقين.

وقد ظلّ الأستاذ علي عبد الرازق ضائقًا به، حتى بعد ربع قرن من صدوره، وانتهاء المعركة على نحو يُرضي المخلصين، فقد قرأت بالسنة الثامنة على ما أذكر من مجلة «لواء الإسلام» كلمة للأستاذ علي عبد الرازق تنبئ عن غضبه الموقد على الأستاذ، وتعيب طريقته في نقد الكتاب، ومجمل العيب في رأي الأستاذ علي عبد الرازق: أن الأستاذ الخضر ينقل كل نص من نصوص الكتاب، على حِدَة، ثم نفيده بالرأي والدليل، وذلك أدعى إلى تمزيق الواحد وتشتيته.

ونحن نقول للأستاذ علي عبد الرازق: إنه قد ظلم فيما قال ؛ لأن هذه النصوص تأتي متوالية متعاقبة، وقارئ النقد يستطيع أن يجمعها بسهولة، ليكون كل ما جاء بالفصل الواحد من الكتاب، وهي بعد خير وأقوم من مسلك ناقد يلخص الموضوع من عنده ثم يعقب عليه، إذ ربما فات من التلخيص شيء هامٌ لا يعرفه القارئ المُحايد!!.

ولا ندري كيف يحافظ الخضر على نصوص الكتاب جميعها، فلا يُسقط منها شيئًا ذا بال، ثم يكون مطعنًا يوجّه إليه من ناقد نبيه!.

إن الغيظ وحده لم يستطع أن يخمد في نفس المنقود على تطاول الأيام به، حتى وجد المنفذ على صفحات «لواء الإسلام»، ولو كان نقد الأستاذ علي عبد الرازق للأستاذ الخضر علميًّا نزيهًا ما تعرض لأمور شخصية لا تتصل بالبحث في شيء، ولكنه تخيل الموهوم ثم خاله حقيقة فتيقنه!! على طريقة بعض الناس.

لقد كان تمكن الخضر في الدفاع مَدعاة للتقدير من ذوي الأحلام، فتقدم لامتحان العالمية بالأزهر، وكان الشيخ عبد المجيد اللبان رئيس اللجنة مع نخبة من زملائه المختارين، فأبدى الشيخ من الرسوخ والتمكن ما أدهش، حتى أن الشيخ اللبان صاح بملء فِيْه: «هذا بحر لا ساحل له، فكيف نقف معه في حجاج»؟.

ونال الشهادة العالمية الأزهرية وبها صار أستاذًا في الأزهر فمدرسًا بكلية أصول الدين، بل كانت طريقه فيما بعد إلى مشيخة الأزهر ذات القدر الخطير.

وقد اتجه الأستاذ إلى تأسيس الجماعات الدينية، فكان أحد مؤسسي جمعية الشبان المسلمين، وقد وضع لائحتها الأولى مع صديقه الأستاذ مُحب الدين الخطيب، وقامت هذه الجمعية برسالتها المخلصة في هداية

الشباب الإسلامي ومحاربة الإلحاد العلمي والنّزق الخلقي، واستطاعت أن تصدّ هجوم الحضارة المُلحدة المادية بما تقوم به من ندوات ومحاضرات، وما تنشره من صُحُف ومؤلفات. وكأني بالخضر وقد شاء أن يُنشئ جماعة الهداية الإسلامية لتساند أُختها في الدعوة إلى الله، وقد كان نشاطها علميًّا أكثر منه اجتماعيًّا، إذ أن محاضراتها المتتابعة قد وجّهت الأذهان إلى كنوز الثقافة الإسلامية، كما أن مجلتها الشهرية كانت تحمل الروائع من التفسير والتشريع واللغة والتاريخ.

فإذا عرفنا أن مجلة «الأزهر» ومجلة «لواء الإسلام» قد ظلتا سنوات عديدة تصدر عن رأي الشيخ وتوجيهه، أدركنا جهاده الشاق في مضمار الصحافة العلمية الراقية، وعرفنا مصادر متنوعة تجمع إنتاجه الدسم الفياض. هذا، ولم يَفُت الأستاذ أن يحارب على صفحات هذه المجلات جميعها ما يندّ من الأقوال المتطرفة في الأدب واللغة والدين، حتى اختلف في الرأي مع أناس مخلصين لا ترقى إليهم الشُبهة في علم أو خلق أو دين.

ولكن العلم الأصيل شيء غير الإخلاص والخلق، فقد يكون المخلص الغيور متسرّعًا ينظر إلى زاوية واحدة، فلابد أن يناقشه إنسان مطمئن، ثاقب النظر، منفرج الزوايا، واسع الاطلاع كالأستاذ الخضر، والنقاش بعد سديد مفيد.

هذا وقد اختير الرجل عضوًا في المجمع اللغوي بمصر، فأبدى من الآراء السديدة في الإصلاح اللغوي ما تشهد به مجلة المجمع ومحاضر جلساته، وهو أول مَن أعلن بالمجمع صحّة الاحتجاج بالحديث النبوي، وأحد مَن اشتركوا في معارك النقاش اللغوي حول الوضع الاصطلاحي، وحق المحدَثين في وضع الكلمات، هذا إلى ما خاضه من بحوث تتعلق بالاشتقاق والتعريب والفصيح والدخيل، وجموع التكسير قياسية

وسماعية، مما يشهد بالتخصّص الماهر الفاحص في فنون اللغة والبيان، على أنه تقدّم إلى هيئة كبار العلماء برسالة في القياس يقول الأستاذ مُحب الدين الخطيب عنها بمجلة الأزهر شعبان سنة (١٣٧٧هـ):

«وفي أثناء إقامته بدمشق شرع في دراسة كتاب «مُغني اللبيب» في علم العربية لجمال الدين بن هشام، بمحضر جماعة من أذكياء طلاب العلم بدمشق، وكان يرجع في تقرير المسائل المتصلة بالسماع والقياس إلى تلك الأصول المقرّرة والمستنبطة، فاقترح عليه أُولو الجد من الطلبة جمع هذه الأصول المتفرقة ليكونوا على بينة منها ساعة المطالعة، فألف مقالات تشرح القياس وتفصّل شروطه، وتدلّ على مواقعه وأحكامه، ومن هذه المقالات تألفت رسالة القياس في اللغة العربية التي أعاد عليه نظره بمصر».

وهي كما رأيتها تجمع الأصول العالية في أحكام القياس والسّماع، وتضم فصولًا عن شروط القياس وأقسامه، وقياس التمثيل والقياس الأصلي مع إيضاح الأمور المشتركة بينهما، هذا إلى أبواب في فضل اللغة العربية ومُسايرتها للعلوم المدنية، وحاجتها إلى المجتمع وحاجة المجتمع إليها، وتأثيرها في التفكير وتأثير التفكير فيها، وغير ذلك كثير. فإذا أضفنا إلى رسالته عن القياس رسالته الأدبية في الخيال العربي، عرفنا جهد هذا الأديب كما عرفنا من قبل مقام ذلك الفقيه.

أما مشيخته الكبرى بالأزهر فقد كانت دليلًا على أن الله لا يتخلى عن رجاله المناضلين، إذ يأبى عدله الرحيم أن يترك هذه الجهود المُضنية في الدين واللغة والأدب تضيع بددًا دون تقدير مادي ملموس، فرأى الأزهر لعهده حلقة ذهبية من حلقات الكمال والجلال والوقار، وطفق الزائرون من كُتّاب وعلماء وصحفيين يتقاطرون على مكتبه، وكلّهم يسأل عن أمور هامة في الإصلاح الديني والتشريع الإسلامي، والتقدم الحضاري، فيجد الإجابة الرصينة السديدة يفوه بها شيخ الإسلام الدّارس المستنير،

ولكن أعباء السنين تتراكم على كاهله الضعيف، فيترك المشيخة معتكفًا محتسبًا حتى يلّبي نداء ربه في ١٣ رجب سنة (١٣٧٧هـ)، وهو التاريخ الهجري الذي كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحرص على تدوينه في كل مكاتبة أو رسالة، ونحن اليوم نسجّل به رحيله الطاهر إلى ساحة الرحمة والرضوان، في جنة عرضها الأرض والسموات.

[انظر: «النهضة الإسلامية في سيرة أعلامها المعاصرين» للدكتور محمد رجب البيومي (ص٥١ - ٦٧)]

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي

نفس تواقة للعلم

أخذ العلم بمجامع نفس الشيخ الأمين حتى لم يدع لغيره مسلكًا، وتحرقت نفسه للطلب فلم ترض بغيره مزاحمًا، ومن طريف خبره في ذلك قوله عن نفسه: كنت في أخريات زمني في الاشتغال بطلب العلم دائم الاشتغال به عن التزويج، لأنه ربما عاق عنه وكان إذ ذاك بعض البنات ممن يصلح لمثلي يرغب في زواجي ويطمع فيه. فلما طال اشتغالي بطلب العلم عن ذلك المنوال، أيست مني فتزوجت ببعض الأغنياء، فقال لي بعض الأصدقاء إن لم تتزوج الآن من تصلح لك. تزوجت عنك ذوات الحسب والجمال، ولم تجد من يصلح لمثلك، يريد أن يعجلني عن طلب العلم فقلت في ذلك هذه الأبيات.

دعاني الناصحون إلى النكاح ... غداة تزوجت بيض الملاح
فقالوا لي: تزوجت ذات دل ... خلوب اللحظ جائلة الوشاح
ضحوكًا عن مؤشرة رقاق ... تمج الراح بالماء القراح
كأن لحاظها رشقات نبل ... تذيق القلب آلام الجراح
ولا عجب إذ كانت لحاظ ... لبيضاء المحاجر كالرماح
فكم قتلت كميًا ذا دِلَاصٍ ... ضعيفات الجفون بلا سلاح
فقلت لهم: دعوني إن قلبي ... من الغي الصراح يوم صاح
ولي شغل بأبكار عذارى ... كأن وجوهها غرر الصباح

أراها في المهارق لابسات براقع من معانيها الصحاح
أبيت مفكرًا فيها فتضحى لفهم الفدم خافضة الجناح
أبحت حريمها جبرًا عليها وما كان الحريم بمستباح

شرف الخرطوم

وربما حضر مذاكرتنا بعض العوام الذين لا يفهمون، ومن جهلهم أن واحدًا منهم قال لنا بكلامه الدارجي ما مضمونه: إنه يغبطنا ويغار منا بسبب أننا نمر بأرض السودان التي فيها موضع شريف **قلنا له:** وما ذاك الموضع الشريف؟ قال الخرطوم قلنا: وأي شرف للخرطوم؟ قال: لأنه مذكور في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٦] فقلنا له: ذلك خرطوم آخر غير الخرطوم الذي تعني، فضحك من يفهم من الحاضرين، واستدل بعضهم بدليل هو عليه لا له، فقال لي: الأديب العلوي هذا مغني اللصوص، فضحك من له خبرة بقصة مغنى اللصوص وهي قصة مشهورة حاصلها أن بعض الأمراء أسر لصوصًا كانوا يقطعون الطريق، فقدمهم للقتل واحدًا يوم بعد واحد حتى لم يبق منهم إلا واحد فقال: لا تقتلوني فإني لست من اللصوص، وإنما كنت مغنيًا لهم أطربهم بالأناشيد والأغاريد فقالوا له: بم كنت تغنيهم؟ قال: بقول الشاعر:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجانب بسرعة وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

❀ ❀ ❀

يا لها من ليلة ويا له من ورع

ثم جئنا آخر النهار بعد الثالثة للقرية المسماة «آتيه» فالتمسنا عربيًّا نبيت عنده فدعانا رجلٌ عربي والله ما سألت عن اسمه ولا اسم أبيه خوفًا من في «الرحلة الحجازية» (ص٨٨)، فأنزلنا في مكان بعيد يعوي منه الكلب وأغلقه علينا من الخارج، فبتنا بليلة لا أعاد الله علينا مثلها أشد من ليلة نابغية، ومن ليلة مهلهلية، فذكرتني تلك الليلة ليلة النابغة التي قال فيها:

كليني لهَمٍّ يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وليلة المهلهل التي قال فيها:

أليلتنا بذي حسم أنيري   إذا أنت انقضيت فلا تحوري

وقد وصف طولها بقوله:

كأن كواكب الجوزاء عوذ   معطفة على ربع كسير
كأن الجدي في مثناه: ربق   أسير أو بمنزلة الأسير
كواكبها زواحف لاغبات   كأن سمائها بيدي مدير

إلى أن قال:

وانقذني بياض الصبح منها   وقد أنقذت من شيء كبير

وتمثلت قول امرئ القيس:

كأن الثريا علقت في مصامها   بأمراس كتان إلى صم جندل

وصبح تلك الليلة أحب غائب إلينا فخرجنا من ذلك الضيق أول النهار.

الفقيه الأصولي اللغوي المفسر يتجافى عن الفتيا، فلا نامت أعين المتجرئين

ومن آخر ما كان عليه الشيخ رحمه الله التجافي الشديد والحذر من الفتوى في غير مواقع النصوص، وتوقفه وعدم جزمه بالترجيح في المسائل التي ليس فيها نصوص واضحة من الكتاب والسنة، وحرصه الشديد على التمييز لطالب العلم بين مواقع النصوص وغيرها من المسائل الاجتهادية.

قال الشيخ عطية في ترجمته ما نصه: «ومما لوحظ عليه في سنواته الأخيرة تباعده عن الفتيا، وإذا اضطر؛ يقول: لا أتحمل في ذمتي شيئًا، العلماء يقولون كذا وكذا».

وسألته مرة عن ذلك، فقال: إن الإنسان في عافية ما لم يبتل، والسؤال ابتلاء؛ لأنك تقول عن الله ولا تدري أتصيب حكم الله أم لا؟ فما لم يكن عليه نصٌّ من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ وجب التحفظ فيه. ويتمثل بقول الشاعر:

إذا ما قتلت الشيء علمًا فقل به ... ولا تقل الشيء الذي أنت جاهله
فمن كان يهوى أن يُرَى متصدِّرًا ... ويكره «لا أدري» أصيبت مقاتله

وقد أخبرني ابنه عبد الله، وكذلك تلميذه الشيخ محمد الخضر بن الناجي الشنقيطي؛ كل منهما على انفراد؛ قال:

«جاءه وفد من الكويت في أواخر حياته رحمه الله فسألوه في مسائل، فقال: أجيبكم بكتاب الله ثم جلس مستوفزًا، وقال: الله أعلم، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لا أعلم فيها عن الله ولا عن رسوله ﷺ شيئًا، وكلام الناس لا أضعه في ذمتي، فلما ألحوا عليه، قال: فلان قال كذا، وفلان قال كذا،

وأنا لا أقول شيئًا».

وفي شوال أو ذي القعدة من عام ثلاث وتسعين وثلاث مئة وألف وهي السنة التي توفي في آخرها بعد أن رجع من جلسة هيئة كبار العلماء بالرياض، وكان قد نوقش فيها السعي في الدور الثاني بين الصفا والمروة؛ يقول ابنه عبد الله:

«وجدته جالسًا في البيت منفردًا، فلما دخلت عليه؛ قال: الحمد لله الذي نحن رائحون عن هذا الزمن»، وكان له رَحِمَهُ اللَّهُ رأى في مسألة السعي بالدور الثاني بالمسعى.

زهده وورعه

ومن أبرز ما كان عليه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الزهد في الدنيا والتقلل منها، والأخبار عنه رَحِمَهُ اللَّهُ في تثبيت ذلك متواترة، أذكر طرفًا منها، ليتخذ منها طلاب العلم قدوة لهم في هذا الزمان الذي فتن فيه كثيرون بالدنيا، تضاف إلى قدوات الزمان الأول الذين زخر بهم تاريخنا الإسلامي:

١- فمن ذلك قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «والذي يفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة؛ لأباح الله منها سد الخلة».

٢- كان رَحِمَهُ اللَّهُ يأخذ من راتبه مصروف الشهر، ويوزع الباقي.

قال ابنه عبد الله: «وكنت أتولى التوزيع على ضعاف طلبة العلم والعجائز والأرامل من القريبات، وكان يقول: والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتبًا من الجامعة، ولكنني مضطر لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف».

٣- قال ابنه عبد الله: «كان يحذرني من الدنيا كثيرًا، ويقول: الكفاف منها يكفي، وإن الشيطان ربَّما سوَّل للإنسان جمعها ليتصدق بها، وهو تلبيس».

٤- ما كان يقْرض الناس، فلما كلمه ابنه عبد الله في ذلك؛ قال: «إن كنت محتاجًا إلى ما عندي؛ فلا أعطيه، وإن كنت غير محتاج؛ فأعطيه من غير قرض»، فإن ردَّها إليه؛ يقول: جزاك الله خيرًا، ولا يقبلها.

٥- **حدثني ابنه عبد الله**: قال: «تزوجت في حياته، وسكنت في بيت مستقل، فكان يعطيني جزءًا من راتبه لا يكفيني، ويعطي غيرنا كثيرًا فقلت: أنا ولده وطالب علم ولا يعطينا ما يكفي ويعطي الأباعد كثيرًا؟! فسمعته مرة يقول: أنا مختار وعبد الله لا أعطيهم مالًا؛ لأن الفلوس تخرب الرجال، وكان إذا كانت نفسه غير راضية عن شخص لا يردُّ له طلبًا».

٦- كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «الريال الواحد والألف سواء، المهم أن يكون صرفها سليمًا». فلم يكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينظر إلى الكثرة والقلة بل إلى ما صرفت فيه.

٧- أهدى له الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود شقيق الملك عبد العزيز بيتًا في الطائف، فردَّه، ولم يقبله، فسئل عن ذلك؟ فقال: «الذي بناه يحتاجه لنفسه، أما أنا فلم أبنه ولا أحتاجه، وعندي بيت في المدينة يكفيني». وقد رأيت بيته في باب الكومة بالمدينة، وهو بناء شعبي؛ أي: سقفه من خشب، لا من حديد، يقع في دورين، في كلِّ دور أربع غرف، وكان الأسفل منهما يغص بطلبة العلم من المغتربين وغيرهم. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشرب ماء الزير، ولا يشرب ماء الثلاجة إلا قليلًا، ويجلس على الحصير، ويأخذ أوراقه في الدهليز ويطالع.

٨- كان الأمير المذكور آنفًا قد عمد البنك الأهلي بالمدينة أن إذا طلب الشيخ منهم أي مبلغ يعطونه، فلم يطلب، ولم يأخذ شيئًا إطلاقًا.

٩- لم تبع كتبه في حياته، وكان يقول: «علم نتعب عليه ويباع وأنا حي؟ لا يمكن هذا، ولكن أنا أدفع العلم، وواحد يدفع الفلوس ويوزع للناس مجانًا، وأنا أعلم أنه سيصل إلى من لا يستحقه، ولكن سيصل أيضًا إلى من لا يستطيع الحصول عليه بالفلوس».

١٠- حدثني الدكتور بكر أبو زيد، وهو من أبرز تلاميذه، ولم يأخذ عنه علم النسب في جزيرة العرب سواه، قال: «كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يلتفت إلى نفسه في أمور المظهر، حتى إن نعله ربما تكون ذات لونين، أحدهما أحمر، والآخر أخضر».

١١- قال الشيخ بكر أبو زيد في كتابه «حلية طالب العلم» ما نصه: «وقد كان شيخنا محمد الأمين الشنقيطي «رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى» متقللًا من الدنيا، وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية، وقد شافهني بقوله: «**لقد جئت من «شنقيط» ومعي كنز قلَّ أن يوجد عند أحد، وهو القناعة، ولو أردت المناصب؛ لعرفت الطريق إليها، فإني لا أوثر الدنيا على الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية**»، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة آمين.

١٢- ومن ورعه رَحِمَهُ اللَّهُ ما حدثني تلميذه الشيخ أحمد بن أحمد الشنقيطي؛ قال: «راجعت الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في ترك الحج في السنة التي توفي فيها نظرًا لسوء صحته، فقال: دع عنك المحاولة، سفري إلى لندن أريد الشفاء بها لابد أن أكفر عنه بحج».

١٣- **قال الشيخ عطية محمد سالم في ترجمته**: «الواقع أن الدنيا لم تكن تساوي عنده شيئًا، فلم يكن يهتم لها، ومنذ وجوده في المملكة وصلته بالحكومة حتى فارق الدنيا لم يطلب عطاء ولا مرتبًا ولا ترفيعًا ولا حصولًا على مكافأة أو علاوة، ولكن ما جاءه من غير سؤال أخذه، وما حصل عليه لم يكن ليستبقيه بل يوزعه في حينه على المعوزين من أرامل ومنقطعين،

وكنت أتولى توزيعه وإرساله من الرياض إلى كل من مكة والمدينة، ومات ولم يخلف درهمًا ولا دينارًا، وكان مستغنيًا بعفته وقناعته، بل إن حقه الخاص ليتركه تعففًا عنه كما فعل في مؤلفاته وهي فريدة في نوعها لم يقبل التكسب بها وتركها لطلبة العلم، وسمعته يقول: لقد جئت معي من البلاد بكنز عظيم مدى الحياة، وأخشى عليه الضياع. فقلت له: وما هو؟ قال: القناعة، وكان شعاره في ذلك قول الشاعر:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثر حسرتي ووساوسي

❁ ❁ ❁

[انظر: «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» للشيخ عبد الرحمن السديس].

❁ ❁ ❁

سماحة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي

رفقه بالطلاب

١- يقول أحد طلبة الشيخ:

أذكر أن تلميذًا كان عنده في أحد الفصول، نبت منه كلمة حول تمجيد مذهب دخيل على الإسلام، ضمن التيارات المعاصرة والأفكار الوافدة، فقرّعه بلطف، وبعد الدرس استدعاه على انفراد وشرح له ما في ذلك المذهب والقائلين به من عيوب، وما يجب عليه أن يسلكه في قراءته وفكره، ومحضه النصح، لكنه لم يرفع للإدارة مخافة الإضرار بالطالب، فصلح ذلك الطالب فيما بعد واستقام أمره، وهذه هي طريقته مع جميع طلابه، بل ما أكثر ما يتجاهل ما لدى الطالب من فكر غير سليم، ورأي غير ناضج، حتى كأنه لم يسمع شيئًا، ثم يتحين فرصة الالتقاء به على انفراد، ويحادثه محادثة الزميل مع الزميل، ثم يترقى إلى أسلوب الأب الشفيق بحاله ابنه.

٢- **ويقول الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري** حاكيًا عن بعض ذكرياته عندما كان طالبًا بالمعهد العالي للقضاء، والذي كان الشيخ عبد الرزاق مديرًا له، ومدرسًا به:

«وقد زاملت في المعهد من هو في دور مشايخي، وما دام التغابن في العلم من باب التنافس المحمود فما غبنني إلا جبهات وكتل من العقل البشري جاءت إلى المعهد بعدي وتخرجت قبلي بسنين، منهم من كان أول ممتازًا منذ بدأ إلى أن انتهى مثل أصحاب المعالي الدكاترة: عبد الله

التركي، وحمود الفايز، وعبد العزيز الربيعة.

جئت إلى المعهد وكان الشيخ عبد الرزاق يكن لي ذكريات حب وإعجاب كما يفرح الأب بابنه النجيب، إلا أنه وجدني على غير عهده، إذ وجد شيئًا من الأناقة في الملبس والمظهر مع توسع الأدباء والظرفاء فلم يغسل يده مني لأنه يحس عندي عناصر من التأصيل الشرعي، ولم يفرح بي كما يفرح بنجباء تلامذته الذين لا يزالون على سمتهم.

وقد فضحتني الصحافة أو فضحت نفسي بها بشيء من الترطيب الفني، حتى أنني لم أبال بمشايخي في مقدمتي لكتيبي «نظرات لاهية»، وكان إذا رآني وأحس بأن الساحة خلية من سامع رمى كليمة من مثل قوله: «يا أبا عبد الرحمن لا تسقط من الزنبيل».

كأنه يريد أننا نريد رفعتك، وأنت تأبى إلا أن تتدلى.

وعندما كنت طالبًا في المعهد كنت أحمل شيئًا من الصلف الأدبي والصحفي أمام جهابذة العلم، وأحضر فصول الدراسة للاعتداد بنفسي أكثر من الاستفادة من مشايخي.

وقد نغصت على مشايخ لي من أمثال البحيري، والدسوقي إلا أن الشيخ عبد الرزاق لم يترك مجالًا لفضولي مثلي لأنه يأسرني فكرًا، ووجدانًا، ولغةً، إذا تحدث فأصغي للدرس وأستفيد على الرغم مني. ومن سخافاتي أنني أحضِّر للآية التي سيفسرها من أكثر من تفسير لأستدرك عليه شيئًا فاته فإذا شرع بدرسه تبخر كل شيء في جعبتي، لأنه يتناول الموضوع تناول الخاصة من العلماء الذين جمعوا بين الحفظ والذكر. فكانت مادته دسمة، وكان قديرًا على التوصيل لأنه كان جذابًا ومغريًا، وما سمعت منه قط كلمة مؤذية ولكنه كان

يفرض هيبته. واحترام الطلاب له تلقائيًا وبشكل عجيب.

وانتهيت من المعهد بدرجة مقبول، وكانت هذه الدرجة إنقاذًا منه لي وقد صرح أمام لجنة المناقشة أن انتشالي تقديرًا لي وليس لبحثي.

إذن لم أنل من عبد الرزاق شهادة علمية، وإنما فزت منه بمنهج تربوي تعليمي كريم، فعندما تأزمت لشيخي البحيري رَحِمَهُ اللهُ، وتولى الإشراف عليَّ فترة قليلة ريثما أعادني إلى مشرفي الأول تخلقت منه بخلق علمي، فكنت ألخص أقوال بعض العلماء بفهمي وأسلوبي فيطالبني بالتنصيص ثم يستعيد النص مني مرارًا حتى يبين لي أن ما فهمته ولخصته كان فهمًا خاطئًا.

وأحيانًا أنقل نقلًا عن عالم ثم أحيل إلى أقوال آخرين ظانًّا أن كلامهم كان واحدًا فيطالبني بالتنصيص ثم يظهر لي فروقًا دقيقة يتضح بها أن كلامهم مختلف وليس واحدًا أ هـ.

صبر جميل

١- يقول الشيخ محمد لطفي الصباغ:

وكان صابرًا. . نزلت به كوارث شديدة فلم تضعضعه ولم تخرجه عن اتزانه وخلقه

● فقد أصيب في عام ١٣٧٦ هـ بشلل نصفي وعافاه الله منه، وأصيب بعدد من الأمراض كان فيها نعم العبد الصابر، وقتل ولده الكبير أحمد عاصم رَحِمَهُ اللهُ في حرب رمضان ١٩٧٣ م، التي قامت بين اليهود ومصر، فتلقى الخبر صابرًا محتسبًا وكان في مجلسه يحمد الله، ويحدث الحاضرين، وإذا غلط أحد المعزين في قول يجاوز به الحدَّ الشرعي أنكر عليه ذلك وردَّه إلى الحق.

● ثم توفي ولده الأصغر عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ فكان كذلك في غاية الصبر والرضى بقضاء الله وقدره.

● ثم توفي ابنه عبد الله ٣٠/٦/١٤٠٣هـ فجأة في جدة، فكان أيضًا مثلًا في الصبر والاحتساب والتسليم.

● وقد سافرت زوجته مرة إلى مصر وعندما أرادت أن تعود إلى الرياض إلى زوجها وأولادها منعت من العودة مدة طويلة، لمضايقة الشيخ وإيذائه، فصبر وصابر حتى أذن الله بالفرج وعادت إلى بيتها.

● ومنذ فترة طويلة وهو مبتلى بأمراض عدة كالتهاب المسالك البولية، وتعطل إحدى الكليتين، وضعف الأخرى، والضغط والسكر، ومع ذلك نراه صابرًا محتسبًا، ولم يثنه ذلك عن طلب العلم، وتعليمه، والعناية به، وإفادة الناس وتوجيههم وإرشادهم إلى آخر أيام حياته.

٢- ويقول الدكتور صالح بن سعود آل علي:

وقبل وفاته رَحِمَهُ اللَّهُ كان مبتلى، ابتلاه الله سبحانه بمصائب ولكنه كان الصابر المحتسب، فإضافة إلى الأمراض التي عرضت له في العقد الأخير من عمره أصيب بثلاثة من أبنائه، وهم في ريعان الشباب: عبد الرحمن الذي كان يلازمه في شيخوخته كظله يخدمه ويساعده إذ به يفاجأ بوفاته بسبب انفجار أسطوانة غاز. وعبد الله بسكتة قلبية، ومن قبلهما أحمد أكبر أبنائه الذي جاءه نعيه قتيلًا في حرب الدبابات مع إسرائيل في سيناء عام ١٩٧٣م.

● ومما يلفت النظر في جلد هذا الشيخ وصبره أنه لما جاء خبر وفاة ابنه أحمد وهو مدير ومحاضر في المعهد العالي للقضاء لم يتوقف عن برنامجه

اليومي، فقد جاء إلى طلابه في مرحلة الماجستير وكنت واحدًا منهم وألقى المحاضرة كالعهد به دون أثر أو تلعثم، وكانت من بعد العصر إلى المغرب، وكان الطلاب كعادتهم بعد أن ينتهي من المحاضرة يوجهون الأسئلة واحدًا تلو الآخر، وإذا به يجيب عنها دون أن يظهر عليه ما يلفت النظر. وبعد انتهاء المحاضرة خرج من القاعة ونحن وراءه، وإذا بنا نحن الطلاب نفاجأ بطابور من الأساتذة وطلاب آخرين يقابلونه ويقبلونه معزين بوفاة ابنه. ولا تسأل عن ذهولنا نحن ليس من الوفاة، ولكن لأن الشيخ لم يترك المحاضرة، لا بل لأنه لم يخبرنا، ولم يظهر عليه أي أثر للصدمة. فأقبلنا عليه مع غيرنا مواسين ومعزين فرحمه الله وغفر له.

طرائف

يقول أحد طلبته:

كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمزح ولا يقول إلا صدقًا كما كان هدي النبي ﷺ فكان يحب التعبير الطريف الصادق، وكثيرًا ما يروي بعض المواقف التي يتعجب لها مما مر به في عمره الطويل المبارك، فمن ذلك أنه حدثني أن أحد زملائه المدرسين في المعهد كان كثير المزاح فجاء يومًا وقال لهم لقد جئت اليوم على سيارة فيها «ألف تيسٍ» فتعجبوا من ذلك إلى أن تبين أنه يقصد «الفتيس» وهو العصا التي تنقل الحركة من السرعة الأولى إلى الرابعة أو الخامسة بالسيارات.

٢- **وسئل الشيخ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن رجل رضع من امرأته بعد زواجه عددًا من الرضعات فقال لا تحرم عليه، ولو تغذى على لبنها إلى أن يموت لأنه ليس في الحولين.

٣- وسئل عن امرأة مسنة بقي من عدة وفاتها خمسة أيام وتريد أن تخرج للحج فقال لا يجوز ولو كان عمرها عمر نوح عليه السلام.

٤- ويقول الشيخ عبد الله الحكمي:

وكان رَحِمَهُ اللهُ يقول في وصف تغير العصر وانقلاب المفاهيم «بعض الناس الآن كنبت البصل رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى».

٥- وسمعت منه كلامًا في عدم الجهل بما يحل ويحرم، وأن الإنسان يعرف ذلك غالبًا من نفسه قال: «حتى الحيوان قد يدرك ذلك؛ ألا ترى الهرة إذا ناولتها قطعة اللحم أكلتها وهي بجوارك آمنة، وإذا غافلتك وخطفتها من غير رضى منك هربت بها بعيدًا عنك».

بصيرة ناقدة

يقول الشيخ محمد بن سعد الشويعر:

استفدت منه رَحِمَهُ اللهُ الشيء الكثير وطلابه أكثر مني فائدة، ومما علق بذهني من أقواله عن الشباب الإسلامي، وحماستهم بعد اليقظة، وتعدد الداخلين في دين الله في كل مكان، وما يأتي من أخبار ويسمع من كلام: يا بني إنني أخشى على هؤلاء من تعجلهم، فهم كمن يريد أن يبني بيتًا من أعلاه، دون الاهتمام بالأساس. إن أساس المسلم عقيدته، فيجب بناء العقيدة والحرص على تطبيقها لترسخ، قبل الفكر والعمل.. ثم ضرب لي مثلًا فقال: إن رسول الله ﷺ جلس في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى كلمة التوحيد وتحقيق معناها، والعمل بمقتضاها، وهي أكثر من النصف لمدة مكثه في الدعوة، ولما هاجر للمدينة، وصار معه قوم مدركون لمقتضى: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، بدأت الشرائع

العملية تتتابع ومنها الجهاد. . فأظهر الله دينه، وهذا يدل على حرصه ﷺ على العقيدة الصحيحة والتشبع بها عملًا، لأنها إذا صلحت صلحت الأمور، وإذا فسدت فسدت الأمور. . كما كان يؤكد أهمية السمع والطاعة لولاة الأمور، لأن أحوال الرعية لا تستقيم إلا بذلك ويضرب نماذج لذلك، بكثير من البلاد التي فسدت الأحوال فيها، بالخروج على ولاة الأمور.

هم المناظر

يقول الشيخ حسن إسماعيل أحد طلبة الشيخ:

إذا ناظرت فليكن همك تحرير عقيدة خصمك. وزلزلة أركان باطله بقذائف الحق، ثم انزح ردوم الباطل ووال فؤاده حتى يتطهر، فإذا تطهر فغذه بحلاوة الحق.

قصة داعية

مر فضيلة الشيخ برجل يبني بيتًا كبيرًا وفي أول دور، فقال له شيخنا بعد أن بدأه محييًا بالسلام: هل لك شريك في هذا العمل يقصد - بناء البيت - فقال الرجل: هو لي وحدي ورثت الأرض عن أبي وأقوم الآن بالبناء، فرد عليه الشيخ: هل تسمح لنا بتأجير الدور الأرضي لنتخذه مسجدًا على أن نعطيك ما تشاء، فقال الرجل وكان كبير السن وقورًا: أنا لا أمانع في ذلك أبدًا وبدون أجر البتة بل وسأرعى هذا بنفسي، وكان الرجل يدعى الحاج عبده، وكان رجلًا فاضلًا، ولقد صدق الحاج عبده فأكمل البناء وأدخل الماء والكهرباء وبنى المسجد وهيأه بكل ما يلزم للمصلين وجعل دورة

المياه مناسبة، وفي يوم من الأيام والشيخ يمر كعادته مستفسرًا ماذا تمَّ؟ إذ بالحاج عبده يخرج المفتاح ويقول: ألف مبروك ادع الله أن يتقبل مني هذا العمل، فدعا له الشيخ ولما حضرنا كرر فضيلة الشيخ الدعاء مرة ثانية وقال لنا: قولوا آمين، فأمنا على دعاء فضيلة الشيخ الذي كان ينظر إلى الحاج عبده وهو يبتسم فرحًا بهذا الجهد الذي بذله، وفي اليوم الثاني افتتح الشيخ المسجد بصلاة العصر وكان هذا المسجد أقرب المساجد من ورشة أبي، فسهل لي الذهاب والإياب، وبعد انتهاء صلاة العصر الأولى بالمسجد، أخذ فضيلة الشيخ يقص علينا القصص ومما قصه علينا إسلام سلمان الفارسي وجعلها نبراسًا لنا يضيء الطريق، وفي هذا اليوم ختم الدرس قائلًا استمعتم إلى قصة سلمان الفارسي الذي كان صغيرًا ولم يقتنع بما يعبد أبواه، إذ كانوا من المجوس يعبدون النار، فقال الشيخ: أنتم أسعد حظًّا من هذا وهو غلام، وقال لنا: ولدتم على الإسلام وتربيتم على الإسلام والآن تدرسون الإسلام، فما مدى هذه السعادة التي أعطاكم الله إياها، ألا تحسون من قولي هذا أنكم محظوظون في جميع أطوار حياتكم، إذًا فلا بد أن تكرسوها للدعوة إلى عبادة من وهبكم كل هذه النعم، وفي هذا الأسبوع الذي افتتح فيه المسجد، جاء من القاهرة خبر أثلج صدورنا وزاد من فرحتنا، وذلك أن اللجنة المركزية لجماعة أنصار السنة المحمدية اجتمعت بالقاهرة واختارت بالإجماع فضيلة الشيخ الفاضل عبد الرزاق رئيسًا لجماعة أنصار السنة المحمدية بالقطر المصري، وتوافدت الوفود على مدينة الإسكندرية، تهنئ شيخنا الجليل بهذا المنصب المحبب إلى نفوسنا جميعًا، وسرّنا جميعًا أن هذا الاختيار قد جاء بإجماع الأصوات، وكانت الوفود القادمة من أنحاء القطر المصري تحمل الهدايا لفضيلة الشيخ الذي كان بدوره يقوم بتوزيعها على مستحقيها.

وفي يوم من الأيام وبعد أن أذن لصلاة العصر أتى إلى المسجد أحد الرجال الذين نعرفهم، ونعرف تاريخهم الأسود، وقال: إذا لم تؤذنوا كما نؤذن أغلقت عليكم المسجد وأنتم تصلون، فرد عليه الحاج عبده قائلًا: انتظر حتى يأتي الشيخ وقل له هذا الكلام، فقال: لن أنتظر ولكني سأحضر في صلاة العشاء، وكان المعروف عن هذا الرجل أنه كان صاحب مقهى وصاحب عصابة تجلس على المقهى وهم من الرجال الذين اعتادوا الإجرام، وما قاله له الحاج عبده يعتبر شجاعة نادرة وبعد قليل حضر فضيلة الشيخ وصلى بنا العصر، وبعد التسليم مباشرة أخبره الحاج عبده بما حدث، وانصرفت إلى ورشة أبي وأخذت أعمل كعادتي وإذ بالشيخ ومعه أربعة من الجماعة يذهبون إلى المقهى، فيجدون ذلك الرجل ويسلمون عليه ويجلسون معه ويتحدث إليه فضيلة الشيخ وأنا أراقبه من بعد، وصمم الشيخ أن يدفع ثمن المشروب الذي قدم إليه واستمر الشيخ في حديثه وأنا أراقبه من بعيد وأطلب من الله تبارك وتعالى السلامة لفضيلة الشيخ والأخوة الأربعة، ومرت عشرون دقيقة وكأنها ساعات طوال وقاموا جميعًا وانصرفوا، وفرحنا بأنها مرت والحمد لله بسلام وعدت إلى العمل لأجد أبي في انتظاري فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بما حدث فدعا للشيخ ما شاء الله له أن يدعو، وجاء وقت المغرب وسمعت الأذان، ولكن في هذه المرة لم أستطع التعرف على المؤذن، فقلت في نفسي: من أين جاءوا بهذا المؤذن الجديد، فأسرعت الخطى حتى لحقته بالمسجد وهو يؤذن وكانت دهشتي عظيمة إذ أن الذي يؤذن الآن هو ذلك الرجل الذي كان يريد أن يغلق المسجد في صلاة العصر فسبحان مغير الأحوال، ودخلنا جميعًا إلى المسجد وصلى بنا فضيلة الشيخ الفريضة، وكان من عادته أن يلقي درسًا من المغرب إلى العشاء، فجعل هذا الدرس عن صاحبنا الذي جلس ليستمع، وعندما بدأ فضيلته الكلام قال: إن

الهداية من الله تبارك وتعالى، وأن الله إذا أراد أن يهدي رجلًا أرسل إليه من يكون سببًا في هدايته، ولذلك كان علينا جميعًا أن نعيش دروس الهداية ولا نقصر في الحضور حتى نخرج جميعًا إلى الناس ونحن على مستوى الدعوة، ولهذا أجلس إليكم لنتعرف على الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله، وهي أمر واجب على كل داعية، فإذا كانت أنصار السنة لا يتمسكون بهذا الأمر فأين هي السنة.

❁ ❁ ❁

[انظر: «الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي حياته العلمية، وجهوده الدعوية، وآثاره الحميدة» لمحمد بن أحمد سيد أحمد]

❁ ❁ ❁

الشيخ العلامة أحمد بن عيسى النجدي

ثمار الدعوة

قام الشيخ عبد القادر مصطفى التلمساني مع الشيخ محمد نصيف بنشر العقيدة السلفية في بلاد الحجاز منذ كانت ترزخ تحت نير الحكم العثماني باذلين كل غالٍ ونفيس في ذلك، ولعل كثيرًا من الناس لا يعلم أن الشيخ عبد القادر التلمساني المصلح السلفي العظيم كان أشعريًّا محترقًا وكان للشيخ **أحمد بن عيسى النجدي** بعد توفيق الله يد عظيمة في انتقاله للسلفية الحقة ولذلك خبر يروى ولا يطوى: كان الشيخ أحمد تاجرًا، وكان يشتري بضاعته من الأقمشة من الشيخ عبد القادر التلمساني الذي كان أحد مشاهير تجارة جدة وقتها وكانت المبالغ التي يتبايعون بها ضخمة جدًّا، وكان الشيخ أحمد يدفع بطريق التقسيط ولم يُعْلَم عنه على طول مدة المعاملة مماطلة في أداء حق أوتوان في دفع مال وفي يوم مشهود.

قال له عبد القادر التلمساني للشيخ أحمد بن عيسى: إني عاملت الناس أكثر من أربعين عامًا، فما وجدت أحسن من التعامل معك يا وهّابي، فيظهر أن ما يشاع عنكم يا أهل نجد مبالغٌ فيه من خصومكم السياسيين!!

فسأله الشيخ أحمد أن يبين له هذه الشائعات، فقال: إنهم يقولون إنكم لا تصلون على النبي ﷺ ولا تحبونه.

فأجابه الشيخ أحمد بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾، إن عقيدتنا ومذهبنا أن من لم يُصَلِ على النبي ﷺ في التشهد الأخير فصلاته

باطلة، ومن لا يحبه فهو كافر.. وإنما الذي ننكره نحن أهل نجد هو الغلو الذي نهى النبي ﷺ عنه، كما ننكر الاستعانة والاستغاثة بالأموات، ونصرف ذلك لله وحده.

يقول الشيخ عبد القادر: فاستمر النقاش بيني وبينه في توحيد العبادة ثلاثة أيام حتى شرح الله صدري للعقيدة السلفية.

وأما توحيد الأسماء والصفات الذي قرأته في الجامع الأزهر فهو عقيدة الأشاعرة، وكتب الكلام مثل «السنوسية» و«أم البراهين»، و«شرح الجوهرة» وغيرها.

فلهذا دام النقاش بيني وبين ابن عيسى خمسة عشر يومًا بعدها اعتنقت مذهب السلف، وصرت آخذ التوحيد من منابعه الأصلية: الكتاب والسنة، وأتباعهما من كتب السلف؛ فعلمتُ أن **مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم** بفضل الله تعالى ثم بحكمه وعلم الشيخ أحمد بن عيسى.

يقول الشيخ محمد نصيف: «فهداني الله إلى عقيدة السلف بواسطة الشيخ عبد القادر التلمساني؛ فالحمد لله على توفيقه».

فأخذ الشيخ عبد القادر والشيخ محمد نصيف ينشران عقيدة السلف، ويطبعان الكتب السلفية الكثيرة في جدة، وكان في بيت الشيخ محمد نصيف لقاء أسبوعي يجتمع في كافة طبقات الناس، ويتعلمون العقيدة السلفية.

وكان من شدة حرص الشيخ أحمد على هذين التلميذين الوفيين أنه كان يزورهما كل أسبوعين؛ فإذا جاء كان المقدم في الاجتماع فيتكلم بما فتح الله عليه، فيسرد ما شاء الله من الآيات والأحاديث وأقوال السلف في نشر الاعتقاد الصحيح.

فبالله عليك تأمل كيف هدى الله على يد هذا المصلح العظيم هذين الرجلين الذين كان لهما أعظم الأثر في نشر عقيدة السلف في مطلع القرن الماضي.

حكمة وفطانة

ذكر صاحب «تذكرة أولي النهى والعرفان»: أن الشيخ أحمد بن عيسى جاء إلى الصوفية وهم في الحرم يرددون: هو هو.. فنصحهم وأثقل عليهم.. فشكوه إلى الشريف عون قائلين: الوهابي يريد أن يفسد ديننا ويتدخل في كل شيء ونحن نذكر الله لا نذكر غيره. فأوغروا صدر الشريف عليه. وعندما جاء إليه كعادته تكلم عليه وعتب عليه هذا العمل.. فسكت الشيخ أحمد قليلًا ثم قال له: لو أن مجموعة من أصحابك هؤلاء صاروا ينادونك بـ «سيدي عو سيدي عو» فماذا تقول لهم؟

قال: أجازيهم وأضربهم.

قال: ولماذا؟

قال: لأن «عو» ليس اسمي، إذ اسمي «عون».

قال: فهل «هو» من أسماء الله تبارك وتعالى؟

عندها أدرك عون ذلك وأمر بمنعهم.

[انظر: مقدمة الشيخ عبد العزيز الجبرين لتحقيق كتاب «تشنيف الأسماع» للمترجم طبعة دار الصميعي].

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

ترجمته في سطور

١- هو العلامة الفقيه الأصولي المفسر المحقق صاحب الأخلاق الفاضلة والمناقب الحميدة الشيخ/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي التميمي.

٢- نسبه:

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم.

٣- مولده:

ولد في بلدة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفيت أمه وله أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين، فتربى يتيمًا وكفلته زوجة والده رحمها الله حتى شبَّ، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر فقام على رعايته، ونشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار، وحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشرة سنة.

٤- طلبه للعلم ومشايخه:

ثم اشتغل في التعلم على علماء بلده، وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجَدَّ حتى نال الحظ الأوفر من كل فن من فنون العلم، ولما بلغ من

العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتدريس، فكان يتعلم ويُعلم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك.

أخذ العلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن:

١- الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر توفي في الكويت سنة (١٣٣٨هـ).

٢- الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، قرأ عليه في الفقه، وعلوم العربية وغيرهما، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عنيزة عام (١٣٤٣هـ).

٣- الشيخ صالح بن عثمان القاضي، قرأ عليه في التوحيد والتفسير، والفقه أصوله وفروعه، وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام (١٣٥١هـ).

٤- الشيخ عبد الله بن عايض الحربي. ت (١٣٢٢هـ).

٥- الشيخ صعب بن عبد الله التويجري. ت (١٢٥٣هـ).

٦- الشيخ علي بن محمد السناني. ت (١٣٣٩هـ).

٧- الشيخ علي الناصر أبو وادي، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عن الأمهات الست وغيرها، وأجازه في ذلك ت (١٣٦١هـ).

٨- الشيخ محمد ابن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع، توفي سنة (١٣٨٥هـ).

٩- الشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي نزيل الحجاز قديمًا، ثم الزبير لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس، قرأ عليه المؤلف في التفسير، والحديث، ومصطلح الحديث، وعلوم العربية كالنحو والصرف ونحوهما، ت (١٣٥١هـ).

٥- مكانته العلمية:

كان ذا معرفة تامة في علوم الشريعة، وخصوصًا في الفقه، أصوله وفروعه.

وكان من أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وحصل له خير كثير بسببها في علم التوحيد، والتفسير، والفقه وغيرها من العلوم، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار يرجح ما ترجح عنده بالدليل الشرعي.

٦- تلاميذه:

فأما تلاميذه فكثيرون أذكر منهم:

١- الشيخ سليمان بن إبراهيم البسام ت (١٣٧٧هـ).

٢- الشيخ عبد الله بن عبد العزيز المطوع ت (١٣٥٤هـ).

٣- الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين.

٤- الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل.

٥- الشيخ علي بن حمد الصالحي.

٦- الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن صالح البسام.

٧- الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان.

٧- مؤلفاته:

ألف الشيخ رحمه الله العديد من الكتب والرسائل والفتاوى، ومن هذه المؤلفات:

١- تفسير القرآن الكريم المسمى «تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن» في خمس مجلدات، وقد أكمل تأليفه عام (١٣٤٤هـ) مطبوع.

٢- «حاشية على الفقه» استدراكًا على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي مطبوع.

٣- «إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب»، رتبه على السؤال والجواب، طبع مرارًا، وقد أعيد طبعه أيضًا تحت عنوان «الإرشاد إلى معرفة الأحكام».

٤- «الدرة المختصرة في محاسن الإسلام» مطبوع.

٥- «الخطب العصرية القيمة» مطبوع.

٦- «القواعد الحسان لتفسير القرآن» مطبوع.

٧- « تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله».

٨- «الحق الواضح المبين، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين» مطبوع.

٩- «توضيح الكافية الشافية»، وهو كالشرح لنونية الشيخ ابن القيم مطبوع.

١٠- «وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني».

١١- «القول السديد في مقاصد التوحيد» مطبوع.

١٢- «مختصر في أصول الفقه» مطبوع.

١٣- «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» مطبوع.

١٤- «الرياض الناضرة».

٩- وفاته:

وبعد عمر دام قرابة ٦٩ عامًا في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربه فجر يوم الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦هـ بعد مرض لازمه قرابة خمس سنوات - وهو مرض ضغط الدم وضيق الشرايين- كان خلالها صابرًا محتسبًا، ودفن في مدينة «عنيزة» من بلاد القصيم رحمه الله رحمة واسعة. وصلي عليه بعد صلاة الظهر في الجامع الكبير، وكان الناس في حشد عظيم امتلأ الجامع بهم والشوارع المحيطة به. ولما علم الشيخ سليمان المشعلي بوفاته وكان عالمًا جليلًا قال: «مات اليوم عالم نجد وقد طاب الموت بعده».

٨- طريقته في التعليم:

كان رحمه الله حسن التعليم، فكانت طريقته مُثلى، يجمع الطلبة كلهم على كتابين، وبعد انتهاء القراءة والشرح يطلب من ثلاثة من الطلبة إعادة ما يستحضرونه من التقرير، ليختبر قوة حفظهم وفهمهم، ويمنح الجوائز على حفظ المتون وقوة الفهم، والجواب على أسئلته التي يطرحها عليهم، ويناقشهم بعد مضي يوم عما سبق شرحه، فهذه الطريقة تدفع الطلبة على الاهتمام بما يلقيه شيوخهم عليهم، وكان رحمه الله يتعمد أحيانًا حين طرحه الأسئلة على طلبته تغليط نفسه أمام الحلقة، ليرى من هو حاضر الذهن، لتقريره ممن هو شارد الذهن، ولمعرفة الطالب النجيب الفطن من ضده.

ويعقد المناظرات بين طلابه المحصلين لشحذ أفكارهم وصقل أذهانهم، وتدريب ألسنتهم، وتعويدهم إقامة الحجة والبرهان ويتشاور معهم في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويرجح ما تختاره الأكثرية منهم، أما إذا تساووا فيكون هو الحكم.

من صور أدبه العالي مع المخالف

أرسل الشيخ السعدي رسالة إلى تلميذه الشيخ عبد الله بن عقيل يقص عليه هذا الخبر، يقول رحمه الله:

من مدة شهر وصلني كتاب عبد العزيز السويح ينكر فيه ما ذكرته في باب حكم المرتد وتفصيلنا في أهل البدع ذلك التفصيل، وإنكاره في شدة عظيمة، فرددت كلامه بلطف وأحلته بهذا التفصيل على كلام الشيخ [يقصد شيخ الإسلام ابن تيمية] وابن القيم، ولم أناقشه في شدته ولا حاسبته على ألفاظه غير اللائقة، لأني ظهر لي أن البحث والتمادي معه ماله ثمرة ولا نتيجة.

ثم جاءني كتاب أشد من الأول، ويزعم أن هذا التفصيل مخالف لمذهب الأمة، وأنه باطل متناقض، وأننا أتينا بمنكرات وطامات... إلى آخر ما ذكر.

كلام يعجب الإنسان كيف يصدر ممن ينتسب للعلم من دون أن يعرف ما عند صاحبه، ومن دون أن نقابله.

لهذا ما أحببت أتمادى معه في البحث الطويل فتجد جواب خطه الأخير طي كتابك تشرف عليه، وترسله للمذكور، لأن الظاهر أنه إن شاء الله مهوب [ما هو بـ] كله هوى، لأني ما أعرفه ولا يعرفني، ولا جرى بيني وبينه قبل هذا أدنى مكاتبة، وإنما حمله على ذلك أنه انعقد في فكره هذا، الذي يراه في تكفير جميع الجهمية والمعتزلة من غير فرق بين المعاند وغيره، ولم يعرف كيف الطريق إلى إنكار ما اعتقده منكرًا، فجاء بهذه الطريقة التي ليس لها مقدمة، ولا جرى من صاحبه عناد يوجب له ما أوجب، نرجو الله يوفق الجميع لكل خير».

نصيحة مهمة لكل معلم يشتكي كسل طلبته

ويقول الشيخ في إحدى رسائله إلى الشيخ عبد الله بن عقيل:

الإخوة الطلبة على ترتيبهم السابق، الاستمرار حاصل والتجرد المطلوب ممن لا عذر لهم مفقود، ونرجو الله للجميع أن يسلك بنا وبكم أقرب الطرق الموصلة إلى ما يحبه ويرضاه، وأن ينمي الخير ويبارك في العمل.

ومن الأسباب المعوقة عن الإقبال بالكلية على العلم من بعض المحصلين اشتغال كثير منهم بالأسباب الدنيوية لأنها تأخذ جمهور وقت الإنسان، ولهذا نفرح منهم ونغتنم الاستمرار والتشمير ولو على وجه ضعيف، ومع ذلك فإننا إذا رأينا اشتغالهم الدنيوية في الوطن هان الأمر على الاشتغال بأوطان أخر تمنع الاشتغال بالعلم بالكلية، لأن الذي ينبغي: المجاراة على حسب الأصول وتشجيع كل أحد بحسبه وتيسير الأمور.

ولهذا في الأوقات يتعين على كل من عنده علم أن ينشر بحسب قدرته ويلقيه على الناس على اختلاف طبقاتهم من طلبة وعوام وخواص على قدر ما تسنح الفرصة، فلو أجرى أهل العلم هذا المجرى لحصل خير كثير، فما لا يدرك كله لا يترك كله.

ولا ينبغي لهم أن يملكهم اليأس ويعتذروا بكسل الناس، وليقتدوا بمعلم الخير وإمام الخلق صلوات الله وسلامه عليه، فإنه ما زال يدعو الخلق في جميع الأوقات، ويكرر الدعوة مع إعراض المدعوين ومعارضتهم، ويدعو إلى سبيل ربه بالتي هي أحسن، ولا يمل «ولا يسأم من» من الدعوة والتعليم، سواء وافق إقبالًا من الناس ونجاحًا،

أو صادف نفورًا وإعراضًا، هذا حاله مع الأعداء المكذبين.

فكيف لا يكون أهل العلم هكذا مع إخوانهم المسلمين، يساعدون مقبلهم، ويذكرون غافلهم، ويهدون جاهلهم، ويعرضون الخير على معرضهم ويعلمون أنه في الإمكان الجمع بين الدين والدنيا، فإنَّ الشارع مبعوث بصلاح الأمرين، بل كل منهما مفتقر إلى الآخر ؛ الدين والعلم وتوابع ذلك هو المقصود، والدنيا ومقاصدها [ ] ترتب على الوصل بينهما مصالح عظيمة، وكم فات بالفصل بينهما ومعاداة أحدهما للآخر مضار كثيرة، فنسأل الله تعالى أن يمن علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح آمين».

التثبت من الأخبار

ويقول الشيخ في إحدى رسائله إلى الشيخ عبد الله بن عقيل موضحًا إحدى الحوادث التي حدثت وبعث الشيخ ابن عقيل يتقصى أخبارها:

صورة الواقعة التي قدمت لها هذه المقدمة التي تعينك على فهمها، أن الدناصوري - كان على عادته في مسجد الصويطي - يلقي تفسير القرآن ويقرأ بابن كثير، وكان يوم ألحّوا عليه بذلك أهل الحارة، شاورني وشاور الشيخ وحسنا له ذلك، فتكلم على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ الآية، وحضر درسه بعض الناس، فنقل عنه أنه يقول إن الأحاديث آحاد لا تفيد اليقين، وأن القرآن ألفاظه قطعية ومعانيه ظنية، ولما قيل لي ذلك عرفت أن النقل محرف، وأنه حصل سوء فهم من السامع، لما أعرفه من الرجل من الحزم والاحتراز عن كل ما ينتقد، فقلت للناقل لابد أن تكون على

غير هذا الوضع، وعرفت أنه سيشاع ذلك من غير تثبت، فبادرتُ وذهبت بنفسي إلى الدناصوري مستفهمًا له عما وقع، فأخبرني أنه قال في تفسير هذه الآية: اختلف العلماء هل الأمر بالوصية للوجوب أو للاستحباب؟ وعلى القولين؛ فإن الآية الكريمة منسوخة بحديث **«لا وصية لوارث»** والحديث هذا من الآحاد، والآحاد لا تفيد اليقين، وقلت ما قاله غيري، فإن الحديث المذكور ليس في الصحيح، وإنما هو في السنن، ولا ريب أنه من الأحاديث الآحاد، لأن العلماء قسموا الأحاديث إلى متواتر يفيد اليقين، وإلى آحاد صحيح تلقته الأمة بالقبول واتفقوا على صحته، فهذا الخلاف في كونه يفيد اليقين معروف، والصواب الذي عليه المحققون أن هذا القسم يفيد اليقين، وكثير من العلماء يقول إنه يفيد العمل دون القطع واليقين، ولكنه ضعيف.

المقصود أن الذي يقول عني أني أقول أن الأحاديث كلها آحاد تفيد غلبة الظن، فهو كاذب علي، وأكذب منه من يقول عني أني أرى أن معاني القرآن لا تفيد اليقين، فأي مسلم يقول ذلك؟! وأنا مستعد لمقابلة كل من يقول عني ذلك. هذا حاصل ما جرى.

الذين غيري، فإنهم حين سمعوا من قال عنه القول الذي أشيع عنه، وهو باطل، كما يقول، وكما هو ظننا، فإنهم رفعوا الأمر إلى من لهم الأمر من غير تثبيت ولا تبصر ولا مفاهمة، فصار من ذلك أن من لهم الأمر لابدهم حتَّموا على ابن مانع في إزالته فحصل منه الإبراق المذكور.

أما أنا فقد بينت لكل من سألني عن القضية صورة الواقع، وأنه لا يحل الدخول في هذه الأحزاب الضارة، وبينت أن الواجب على الناس احترام مثال هؤلاء الذين لم نعثر منهم على ما ينتقد، وأنه لو فرض ذلك لوجب نصيحتهم سرًّا، ولم يحل السعي في السعايات الضارة التي تبرهن عن مقصود صاحبها، وتبرهن على أنَّ الذي همه السعايات بمثل هذه الأمور؛

أنه أجبن الناس عن النصيحة والمشافهات وأشجعهم في القول بما لا يعلم والسعايات».

❁ ❁ ❁

[انظر: «الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة» بعناية هيثم بن جواد الحداد (ص١١٦ - ١١٨)، (١٢٩ - ١٣٠)، (٢٤٨ - ٢٥٠) و«الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي مفسرًا» لعبد الله بن صالح الطيار (ص٤١)].

❁ ❁ ❁

الشيخ العلامة حافظ حكمي

وقائع تدل على سرعة حفظ الشيخ حافظ رَحِمَهُ الله للنصوص والبلاغة

ذكر وقائع تدل على سرعة حفظه للعلوم من أقرانه وكبار طلابه وصغارهم فمنها ما يلي:

١- حدثني الشيخ أحمد بن يحيي النجمي حفظه الله: أنه التقى بالشيخ حافظ رَحِمَهُ الله في صفر عام (١٣٦٠هـ) في مدرسة سامطة، وطلب الشيخ عبد الله القرعاوي من طلابه حفظ القرآن الكريم فكلف الشيخ أحمد نجمي أن يحفظ هو والشيخ حافظ، وبدأ الحفظ ففي اليوم الأول حفظ الشيخ حافظ الجزء الأول من القرآن الكريم وحفظ الشيخ أحمد الثمن الأول، وفي اليوم الثاني حفظ الشيخ حافظ الجزء الثاني إلى تلك الرسل وحفظ الشيخ أحمد الثمن الثاني، وفي اليوم الثالث أكمل الشيخ حافظ سورة البقرة وحفظ من سورة آل عمران إلى نهاية الجزء الثالث، وحفظ الشيخ أحمد الثمن الثالث ثم افترقا.

٢- حدثني الشيخ / عمر أحمد حسين جردي مدخلي أن الشيخ حافظ كان يحفظ في نهار رمضان جزءًا من القرآن الكريم، ويصلي بهم بذلك الجزء صلاة التراويح في عام (١٣٦١هـ) تقريبًا.

٣- وحدثني جابر بن ناصر مدخلي أنه سكن مع الشيخ حافظ في المدرسة عام (١٣٦٢هـ) وحرس له في كامل القرآن غيبًا، وكان يصلي بهم

صلاة التراويح ذلك العام بكامل القرآن في الشهر.

٤- حدثني الشيخ حسن بن زيد نجمي أنه قرأ في المدرسة مع زملائه على الشيخ حافظ، حيث أصبح هو المدرس لهم، ولم يمض على انتسابه إلى المدرسة سوى سنة واحدة وحدثه بنفسه فقال: من التحديث بنعمة الله أني أقرأ الموضوع فأحتاج إلى إعادته بعد عام فلا أرجع إلى الكتاب الذي هو فيه.

٥- حدثني جمع من طلابه أنه كان يملي عليهم الدروس من حفظه وما رؤي في المدرسة ولا في المعهد أثناء إلقاء الدرس وفي يده كتابه.

٦- حفظ الرحبية وشرحها في الفرائض في ثلاثة أيام، وقبلها حفظ لامية الأفعال، وكان يحفظ مع دروسه كل يوم ربع جزء من القرآن.

٧- كان الشيخ عبد الله يلقي الدرس على طلابه مرة واحدة فيعيده الشيخ حافظ ما يخرم حرفًا واحدًا، وربما زاد عليه.

٨- كان الطلاب يقرؤون على الشيخ في «صحيح البخاري» وغيره من الأمهات فيعيد ما قرؤا بالسند لا يخرم منه حرفًا ويعرف برجال السند واحدًا واحدًا من حفظه.

٩- نظم الكثير من كتبه في التوحيد والفقه وأصول الفقه والسيرة وغيرها من حفظه، ودليل ذلك أنه ينظم في اليوم الواحد أبياتًا كثيرة، فقد حدثني الشيخ محمد عقيل: أنه سأله كم بيتًا ينظم من السبل السوية كل يوم؟ فقال: ذلك يرجع إلى راحة نفسي. فقال له: حدثني عن ليلة ارتاحت نفسك فيها كم نظمت؟ فقال نظمت أربعمائة بيت.

وحدثني الشيخ علي بن قاسم الفيفي وهو أحد الطلاب الذين أقاموا مع الشيخ: أن الشيخ حافظ كان ينظم كل يوم من السبل السوية ست عشرة

صفحة ويسلمها إليه صباحًا ليقوم بنسخها، وفي كل صفحة ما يزيد عن عشرين بيتًا.

اهتمامه بطلابه

كان الشيخ يهتم بطلابه، وترى منه حرصه على مستقبلهم، وبخله بأوقاتهم أن تضيع في غير خدمة الإسلام والمسلمين، فهو يوجههم إلى الاستزادة من العلم وإصلاح أنفسهم، والحرص على نشر العلم بين المحتاجين إليه، ولم ينتظر تخريجهم، بل أبلغهم رغبة شيخه القرعاوي تدريسهم في مدارسه السلفية في العطلة الصيفية، وإسناد هذه المهمة إلى طلاب أعلاهم في السنة الثانية المتوسطة، يدل على نوعية المناهج التي يدرسونها، وقد سبق الحديث عن ذلك في أعمال الشيخ، وتم إيراد صور من الجدول الدراسي للسنة الأولى المتوسطة، وكان الشيخ ﷺ حريصًا على اختيار الطلاب النابهين للدراسة في المعهد، ويحرص على أن يكونوا من جميع أنحاء المنطقة من بيش وضمد وسامطة والحرث والعارضة وغيرها.

أرسل رسالة لمشرف مدارس الشيخ القرعاوي في بيت الشيخ الحسن ابن علي العكيري جاء فيها:

«أخي هذه المرة ما أرسلتم لنا طلاب للمعهد، فأنتم حال وصوله تلتمسون لو عشرة أو خمسة عشر من الراقين الذين لا يمكن ردهم».

وفي موقف آخر طبق النظام على أحد طلاب المعهد لقلة درجاته في مادة الحساب، فتوسط له الشيخ ناصر خلوفه ﷺ ليعاد للمعهد، فقال الشيخ حافظ للشيخ ناصر: نحن أحوج إلى الصدق، وما زال الشيخ ناصر يذكر هذا الموقف من الشيخ حافظ ويجلّه.

وكان الشيخ شديد الاهتمام بطلابه، فكان يمر عليهم فيحثهم على الصبر، وقد بنى لهم رباطًا شق المعهد في سامطة، وكان يجالسهم ويقول لهم:

هذه ليست غُربة، إنما الغربة غربة الشيخ عبد الله القرعاوي في الهند حيث كان لا يعرف لغتهم. وقد كتب اختبار لطلابه في الحديث، وبعد إكمالهم الإجابة أخذ الدفاتر وبدأ في قراءة إجاباتهم، فوجدها قاصرة، فأغلق الدفاتر وبقي يبكي ويقول: «يا ضياع العلم».

وكان الشيخ يطوف على طلابه ليلًا، يحدثني الشيخ محمد بن ناصر الحازمي أنه كان يذاكر مع بعض زملائه في مادة «أدب السلوك» في مسجد، وقرابة منتصف الليل ما أحسوا إلا والشيخ حافظ جالس معهم، فانتقلوا من ذلك المسجد، فلحق بهم مرة أخرى.

ويحدثني الشيخ عبده عبد الله سهلي رئيس هيئات منطقة جيزان حاليًا، أنه كان ينام في المسجد مع بعض الطلاب الغرباء في سامطة، فكان الشيخ حافظ يوقد سراجه، ثم يمر على المساجد لتفقد حال تلاميذه، فمر به وفي رقبته دملة آذته، فرقاه الشيخ حافظ وفي الصباح سال دمها وشفيت بحمد الله.

وهذا الموقف حببت الشيخ إلى طلابه، فكانوا طوع أمره حيثما ما وجههم، ومن هنا كان لتدريس الشيخ وأسلوبه في التدريس الأثر الواضح في نشر عقيدة التوحيد في سائر أرجاء منطقة جيزان، بل في البلدان المجاورة من اليمن، حيث كان يدرس على يد الشيخ حافظ عدد من أبناء اليمن في المدرسة السلفية، ثم في المعهد، ويعدون بعد ذلك لتعليم مواطنيهم.

وكان الشيخ حافظ حريصًا على استزادة طلابه من العلم، فكان يوزع

عليهم الكتب إهداءً لهم، ويحثهم على دراسته، ثم يسأل ماذا حفظت من الكتاب الذي أعطيتك؟

ولم ينقطع الشيخ عن مدارس شيخه السلفية، بل بقي مشرفًا على مدارس الشيخ في منطقة جيزان حتى تُوفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

جهود الشيخ من خلال مناظراته

لقد كان الشيخ قوي الحجة، وما ذلك إلا بتوفيق الله سبحانه وتعالى، ثم بحفظ الأدلة الشرعية من كتاب وسنة وفهمها، وقد كان يحذر من المناظرة بغير علم يقول في المنظومة الميمية مخاطبًا طالب العلم:

والنية اجعل لوجه الله خالصة ... إن البناء بغير الأصل لم يقم
ومن يكن ليقول الناس يطلبه ... أخسر بصفقته في موقف الندم
ومن به يبتغي الدنيا فليس له ... يوم القيامة من حظ ولا قسم
إياك واحذر مماراة السفيه به ... كذا مباهات أهل العلم لا ترم
فإن أبغض كل الخلق أجمعهم ... إلى الإله ألد الناس في الخصم

وهذه الأبيات من الوضوح في العبارة بمكان، وكذلك نرى فيها الشيخ يهيب بطالب العلم إلى إخلاص النية في طلب العلم، ويحذر من فساد النية حين يطلب العلم لطلب مدح الناس، أو لغرض الدنيا، أو لمماراة السفهاء، أو مباهاة العلماء، ولا تخفى أدلة تحريم هذا النوع من الطلب.

وقد أهاب الشيخ بطلاب العلم إلى الاستزادة من طلب العلم، وخاصة علوم الدين لتكون سلاحًا يرد بها طالب العلم على كل مخالف لنصوص الكتاب والسنة، يقول الشيخ مخاطبًا طالب العلم أيضًا:

وبالمهم المهم ابدأ لتدركه ... وقدّم النص والأُراء فافتهم

قدم وجوبًا علوم الدين إن بها ... يبين نهج الهدى من موجب النعم
وكل كسر الفتى فالدين جابره ... والكسر في الدين صعب عليه ملتئم
دع عنك ما قاله العصري منتحلًا ... وبالعتيق تمسك قط واعتصم
ما العلم إلا كتاب الله أو أثر ... يجلو بنور هداه كل منبهم
ما ثم علم سوى الوحي المبين وما ... منه استمد ألا طوبى لمغتنم

ويواصل الشيخ الحديث في أدب المناظرة، فبعد أن ذكر إخلاص النية في طلب العلم، وإعداد الطالب نفسه بالتزود بالعلم الشرعي من مصادره الأصلية، نبّه مَنْ أهله الله لذلك مِنْ عاقبة كتمان العلم والسكوت عن أهل المنكرات، مبينًا أجر مَنْ سعى لنشر العلم الشرعي، ووزر مَنْ كتم ذلك متعرضًا لفضل العلم، وأنه لا ينبغي أن يُبذل لمن لا يصونه، وفي هذا المعنى يقول:

والكتم للعلم فاحذر إن كاتمه ... في لعنة الله والأقوام كلهم
ومن عقوبته أن في المعادله ... من الجحيم لجامًا ليس كاللجم
وصائن العلم عمن ليس يحمله ... ماذا بكتمان بل صون فلا تلم
وإنما الكتم منع العلم طالبه ... من مستحق له فافهم ولا تهم

ولم يكن الشيخ حريصًا على المناظرة مخافة أن يطرأ عليه الإعجاب بالنفس، وإنما كان موقفه من المعارضين لأهل السنة الرد عليهم بالموعظة الحسنة، ولهذا اقتنع الكثير ممن كانوا يخالفون عقيدة أهل السنة والجماعة كبعض الزيدية الذين كانوا يفدون إلى سامطة، فقد كان الشيخ يبين لهم محاسن مذهب أهل السنة والجماعة حتى هدى الله الكثير منهم فعادوا دعاة إلى الله تعالى.

وفي إقامته بجيزان كان هناك عدد من الأشاعرة هداهم الله على يديه، وهناك مناظرات للشيخ مكتوبة، ولكنها لم تأخذ صفة المناظرة من انعقاد المجالس، بل كانت على سبيل الرد للاعتراض، وكما نجد ذلك واضحًا

في نصيحة الإخوان عن تعاطي القات والشمة والدخان، حيث نظمها الشيخ إجابة عن سؤال وجه إليه فرد عليها يحيى بن محمد بن المهدي نظمًا من شهر رجب عام (١٣٦٧هـ)، فرد عليه الشيخ نظمًا وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن مؤلفات الشيخ حافظ رَحِمَهُ اللَّهُ. وعندما ألف القصيمي كتابه المشئوم «الأغلال» رد الشيخ عليه بقصيدة اشتملت على حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبيان نصرة الله سبحانه لدينه، ثم عرض ما حصل من القصيمي من الإلحاد، وما قرأ من الرد عليه، وقد سبق إثبات هذه القصيدة كاملة في الحديث عن مؤلفات الشيخ.

وقد ذكر الشيخ ما يعانيه علماء السنة في عصره من اعتراضات مدعي التقدم، فقال في الجوهرة الفريدة بعنوان شكاية الحال إلى الكبير المُتعال:

يا رب يا حي يا قيوم يا صمد ... إليك يا رب أشكو ضيم ما أجد
إني بُليت بأهل الجهل في زمن ... قاموا به ورجال العلم قد قعدوا
من قائل في كتاب الله محتكم ... بـرأيـه دون آثـار بـه تـرد
وخابط في حديث المصطفى بهواه ... ما له في الذي يهواه مستند

إلى أن قال:

وآخرون فبالأموات قد هتفوا ... يرجون نجدتهم من بعد ما لحدوا
وكم نذورًا وقربانًا لها صرفوا ... ظلمًا ومن أنفس المنقوش كم نقدوا

إلى أن قال:

إن لم تكن هذه الأفعال يا علما ... شركًا فما الشرك قولي لي أو ابتعدوا
إن لم يكن هذا شركًا فليس على ... وجه البسيطة شرك قط ينتقد

ثم قال بعد أن ذكر تعلق جماعة من معاصريه بالحضارة الغربية وانصرافهم عن الكتاب والسنة، وقال ردًا على الطبائعين:

أو كالقصيمي في أغلال ردته ... أضحى لأصناف كل الشر يعتقد

يرى الطبيعة ربًّا خالقها ولها
محض التصرف في أحوال من وجدوا
لها الرسول يناجي في نبوته
وفي الوفاة إليها اشتاق يصطعد
وأن إيماننا بالله مشكله
ظلت إلى الآن لم يحلل لها عقد
بل ليس رب ولا وحي ولا ملك
كلا ولا برسول يطلب الرشد
ولا حساب به يجزى العباد ولا بعث
به يلتقي مع روحه الجسد
والخلق ما خلقوا إلا لعاجله
فرازق نفسه أو عاجز نكد
وأن في وسعه أن يرتقى لمقام الخالقيه
بالتدبير ينفرد
وغير ذلك من كفر حشاه به
تباله أيكل الكفر ينفرد

وقال في الرد عليه:

قد كان إبليس خيرًا منه معرفة
بالله إذ لوجود الله يعتقد
ومنه قد سأل الأنظار معترفًا
ببعثه الخلق للوقت الذي وعدوا
ثم المثلثة الرجز الأولى شتموا
ربي تعالى فقالوا إنه يلدوا
وقوم نوح وعاد مع ثمود ونمروذ
ومدين مع فرعون قد مردوا
على الجحود بحق الله جل وهم
مستيقنين وعدوا ناله جحدوا
وفي مواطن بالمولى قد اعترفوا
فهم أخف إذن منه وقد طردوا
يا أغفل الغفلا يا قائد الجهلا
يا ضحكة العقلا هل أنت متأد؟
هل أنت مدكر هل أنت مزدجر؟
هل أنت عن غضب الجبار مبتعد؟

وقد رد على الكثيرين غيره من أصحاب البدع والضلالات، وقد كانت مناظرات الشيخ لأهل الباطل تسجل لدى طلابه ويقومون بنشرها، ويتخذونها سلاحًا في الرد على أصحاب الأهواء، فإذا عرض مبتدع ما عنده قال تلميذ الشيخ هذا خلاف ما قال الشيخ، وجواب الشيخ هكذا.

[انظر: «الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي حياته ومنهجه في تقرير العقيدة» لأحمد بن علوش المدخلي].

العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز

الرد على المخالف

كيف لا وهو رأس الأئمة في هذا الزمان غيرة على حرمات الله، وإنكارًا للمنكرات، وردعًا للمعتدين، ونقدًا للمخطئين.

ولم يكن رَحِمَهُ ٱللَّهُ محصورًا بحدود مكان أو مكانة، فقد كانت غيرته من حيث المكان عامة لجميع أنحاء العالم غير محدودة بحدود هذه البلاد، فكان يكاتب ويهاتف ويراسل إلى جميع أنحاء المعمورة.

وأما من حيث المكانة، فلم يكن محدودًا بحدود العامة، بل يتعداه إلى جميع طبقات المجتمع من الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء والمشايخ والإعلاميين والعامة وغيرهم

وله في هذا مواقف علمية ومواقف كتابية لا يمكن حصرها، أو لا يناسب ذكرها، والظاهر المشهور منها يمكن أن يشار إليه، وهو ردوده على مجموعة من الكتاب في الصحافة، فقد تصدَّى الشيخ لمجموعة منهم، ومن هذه الردود:

١- رده على «محمد أمين يحيى» في مقاله الذي نشر في «صحيفة الأضواء» في عددها الصادر يوم الثلاثاء ١٦/ ٣/ ١٣٧٨ هـ عن المولد النبوي.

٢- رده على «صالح جمال» الذي نشر في جريدة «الندوة» مقالًا عن تعظيم الآثار والقبور وتقديسها في ٢٤/ ٥/ ١٣٨٧ هـ.

٣- ثم رد على «أبو الجدايل» و«عبد القدوس أبو صالح» في جريدة «المدينة» ٧/ ٤، ٢٢/ ١/ ١٤٠٢ هـ حين كتبوا تأييدًا لصالح جمال في تعظيم الآثار، وكان العلامة الشيخ الفقيه عبد الله بن محمد بن حميد، رئيس مجلس القضاء الأعلى وعضو هيئة كبار العلماء، قد رد عليهم.

٤- ورد على «مصطفى أمين» الذي نشر في جريدة «الندوة» ٢٤/ ٦/ ١٣٨٠ هـ مقالًا عن تعظيم آثار المدينة المنورة.

٥- ورد على «صالح جمال» في تعظيمه للمولد النبوي، وطعنه في إمام المسجد الحرام الشيخ الفاضل الدكتور عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله السديس، حفظه الله، الذي نشر في جريدة الندوة ٢/ ٤/ ١٤٠٥ هـ.

٦- ورد على محمد حسن فقي، في سباعيته المنظومة في الغلو في النبي ﷺ والاستغاثة به، المنشورة في جريدة «الرياض» ٧/ ٣/ ١٤٠٥ هـ.

٧- ورد على «خالد محمد محمد سليم» في غلوه في النبي ﷺ المنشور في «الشرق الأوسط» في ١١/ ٣/ ١٤٠٨ هـ، والرد منشور في ٢٠/ ٥/ ١٤٠٨ هـ.

٨- ورد على «سعد البواردي» في مطالبته بالاختلاط في الابتدائية في جريدة «الجزيرة» في ١٥/ ٤/ ١٤٠٣ هـ.

٩- ورد على «عبد العزيز المقالح» مدير جامعة صنعاء، في أمره بالاختلاط في الجامعة، المنشور في جريدة «السياسة» في ٢٤/ ٧/ ١٤٠٤ هـ، والرد على مجلة الإفتاء عدد (١٥) في جمادى الآخرة.

١٠- ورد على «حمد السعيدان» حيث كذب على الشيخ في إباحة حلق اللحية في جريدة «السياسة» الكويتية في ١٩/ ٨/ ١٤١٤ هـ وأغلظ الشيخ له القول جدًّا، مع التزام الدعاء له.

١١- ورد على «مشروع قانون الأحوال الشخصية» في الإمارات المنشور في جريدة «الرياض»، والرد المنشور في مجلة «الدعوة» ١٦/ ٣/ ١٤٠٢ هـ.

١٢- ورد على «خرافة الرجل الذي ادَّعى أنه دفن يوم الأربعاء، وهو حي، فخرج يوم الجمعة من قبره، فأخبر بالغرائب والخرافات» المنشور في «عكاظ» ٢٤/ ١٢/ ١٤٠٢ هـ والرد منشور في مجلة الدعوة ١٥/ ١/ ١٤٠٣ هـ.

١٣- ورد على د. «محمد على الصابوني» الذي نفث سموم أشعريته في مجلة «المجتمع الكويتية» المنشور في ٦/٧، ١٧/ ٩، ٢٤/ ٩، ٩، ١٠، ٢٣/ ١٠، عام ١٤٠٣ هـ، ١٧/ ٢ عام ١٤٠٤ هـ تأييدًا للشيخ الدكتور الفقيه صالح بن فوزان الفوزان وفقه الله وحفظه في الرد على الصابوني في مجلة الدعوة.

إجلال عجيب من عالم مبرز

يقول أحد طلبة الشيخ ابن باز: فقد كان للعلامة عبد الرزاق رَحِمَهُ اللهُ لا يذكر الشيخ الإمام ابن باز إلا تأثر من الثناء على خلقه وسلوكه وبكى بكاءً مرًّا، فكم رأيته ودموعه تتحدر على لحيته البيضاء العظيمة، وهو يقول: «الشيخ ابن باز عظيم الأمل والرجاء في صلاح الناس واستقامة الأمور، ليس لليأس إليه سبيل، هو دائمًا متفائل، وقلبه طيب».

وأذكر أنني زرته في مخيمه بمنى أيام الحج عام ١٤٠٣ هـ، وقلت لأصحابي المرافقين معي: سترون الشيخ عبد الرزاق وهو يبكي. وكانوا يتعجبون مما أقول، وكنت أريد لفت انتباههم إلى هذا الموقف العظيم وحفزهم إلى التطلع إليه، فلما سلمنا عليه يوم النحر، قلت له: يا شيخ

كيفكم، وكيف الشيخ عبد العزيز؟ فقال: بخير ولله الحمد، والشيخ عبد العزيز لا يُسأل عنه، ما شاء الله، ثم أخذ في الثناء عليه، حتى تحدرت دموعه رغم شدته وقوته، وهو يقول: ابن باز طراز غير علماء هذا الزمان، ابن باز من بقايا العلماء الأولين القدامى، في علمه وأخلاقه ونشاطه... ثم قطع كلامه بعبرة خنقته عن الإتمام.

من دعابات الألباني وابن باز رحمهما الله

ركب أحد طلبة العلم مع الشيخ الألباني رحمه الله في سيارته و كان الشيخ يسرع في السير.

فقال له الطالب: خفف يا شيخ فإن الشيخ ابن باز يرى أن تجاوز السرعة إلقاء بالنفس إلى التهلكة.

فقال الشيخ الألباني رحمه الله: هذه فتوى من لم يجرب فن القيادة.

فقال الطالب: هل أخبر الشيخ ابن باز؟

قال الألباني: أخبره.

فلما حدث الطالب الشيخ ابن باز رحمه الله بما قال الشيخ الألباني ضحك.

وقال: قل له هذه فتوى من لم يجرب دفع الديات.

روائع من صور حفظ الشيخ ابن باز رحمه الله

ومن حفظه رحمه الله أنه كان يحفظ الصحيحين، ذكر صاحب الإنجاز في ترجمة الإمام ابن باز: « وهو ممَّن منَّ الله عليه بحفظ الصحيحين

واستحضارهما، ولا يكاد يفوته من متونهما شيء؛ إلا اللهم أنه سُئِلَ مرة ونحن على طعام الغداء عنده، فقال السائل: هل تحفظ الصحيحين فأجاب قائلًا: نعم - ولله الحمد والمنة - إلا أن صحيح مسلم يحتاج إلى نظر وتربيط».

كذلك وذكر الشيخ عبدالعزيز السدحان في كتابه الإمام ابن باز نماذج كثيرة من حفظ الشيخ وضبطه - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

وأقتصر على خبر واحد - وذلك لطول الصفحات وكان بودي لو نقلتها كلها.

قال الشيخ السدحان: «ولقد ذكر الدكتور محمد الشويعر أثابه الله تعالى، أن الشيخ عبدالعزيز رَحِمَهُ اللَّهُ مرّ عليه حديث في إحدى الكلمات التي سمعها فطلب منه أن يبحث الحديث، وبعد البحث المضني لم يعثر عليه

فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: بعض المحدثين يضعون الحديث في غير مظنته ثم قال «أحضر كتاب الإيمان» للشيخ محمد بن عبدالوهاب، قال فأحضرته ثم قال: افتح صفحة كذا وحدد رقمها، ثم قال: اقرأ سطر ١٢ . قال فوقعت على الحديث بعينه. ثم قال انظر إلى الهامش فوجدت هامشا يحيل على سنن النسائي. ثم قال الشيخ: كتاب الإيمان آخر مرة قرأته منذ عامًا وحدد سماحته اسم القارئ عليه وهو صالح بن حسين» أ. هـ.

يسروا ولا تعسروا

قال الشيخُ عمرُ العيد حفظه الله سألتُ سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ قبل مايقارب ١٨ سنة عن دورات المياه وبرادات المساجد، وأن بعض

الكفار يستفيدون منها؟.

فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا بأس.

فقال الشيخ عمر: لكن هم كفار ياشيخ ويسرفون في الماء ويضيعونه!

فقال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لاتشدد لاتشدد.

يقول الشيخ عمر: فما نسيت هذه الفائدة.

أين منك حاتم؟

٢- ذكر الشيخ عمر العيد وفقه الله تعالى في محاضرة له بعنوان (ابن باز ومنهجه في الفتوى) ذكر أنه قدّر ماينفقه الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نفقات في سبيل الله تقدر بـ ٦٨٠٠٠٠٠٠ ثمان وستين مليون ريال سنويا، تزيد في سنة وتنقص في أخرى.

عجلّ بالنصيحة

٣- من شرح سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكتاب الجامع من بلوغ المرام كان هذا السؤال:

سماحة الشيخ: هل هذا الأسلوب خطأ؟

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما هو؟

قال السائل: أن يرى الرجلُ المنكرَ من جاره أو صاحبه في العمل، فيريد أن يكسب مودته (أولا)، ثم ينصحه [أي يباسطه ويؤانسه فإذا أحب الرجلُ المنصوح الرجلَ الناصح بذل له الناصحُ النصح والتوجيه حتى يكون أدعى

للقبول].

فقال رحمه الله: لا، ما يصلح [أي تركه وعدم نصحه]، ينكر عليه قبل [أي قبل المؤانسة والمباسطة - إذا كان المنكر قائمًا -]، متى ماسمع المنكر (ينكر) قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

* ثم قال رحمه الله:

وإن مات قبل ذلك؟! أ.هـ

أي وإن مات قبل أن تنصح له ماذا يكون الحال؟

تمسكه بالسنة

٣- ذكر الشيخ عبدالعزيز السدحان وفقه الله تعالى في كتابه: «الإمام ابن باز - دروس ومواقف وعبر» الموقف التالي:

حدثني الشيخ عبدالعزيز الداود (رئيس الحرس الخاص بسماحة الشيخ رحمه الله) فقال:

في زحمه الشيخ، وبعد الفراغ من المحاضرة ومع كثرة السائلين، وتوافد الناس عليه، تعمدت فوضعت نعله الشمال عند قدمه الشمال، قال: فبدأ يرفع قدمه اليمين يبحث عن نعله اليمين، قال: فوضعت الشمال مرة ثانية، فبحث الشيخ عن اليمين، وفي المرة الثالثة رأيت الشيخ يطأ النعل الشمال بشماله، ثم بحث عن النعل اليمين حتى يبتدأ بلبسها. رحمه الله.

وأخبرني ابنه أحمد في ذكر مرض الشيخ الأخير، فقال: كان رحمه الله إذا خلع الجورب الذي يرتديه، بدأ بالأيسر تطبيقا للسنة حتى في مرض الموت

رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكذلك رَحِمَهُ اللَّهُ كان يبدأ باليمين في لبس المشلح».

* في أحد الأيام - وإن كان فيه نوع من الفكاهة - قدم للشيخ كأس عصير، فشربه، فلما شربه أعطوه الكأس الثاني، قال الشيخ لا أجد له مسلكًا، فأصروا على الشيخ، فشربه، فلما شربه قال: صبّو ثالث.

* يريد أن يوتر حتى في شربه رَحِمَهُ اللَّهُ.

* وفي مرضه الذي مات فيه، إذا أرادوا أن يلبسوه الحذاء والجوارب، فإن غلطوا وألبسوه اليسار رفض وأبعد رجله، حتى يبدأوا باليمين.

عسى ما تأكل الناس

ومن مزاحه رَحِمَهُ اللَّهُ:

أن رجلا من أهل البادية جاء إلى الشيخ وسلّم عليه وقبل رأسه ويده وأنفه.

فقال له الشيخ: من؟.

فقال الرجل: ذيب بن فلان بن فلان.

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ (ممازحًا الرجل): ذيب؟!!، بسم الله، عسى ما تأكل الناس؟!.

فقال الرجل: أعوذ بالله ياشيخ، أعوذ بالله ياشيخ.

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: مادري عنك، اسمك ذيب.

وجاءه أخَوان، **فقال لهما الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: مَن؟.

فقال أحدهما: أنا اسمي ذيب، وقال الآخر: اسمي ذياب.

فقال الشيخ رحمه الله (ممازحًا لهم): الله يكفينا شركم.

غضبه لله عز وجل ولرسوله ﷺ

ذكر ذلك الشيخ عصام بن عبدالعزيز العويد في محاضرة له بعنوان: (من سير العظماء والصالحين).

٦- ذُكر للشيخ رحمه الله بعد الإنتهاء من الدرس أن أحد مدرسي الجامعة يقول: إن رسول الله ﷺ محدث وليس بفقيه، وكان من عادة الشيخ رحمه الله أن يجيب على بعض الأسئلة في طريقه إلى السيارة وبعد ركوبه فيها عبر النافذة، فعندما سمع هذا السؤال غضب رحمه الله غضبا شديدا، فتوقف.. ثم قال - وفي قوله حدة -: قل له: إنك كاااافر، ثم قال: قل له: أبشر بجهنم، ثم مشى ولم يَقْبل سؤالًا آخر.

غضبًا لرسول الله ﷺ. رحمه الله رحمة واسعة.

لا لتقاعد ولا أجازة

٧- سُئل سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله فقيل له: سمعنا أنك لم تأخذ يوما واحدا إجازة منذ سنة؟!.

فقال رحمه الله: منذ سنة لم آخذ يوما واحدا إجازة.

(وكان ذلك قبل وفاته رحمه الله بأربع سنوات، ومعلوم أن سماحته في عمل دؤوب حتى قبيل وفاته رحمه الله، أي أن الشيخ لم يأخذ إجازة منذ سنة من بداية عمله).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا مستحق للتقاعد منذ سنة، ولكن لحاجة المسلمين لن أتقاعد.

إنها مبشرات

وهذه بشرى من الرؤى التي رؤيت للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، نقلتها من منتدى المشكاة:

قال الشيخ: خالد بن عبد العزيز الهويسين حفظه الله «وهو من طلاب الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ» في درسه الاسبوعي في شرح كتاب اصول السنة للإمام احمد رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن تكلم عن صفات أهل النفاق كما ورد في المتن وفضيلة حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث خصه رسول الله ﷺ بأسماء المنافقين ورجح شيخنا أن عدد المنافقين الذين عرفهم حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حوالي ٢٠ منافقًا وأن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يرقب حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الصلاة على الجنازة فإن رآه خرج من المسجد ولم يصلي عليه خرج هو أيضًا رضي الله عنهم أجمعين.

قال شيخنا حفظه الله في نهاية هذا الفصل:

وقد حدثني أحد الثقات قال: رأيت حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورأيت ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ.

والشيخ ابن باز يسأل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أعدني رسول الله ﷺ في المنافقين؟ وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صامت لا يتكلم.

ثم أعاد الشيخ السؤال: أعدني رسول الله ﷺ في المنافقين؟ وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صامت لا يتكلم.

ثم أعاد الشيخ السؤال: أعدني رسول الله ﷺ في المنافقين؟ وحذيفة

رضي الله عنه صامت لا يتكلم.

في المرة الثالثة قال حذيفة رضي الله عنه للشيخ بن باز رحمه الله: بل عدك في الصّدّيقين.

قال شيخنا (خالد الهويسين) حفظه الله: وهذ مما يستانس به.

لا تعص الله ولو بخطوة

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يمش أحدكم في نعل واحدة، لينعلهما جميعًا، أو ليخلعهما جميعًا**» متفق عليه.

سُئل الإمام ابن باز رحمه الله عن هذا الحديث فقال: ظاهر النهي التحريم.

فقال السائل: قد تكون النعل في مكان والأخرى قريبة منها؟.

فقال رحمه الله: لا يلبسهما إلا جميعًا.

فقال السائل: ولو خطوة واحدة؟.

فقال رحمه الله: احرص على أن لا تعصي الله تعالى ولو بخطوة واحدة.

فتوى مهمة

سُئل رحمه الله في درسه في الجامع الكبير هذا السؤال:

سماحة الشيخ: بعض الإخوة يتأخرون في المسجد أو المصلى بعد أداء فريضة الظهر ويقرأون القرآن فما رأيكم؟

فقال رحمه الله: لا بأس أو قال: لا مانع.

فقال السائل: هذا الوقت مخصص للعمل!.

فقال رَحِمَهُ اللهُ: الموظف - غالبا - يضيع وقته بما لا يفيد، فيقرأ القرآن خير له.

ومن ذا الذي ما ساء قط؟

«الحافظ ابن حجر قد يخطئ في التصحيح أو التضعيف وإن كان قليلًا، وكذلك أخونا الشيخ ناصر الدين الألباني قد يخطيء في التصحيح و التضعيف، فينبغي لطالب العلم أن يكون عنده نشاط ويراجع طرق الحديث وكلام العلماء في الرجال.

حتى شيخ الإسلام ابن تيمية مع إمامته ينبغي لطالب العلم أن يكون عنده نشاط في البحث عما يصححه أو يضعفه أو ينقله حتى يتأكد ويكون على بصيرة.

الشيخ أحمد شاكر يتساهل في تصحيح الأحاديث، فالأحاديث التي في أسانيدها علي بن زيد بن جدعان وابن لهيعة يمشيها ويصححها مع أن هؤلاء ضعفاء عند الجمهور، فأحاديثهم ضعيفة عند الجمهور وهو الصواب، فينبغي لطالب العلم أن يكون على بصيرة.

ابن حبان والحاكم كل منهما متساهل في التصحيح، والحاكم أشد تساهلًا، وكذلك البزار وكذلك الهيثمي في مجمع الزوائد.

الحافظ في التقريب له أوهام فيما يوثق أو يضعف أو يوهم، ويعرف ذلك بمراجعة المطولات في الرجال كالتهذيب واللسان والميزان والخلاصة.

الترمذي يحسِّن حديث علي بن زيد جدعان مع أنه ضعيف عند الجمهور.

المقبول على قاعدة الحافظ ابن حجر - رحمه الله - هو الراوي الذي لم يجرح ووثقه واحد أو اثنان ممن يتساهل بالتوثيق كابن حبان فالحديث ضعيف بهذا السند، ويُقبل في المتابعات والشواهد، فإن جاء له طريق أخرى فإنه يكون حسنًا لغيره.» أهـ

المصدر: كتاب «تقييد الشوارد من القواعد والفوائد» (٣١٤ - ٣١٥) للشيخ عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي.

تقديم قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد

١- نشرت مجلة الدعوة فتوى لسماحة الشيخ، لكن وقع فيها خطأ، فقد صُدِّر الجواب بـ: أن في المذهب كذا وكذا [وهذه ليست من ألفاظ الشيخ]. فدعى الشيخ كاتب الفتوى، وقال له: اقرأ علي!

فقرأ عليه وإذا فيها: في المذهب كذا وكذا، قال الشيخ: نحن لا نقول جاء في المذهب كذا وكذا!! نحن نقول قال الله وقال رسوله ﷺ.

٢- قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله عند شرحه لكتاب الجامع من بلوغ المرام عند حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ... الحديث»**، رواه مسلم.

قال: إنه لا يجوز أن يُبدأ اليهود والنصارى بالسلام لصريح هذا الحديث.

فقال السائل: عفا الله عنك، يقول الشارح: حُكي عن بعض الشافعية أنه يجوز ابتداءهم بالسلام؟!.

فقال الشيخ رحمه الله [في قوله شئ من الحِدّة]: وإذا قالوا هم!، يُعتبر كلامهم مع كلام النبي ﷺ!!؟؟

ثم قال (متأسفا): لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اهدنا فيمن هديت.

فقال السائل: هل لهم دليل في هذا؟.

فقال رحمه الله: غلط، يمكن ما بلغتهم السّنة، يمكن ما بلغتهم، جهّال، ما بلغتهم السّنة.

فقال السائل: هذا روي عن ابن عباس رضي الله عنهما!.

فقال الشيخ رحمه الله: حتى وإن قالها أبو بكر، تعرف أبو بكر؟!.

ثم قال رحمه الله: فيه أحد يعدل النبي ﷺ؟!، أعوذ بالله.

٣- **سأله أحد طلبة العلم:** يا شيخ أنتم دائمًا تكثرون القراءة في كتب الحديث وتعتنون بالحديث، فقال رحمه الله: وهل العلم إلا الحديث! هل العلم إلا الحديث!! يا فلان التقليد ليس بعلم! التقليد ليس بعلم!!

٤- قرر الشيخ رحمه الله في الدرس نكاح الكتابيات بشرطه، فقال بعض الطلبة الذين في الدرس: يا شيخ بعض الصحابة كان ينهى عن ذلك!

فالتفت الشيخ إليه وقد احمرّ وجهه وقال: هل قول الصحابي يضاد الكتاب والسنة؟!! ليس لأحد قول بعد كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

٥- لما صنف أحدهم كتابًا عن إعفاء اللحية، وذكر فيه مذهب أبي هريرة ومذهب ابن عمر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم في جواز أخذ ما زاد عن القبضة.

فعلق عليه سماحة الإمام ـ رحمه الله ـ وقال: وإن كان هذا رأي لأبي هريرة وابن عمر إلا أن المقدم هو قول الله وقول رسوله وفعل رسول الله ﷺ، فلا قول لأبي هريرة و لابن عمر مع قول رسول الله ﷺ.

* هذا أيها الأحبة منهج ينبغي لطالب العلم أن يرتسمه، طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ هي النجاة، أما قول فلان وفلان. مهما كان. فحسب فلان وفلان أن يكون مجتهدا، لكن أن يقدم قوله على قول الله وقول رسوله فتلك طامة كبرى!!

* كما قال ابن عباس رضي الله عنه: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء! أقول لكم قال الله وقال رسوله، وتقولون قال أبو بكر وعمر! ومن الناس بعد أبي بكر وعمر!!

فهذا فيه لفتة نظر إلى كثير من طلبة العلم الذين ديدنهم قال فلان وقال علان والمذهب عندنا كذا، ولا ذكر لقول الله ولا لقول رسوله ﷺ في حديثه البتة.

الإنكار على من يمدحه وزجره والكتابة عنه أيضًا

١- الشاعر الدكتور الشيخ الفاضل/ محمد تقي الدين الهلالي ـ رحمه الله ـ. وهو من علمتم إمامته في هذا الفن، كتب قصيدة لا يمتدح فيها الشيخ فحسب، وإنما يمدح فيها آل باز عمومًا.

* كتب هذه القصيدة الطويلة، فلما اطلع الشيخ ـ رحمه الله ـ على القصيدة كتب ردًّا عليها فقال رحمه الله: (قد اطلعت على قصيدة نشرت في العدد التاسع

من مجلة الجامعة الإسلامية في الهند لفضيلة الدكتور تقي الدين الهلالي، وقد كدّرتني كثيرًا، وأسفت أن تصدر من مثله، وذلك لما تضمنته من الغلو في المدح لي ولعموم قبيلتي، . . إلى أن قال رحمه الله: وإنني أنصح فضيلته من العود إلى مثل ذلك وأن يستغفر الله مما صدر منه). . . إلى آخر كلامه رحمه الله.

* فتأمل - يا رعاك الله - كيف أن الشيخ أنكر على مادحه، ثم مع إنكاره لمادحه توّج هذا الإنكار بالتلطف، فقال عن المادح وهو يرد عليه: لفضيلة الدكتور تقي الدين الهلالي، ثم قال: وإني لأنصح فضيلته.

٢- كتب أحد طلبة العلم قصيدة في مدح هذا الإمام، فلما قرأها الأخ: فهد البكران «من مجلة الدعوة» على فضيلة الشيخ، قال الشيخ: هل تريدون نشرها في مجلة الدعوة؟

* **قال فهد:** إذا أذنتم بذلك يا سماحة الشيخ.

* **فقال الشيخ:** لا لا لا، مزقها، مزقها.

يقول فهد: ثم إن الشيخ توجه بوجهه إلى الوجهة الأخرى. يعني صرف نظره عن فهد. وقال: . أي الشيخ. وهو يستغفر ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله، وتغيّر وجهه.

٣- في عام ١٤١٥هـ خصصت جريدة المدينة ملحق الأربعاء للحديث عن سماحة الشيخ، وأعد الملحق، وجهّز للطبع، واستوفيت المعلومات. لكن ما أن علم سماحة الإمام بذلك حتى منع من إخراج الملحق وأصرّ وأخبر أن العبد بحاجة إلى الإخلاص والكتمان ولعل الله سبحانه وتعالى أن يقبله والحالة هذه، فاستجابت الجريدة ومنع طبع هذا الملحق عن سماحته رحمه الله.

٤- لقد كان رحمه الله مخفيًا لأعماله، إلا أن الله عز وجل كتب لها الظهور لما علمه الله تعالى من صدق نيته وجهاده في الله حق جهاده، ولا تعجبوا أيها الأحبة فإن الله سبحانه وتعالى كما في الحديث: إذا أحبّ عبدًا نادى جبريل فقال: ياجبريل إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: يا أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.

وأحسب الإمام من أولئك رحمه الله.

منهج واضح في الحق منذ الصغر

١- **حدّث** رحمه الله **عن نفسه فقال:** «بحمد الله أنني منذ عرفت الحق في شبابي وأنا أدعو إليه، وأصبر على الأذى في ذلك، ولا أحابي أحد في ذلك، ولا أداهن. أقول الحق وأصبر على الأذى فإن قبل الحق فالحمد لله، وإن لم يقبل فالحمد لله، هذا هو الطريق الذي رسمته لنفسي قَبِلَهُ من قبله وردّه من ردّه، ما دمت على بصيرة، ما دمت على علم فيما أعتقد، فأنا أقول الحق وإن خالفني من خالفني من الناس، فلهم اجتهادهم، والله يعطي المجتهد أجرين إن أصاب، وأجرا واحدا إن أخطأ».

* هذا كلامه رحمه الله عن نفسه، فتأمل أنه رحمه الله يتوخى الحق، والحق لا يعرف إلا بالدليل من الكتاب والسنة، وهذا هو المنهج النبوي، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ الآية، فالدعوة إلى الله عز وجل قوامها العلم، أدعو إلى الله على بصيرة.

ثم إن الشيخ رحمه الله **قال:** «وإن خالفني من خالفني فلهم اجتهادهم» فهو رحمه الله لا يحط من أقدار المخالف، بل يضع المخالف دائرا بين الأجر والأجرين،

إن أصاب أو أخطأ، فهو لا يتكلم بحقه ولا يتنقصه ولا يقع فيه، بل هو يترحم عليه ويعده مجتهدًا، حتى وإن تكلم ذلك المجتهد في حق الشيخ.

٢- ألقى الشيخ محاضرة، فقيل له في المحاضرة: إن الشيخ فلان يقول عنك إنك مبتدع، فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: هو مجتهد هو مجتهد، السؤال الذي بعده. ما زاد على ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ.

من منهجه العلمي أنه يقول: لا أدري

* سئل رَحِمَهُ اللَّهُ عن رجل قرأ في الصلاة «آية الدَّيْن» فقسمها بين الركعتين، فتوقف الشيخ، ثم قال: لأول مرة أسأل عن هذه المسألة.

ثم قال: إن قرأها فلا بأس، لكن الأولى أن يقرأها في ركعة واحدة.

فعلى كثرة المسائل والفتاوى التي تعرض عليه، يعترف ويقول على مسامع الطلبة ببساطة: أنا أول مرة تمر علي هذه المسألة.

الشاهد قوله: لأول مرة تعرض علي هذه المسألة، بعكس المتعالم الذي كل شيء يعلمه وعلى اطلاع بكل شيء، أما الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فكان العالم الحق الذي يخشى الله عز وجل، هكذا نحسبه والله حسيب الجميع.

٢- حصل كثيرا جدًا أن يقول الشيخ: هذه المسألة تحتاج إلى مراجعة، فيحيل هذه المسألة إلى بعض طلبة العلم في الدرس فيقول: يافلان هل تبحث لنا المسألة ولك منا الدعاء؟ فيقول الطالب: نعم، ثم يأتي بالبحث ويقرأه على الشيخ، ثم يعلق عليه رَحِمَهُ اللَّهُ. وقد صدر في ذلك أجزاء حديثية مما قرأ على الشيخ مما أمر ببحثه.

٣- جاء رجل واستفتى الشيخ رَحِمَهُ الله أثناء الدرس، وكان الشيخ يفتي الذين خارج الدرس حتى أثناء الدرس؛ يقول: هم أصحاب حاجات، يعني لا علاقة لهم بالدرس، فهذا الرجل استفتى الشيخ، فقال الشيخ: لا أدري، لا أعرف.

فقال الرجل: أنت تقول لا أعرف.

قال الشيخ: أذّن في الآفاق أن ابن باز لا يعرف.

المزاح والبكاء

للشيخ مزاح كثير، وعنده دعابة ومرح رَحِمَهُ الله.

١- إذا جاء أحد إلى الشيخ في بيته، قال له. أي الشيخ.: العشاء معنا، فإذا قال أنا يا شيخ لا أستطيع، قال: أنت تخاف من زوجتك؟! تعشى معنا.

٢- زوج حفيدة الشيخ جاء إليه وقال: يا شيخ نريدك تأتي إلى بيتنا، ونستضيفك. قال الشيخ: لا مانع، إذا تزوجت مرة ثانية نأتي إلى الوليمة إن شاء الله تعالى.

* فذهب هذا وأخبر حفيدة الشيخ، وقال الشيخ يقول نأتي إليكم إذا تزوجت. فأخذت الهاتف وتكلمت مع جدها الشيخ وقالت: كيف يا شيخ؟ فقال: نحن نمزح معه، لا نريده يتزوج، نأتي بغير زواج.

٣- الشيخ إذا جلس يسجل نورٌ على الدرب، يخلع شماغه وطاقيته، ويقول: من يحمل الأمانة؟ فإن قال أحد الجالسين: أنا، قال: خذ.

٤- في أحد المرات كان عنده أحد الأخوة وكان الشيخ يريد أن يسجل «نورٌ على الدرب»، وكان الشيخ يريد هذا أن يخرج، لكن بأدب، فقال: يا

هذا نحن نريد أن نسجل حلقتين متواصلات وأظن يطول عليك، قال: لا إن شاء الله أجلس وأستفيد، قال الشيخ: أخاف تكح، تعرف التسجيل ما فيه كح ولا شيء، قال: لا إن شاء الله ما فيني كحة، قال الشيخ: لا الكحة تجيك، قال: ففهمت وخرجت.

إذا كان الشيخ يمزح، فالشيخ يبكي رحمه الله؛ وعدة مرات ينتهي الدرس وينقطع بسبب البكاء.

٥- لما قرأ عليه الشيخ ابن قاسم في زاد المعاد قصة عائشة رضي الله عنها في الإفك الذي حصل لها، بكى الشيخ وانقطع الدرس بالبكاء.

٦- عند قول أبي بكر - في حادثة وفاة رسول الله ﷺ - : من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، بكى الشيخ بكاء شديدًا.

٧- عند ذكر مآسي المسلمين كان يبكي، وإن كان على الطعام أو في الدرس، كان رحمه الله صاحب بكاء.

أيها الأحبة الكرام... تأملوا في مزاح هذا الإمام وفي بكائه، تجد أنه يبكي في موطن البكاء، ويمزح في مواضع المزح.

البعد عن الدنيا

الشيخ رحمه الله متقلل من الدنيا جدًا، كما هو معروف من حاله رحمه الله، إذا ما عرفت أنه لا يملك بيتا!!

١- وقد حاول الدكتور الزهراني أن يأذن له في شراء بيته الذي في مكة، لأنه مستأجر، فقال: اصرف النظر عن هذا الموضوع، اشتغل في حوائج المسلمين.

٢- لما زار الملك فيصل رَحِمَهُ اللَّهُ المدينة - وكان الشيخ رئيس الجامعة الإسلامية - زار الشيخ في بيته فقال للشيخ: إنا سنعمر قصرًا لكم. فالشيخ تركه ولم يرد؛ وعمر القصر، فلما أرادوا أن يسجلوا صكًا بإسم الشيخ، قال الشيخ: لا، سجلوه بإسم رئيس الجامعة الإسلامية، حتى إذا جاء رئيس مكاني يكون في هذا البيت.

قوّة الذاكرة

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عنده ذاكرة قوية، فإذا سلمت عليه وقد سلمت عليه قبل سنوات عرفك.

١- حدثني أحدهم، يقول: سلمت عليه بعد خمسة عشر سنة، فأخبرني باسمي!!

٢- لكن اعجب أنه يحفظ الجزء والصفحة!! ويصحح الكتب من حفظه رَحِمَهُ اللَّهُ، بل وأعجب من ذلك في مقام العلم والعلماء.

الإمام الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ هو شيخ الشيخ ابن باز، كان إمامًا لا يضاهى في حفظه، وكان الشيخ عبد العزيز يحضر عنده في المحاضرات، ويتعجب لسرعته في إلقاءه، فكان الشيخ في أحد الأشرطة يقول:

ما شاء الله.. ما شاء الله.

الشيخ الشنقيطي كان يبحث من بعد صلاة الفجر إلى صلاة الضحى عن حديث ذكر ابن كثير في تفسيره أنه في سنن أبي داود، ويبحث في سنن أبي داود وما وجده، يقول الشيخ الشنقيطي: أنا لا أتهم ابن كثير، لكني لم أجده، قال: وأنا أبحث فإذا الباب يطرق، فقمت وفتحت الباب، فإذا الشيخ عبد العزيز جاء يسلم، وهو عند الباب لم يدخل قال: يا شيخ عبد

العزيز إن ابن كثير ذكر أن حديث كذا في سنن أبي داود، وأنا من الفجر أبحث ولم أجده، أين هو؟ قال الشيخ ابن باز: هو موجود.. هو موجود، في كتاب كذا في صفحة كذا، فقال: الآن تفضل يا شيخ.

فقوة حافظة الشيخ عظيمة، والسبب في ذلك يرجع إلى توفيق الله أولًا، ثم أن الشيخ لا ينفك عن الأذكار، لا يزال لسانه رطب من ذكر الله، دائم الأذكار، وهذا يلحظه من شاهد الشيخ ولو للحظة.

الهمة في العلم و العمل به

١- بدأ الشيخ رحمه الله في تعليم الناس ونشر العلم في صغره، في لقاء أجرته معه مجلة (المجلة) في حياته رحمه الله قديمًا، جاء في سؤال المجلة: إنكم توليتم القضاء، ولكنكم عرفتم واشتهرتم على خلاف كثير ممن تولى القضاء ولم يكن له المكانة التي وصلتم إليها؟

فكان جواب الشيخ رحمه الله قال: نحن تولينا القضاء، ثم إننا بدأنا بالدروس، وفتحنا الحلق، وواصلنا تعليم الناس فَنَفَعَنَا الله ونفع بنا.

٢- الشيخ رحمه الله له نظرة حول القضاء، فهو لا يرى أن القاضي يكتفي بما يأتيه في المحكمة فقط، ويفصل المنازعات فقط، فهو يستهجن أن يكتفي القاضي بذلك.

قال رحمه الله: أما اقتصار القضاء على بعير وحمار وبقرة وشاة ونحوها، فلا خير فيه، بل من أهم أعمال القاضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله على بصيرة، والإصلاح، وقضاء مصالح المسلمين، والشفاعة لهم.

٣- ولما كان الشيخ قاضي في الدلم كان له كرسي من طين في

السوق، يجلس فيه لقضاء حوائج الناس.

٤- يحدث الشيخ عن موقف تربوي عجيب حصل له في شبابه في أول طلبه للعلم رَحِمَهُ اللهُ - وهذا له ميزة أنه من كلام الشيخ نفسه - يقول رَحِمَهُ اللهُ: «قصة حصلت لي لا أزال متأثرًا بها إلى اليوم، حدثت أيام شبابي، فقد كنت من المحافظين على الصف الأول في الصلاة، وفي يوم من الأيام تأخرت عن الحضور مبكرًا لسببِ القراءة في بعض الكتب لبعض المسائل الهامة التي شغلتني عن الصلاة، فلم أدرك الصف الأول وفاتني بعض الشيء من الصلاة، وحينما سلم الإمام، وهو قاضي الرياض الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، وكان أحد مشائخي رَحِمَهُ اللهُ، حينما رآني أصلي في طرف الصف، وقد فاتني شيء من الصلاة، تأثر لذلك كثيرًا، فحمد الله وأثنى عليه ثم بدأ يتكلم وقال: بعض الناس يجلس في سواليف ومشاغل حتى تفوته الصلاة، . يقول سماحته. فعرفت أنه يعنيني بذلك الكلام، فلم أتأخر بعدها أبدًا، وذلك الموقف الذي حصل لي لن أنساه أبدًا».

نحن نشتكي من حالنا نحن. أنا وأنت. من تأخرنا لحضور الصلاة، وكيف الحال وطلبة العلم والعلماء في بعض الأحيان يحصل منهم هذا الشيء، وليت الشاغل قراءة في كتب، ودراسة لمسائل مهمة!!

الشيخ رَحِمَهُ اللهُ كان عنده شيء يسميه العلماء: عبادة الوقت، يعني العبادة التي في هذه الدقيقة يؤديها ولا يؤدي معها شيء، يقدم ويؤخر المهم أن يمشي حسب الأولويات، إذا كان الأذان أوقف جميع الأعمال، إذا أذن وهو في المكتب يوقف جميع الأعمال، في الدرس إذا أذن أوقف الدرس.

كان في مكتبه رَحِمَهُ اللهُ فأذن، فأوقف الدرس لإجابة المؤذن، فما أن انتهى المؤذن إلا وأحد الكتاب عنده يقول: يا شيخ المسألة كذا وكذا، فقال:

أنت ما تجيب المؤذن؟ ما سمعت المؤذن؟ أنت تعمل وقت الأذان؟

الحرص على النصيحة

١- **يقول أحدهم:** صليت بجوار الشيخ، فلما انتهينا من الصلاة، قال لي بعد السلام والإحتفاء: كأني أحس أنك تسابق الإمام وهذا يبطل الصلاة، لعلك تعتني وما تسابق الإمام.

٢- **وآخر يقول:** صليت بجوار الشيخ، وكان الشيخ يصلي تحية المسجد، وكنت أنا صليت قبله، وجلست أقرأ بصوت مرتفع، فلما سلم قال لي: ما شاء الله قراءتك جيدة، هل تحفظ القرآن؟ قلت: لا، لا أحفظ القرآن، قال: لا، لا ينبغي لمثلك أن لا يحفظ القرآن، احفظ القرآن يا ولدي، قال: فبدأت منذ ذلك الوقت حتى حفظت القرآن، وكان الشيخ يدعو لي، وأطال الدعاء بأن أحفظ القرآن، وكان يقول: اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل.. - يدعو لي - .

٣- **وأحدهم يقول:** كنت أقرأ وأخطئ، فقال لي الشيخ: لا.. صوّب قراءتك، وكان يصوّب لي، ثم قال لي: اقرأ على أحد وصوّب قراءتك، لا تستمر هكذا.

٤- **في مرة قال لأحد جلسائه:** هل لك حزب تقرأ في القرآن؟ قال: لا.. أحيانًا أقرأ وأحيانًا أطيل القراءة وأحيانا...، قال الشيخ: لا، اجعل لك حزبًا، أتعلم أنك إذا قرأت جزء كل يوم تختم القرآن في كل شهر مرة، وإذا قرأت جزئين تختم القرآن في الشهر مرتين.. وهكذا، فاجعل لك حزب ولا تترك الأمر هكذا.

كرمه

الحقيقة في كرم الشيخ لا أدري من أين أبدأ وإلى أين أنتهي!! فالشيخ كرمٌ كله، وحياته كلها كرم، وهذه الميزة من أبرز الميز عند الإمام رحمه الله.

ولا تظنوا أن الشيخ أصبح كريمًا، بل الشيخ كان كريمًا، ولا يزال كريمًا إلى أن توفاه الله عز وجل. تصوّر من صغره. رحمه الله. وهو كريم! وكرم أصيل! كرم حاتمي غير متكلف!! وفي صغره. رحمه الله. له قصص في الكرم، وهو لا يزال صغير جدًا.

١- **حدّث عنه الشيخ:** محمد ابن باز. أخوه الأكبر، حدّث بأن أخاه وشقيقه سماحة الإمام عبد العزيز بن باز. رحمه الله. كان يطلب من والدتهم أن تزيد في الغداء والعشاء، ثم يأخذه معه لطلبة العلم.

يقول أخوه محمد: قلنا له لماذا تقوم بذلك باستمرار؟ دائمًا أنت تطلب من الوالدة أن تزيد في الغداء والعشاء وأنت تعرف حالنا. حال ضعيفة وفقراء!!

يقول: كان الشيخ يقول لنا إن الله كريم وسيبسط لنا في الرزق.

هناك قريب للشيخ، اسمه: سعد بن حسين، هذا يقول الشيخ عنه إنه يكبرني بعشر سنوات، ويقول.أي سعد.: أن الشيخ كان يحضر درس الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم، فإذا انصرف من الدرس وهو في الطريق يأخذ معه من لقي، من طلبة العلم، والغرباء، والفقراء، والمساكين، ثم يذهب بهم إلى البيت، وما وجد قدمه لهم. هذا وهو في أول الطلب!!

٣- كان رحمه الله يستدين من راتبه للشهر القادم حتى يساعد المحتاجين، وما ذكر له أمر إلا وسعى إلى المساعدة فيه، حتى أن امرأة أرسلت إليه

وقالت: أنها امرأة معاقة، ولا أحد يرغب فيها . في الزواج .، فلو أنك ساعدتها في شراء بيت، وإذا كانت امرأة عندها بيت، قد يرغب فيها لأجل البيت. فقال الشيخ: لا بأس، فأمر لها، وبعث لها بأكثر من أربعمائة ألف ريال يشترى لها بيت حتى يرغب فيها، لعلها تتزوج.

٤- رجل في الفلبين أسلم، فكان يؤذيه القوم بسبب إسلامه، وهُدِّمَ بيته، فكتب رسالة لسماحة الشيخ: إني لا أعرف في العالم من أكتب إليه إلا أنت، فكتب له الشيخ رسالة، وبعث معها عشرة آلاف ريال يستعين بها في بناء سكن له.

٥- حدّث مرة سائقه شاهين عبد الرحمن، وطباخه نصير أحمد خليفه: أن الشيخ رحمه الله لما ذهب إلى مسكنه في مكة، دخل البيت وقت الغداء، فلم يسمع أصوات الناس، الذين يأتون إليه ويتغدون عنده ويتعشون! فسأل أحد مرافقيه: ما بال الناس اليوم ما أتوا!! ما أسمع أصوات!! فقال له: إن الحرس قد منعوهم! فغضب . رحمه الله . وخرج إلى الحرس وزجرهم، وأمر بإدخال الناس كلهم إلى الغداء.

٦- كنت عنده في المكتب، فجاء رجل وسلم عليه، وكان الرجل من أهل أفريقيا، وغريب، فقال له الشيخ: تجلس عندنا، وأنت في ضيافتنا، وهلّل ورحب به، وطلب البخور، على عادته رحمه الله، فقال الرجل: نريد أن نجلس معكم! قال الشيخ: حياكم الله.. حياكم الله! فقال الرجل: يا شيخ نتغدى عندكم اليوم! فقال الشيخ: حياكم الله اليوم كل يوم!! ثم قام الشيخ إلى الصلاة وهو يقول: حياكم الله اليوم وكل يوم.. يرددها!!!

٧- في عام ١٤١٧هـ، حين سافر رحمه الله إلى الطائف، ودخل في مسكنه، فلم يفد إليه الناس! الأبواب مفتوحة والناس لم يفدوا إليه!! فالشيخ تعب من هذا الموقف وضاق صدره! وسأل لماذا الناس لا يأتون؟ فقالوا له: إن

الناس ما علموا أنك أتيت، والذين علموا أرادوا أن ترتاح يوم أو يومين أو ثلاثة، ثم يأتون، قال الشيخ: لا، لا، اذهبوا، وأمر من عنده أن يخرجوا إلى السوق وإلى الجيران ويخبروهم بأن الشيخ موجود، وأنه سوف يغديكم هذا اليوم!! يدعو الناس كلهم!

٨- بل إن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في طعامه لا يأكل إلا مع الفقراء! دائمًا في سفرته لا يأكل إلا مع الفقراء!! حتى ضاق ذرعًا بعض الأغنياء والوجهاء وقالوا لمن حول الشيخ: كلموا الشيخ بأننا نريد الشيخ أن يجعل طعام للفقراء، وأن يجعل طعام للخاصة ونجلس معه، ونتحدث معه!

٩- فغضب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لذلك غضبًا، ثم قال: الذي لا يعجبه وتأبى نفسه أن يأكل مع الفقراء ليس بمجبور! ما جبرنا أحد، يخرج يأكل مع أهله، أما أنا فلن أغير من طريقتي شيئًا!!

١٠- الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يأكل طعامه لوحده أبدًا. ثم إن الشيخ يربي أهله على الكرم أيضًا.

١١- جاء مجموعة من النساء من أقارب الشيخ للسلام عليه، ودخلوا في صالة النساء وجلسوا، ثم إن الشيخ جاء من صالة الرجال وسلموا عليه، ثم لما أراد أن ينصرف أوصى زوجته أن تكرمهم، وأن لا يذهبوا حتى يأكلوا الغداء!

١٢- الشيخ كما يقال عنه: أبو المساكين!! تعرفون أنه في السنة الأخيرة ما حج الشيخ، لتعبه ما حج، فجاء رجل من خارج البلاد إلى مخيم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، فسأل وقال: أين الشيخ؟ فقالوا: الشيخ لم يحج هذه السنة، لكن الشيخ أوصانا بأن نلبي جميع احتياجات الناس! كل من سأل عن الشيخ وكان له حاجة نلبيها، قال: لا، أنا أريد الشيخ، أنا أريد أبو المساكين! ورجع ولم يخبرهم بحاجته،

لأنه يريد أن يخبر الشيخ شخصيًا لمعرفته قدر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٤- هل لك أن تتعرف على قمة كرم الشيخ!!!

قمة كرم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنه أباح الناس كلهم، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ظهري حلال لكل مسلم.

وكما تقدّم، حينما قال له السائل أن فلانا يقول عنك أنك مبتدع، قال: هو مجتهد!!

وكما قال صاحب بازية الدهر:

وحاتم في عطاياه وجودته ... في بحركم لا يساوي عشر مثقالي

وكل من عرف الشيخ، عرف كرمه الحاتمي الأصيل، والذي يمكن أن نستفيده من هذا الموقف في كرم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن الكرم من أعظم أبواب الدعوة إلى الله عز وجل، إنك لن تدعو الناس وهم جوعى، وهم فقراء، وهم ذوُو حاجات؛ سد حاجاتهم؛ فهذه دعوة.

وإطعام الناس، وفتح الأبواب - أن يكون العالم يفتح أبوابه للناس - هذا منهج نبوي! النبي ﷺ لم يكن يوصد أبوابه، ولم يكن يمنع الناس، بل كان مع الناس، وحول الناس، ويتلمس حاجتهم، ويقضي حوائجهم، ويكون في عونهم، فهذا هو المنهج النبوي.

ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يتفقد نفسه، فإن كان في الكرم ضعيفا، فعليه أن يعيد النظر في نفسه؛ فإنه لا داء أدوأ من البخل! والإنسان بِشَر ما دام بخيلا، والكرم هو باب الخير، ومفتاح البر، وعلامة الرجولة.

ثم إن الكرم أيها الأحبة كما يقول الشافعي:

تستر بالسخاء فكل عيبٍ ... يغطيه كما قيل السخاءُ

عوّد نفسك البذل، هل لك إلا ما أنفقت وقدمت وبذلت؟ وأحسن الظن بربك، فإن الله مخلف عليك جميع ما أنفقت.

إنه شينٌ وعيب أن ترى طالب علم، حافظٌ لكتاب الله، ولشيء من سنة رسول الله ﷺ، ثم لا تجد عنده كرما، بل تجده على الضد في ذلك، فذلك من أكبر العيوب، ومن أعظم الشقاء، فإنه كما تقدم: لا داء أدوأ من البخل، كما يقول النبي ﷺ.

والإنسان إذا كان مبتلئ بالبخل فهذه مشكلة، ولكل مشكلة علاج، تعوّد وتربَّ مع الكرماء حتى تصبح كريمًا، وحاول مع نفسك بدروس تربوية مستمرة، وإن شاء الله تزول عنك المشكلة، أما البخل؛ فأعوذ بالله وأعيذكم بالله منه.

صبره وجَلَدُه

الشيخ كبير في سنه، لكنه يعيش روح الشباب، حتى -والله- إذا نظرت إلى حركاته، وصلاته، تجده يصلي صلاة الشباب! فهو يعيش بروح الشباب، ولا عليك يا أخي أن تكون كبيرًا في سنك، ما دامت روحك شبابية، قوة، وعزيمة، وإرادة، تتحطم أمامها الصخور!

حتى أن الشيخ -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لما أكثر عليه محبيه أن يرفق بنفسه، ويلطف بها، وأنه عليه أن يعمل باستمرار وإن كان شيئًا قليلًا، ومن هذه المواعظ.

١- قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا كانت الروح تعمل؛ فالجوارح لا تكلّ!!

هذه إحفظها من الشيخ، إذا كانت الروح تعمل؛ فالجوارح لا تكلّ! المهم أن تعمل الروح، ولذلك على النقيض تجد الكسول جوارحه سليمه، مالذي تعطل فيه؟ تعطلت فيه روحه، فإذا كانت الروح تعمل فالجوارح لا

تكلّ، وهذه قاعدة ذهبية.

٢- ألحَّ عليه أحد طلبة العلم أن يرفق بنفسه، ويتلطف بها، ولا يتعب نفسه، فقال له: يا هذا أين أنت من خلق الرسول ﷺ، الذي كان لا يحتجب عن الناس، والذي كان يقول أبغوني ضعفاءكم، إنني سأستمر على ذلك ما استطعت!

٣- كان الشيخ في مكة، فدعاه أحد محبيه إلى جُدة لحضور لقاء علمي، وإفتتاح مركز علمي من المراكز العلمية هناك، وكأنه طلب من الشيخ أن يحضر مبكرًا. بعد المغرب .، فوافقه الشيخ على الحضور بعد إلحاح منه، فلما جاء من الغد، وجاءت صلاة المغرب، قال الشيخ: إنه يشق علي أن أذهب من الآن وأترك الناس الذين اعتادوا الحضور بعد المغرب! فقال: لا، لعلي أصلي هنا المغرب، ونجلس للناس، ونقضي من حوائجهم ما استطعنا، ونصلي العشاء، ثم نذهب إلى جُدة.

وفعلًا جلس للناس، وقضى ما استطاع من حوائجهم، وبعد أن صلى العشاء في مكة في المسجد المجاور لبيته، انطلق إلى جُدة، وهو كعادته؛ يركب في الخلف ويقرأ عليه من الكتب، فقرأوا عليه من الكتب حتى وصلوا إلى جُدة، ثم إنه حضر هذا اللقاء، وسمع ما قيل فيه من الكلمات والقصائد، ثم ألقاء كلمته رحمه الله، ثم دار على مرافق المركز، ثم تناول العشاء.

الشاهد: يقول الشيخ محمد الموسى.وكان مرافقًا له.: فعدنا إلى مكة في الساعة الثانية من الليل، وكان الشيخ من عادته أن يقوم لصلاة الليل الساعة الثالثة، وكان يوقضنا إذا قام، قال: فظننا أنه في هذه المرة لن يستطيع؛ لأنه من الصباح وهو يعمل!

قال: فنمنا، فلما كانت الساعة الثالثة فإذا الشيخ يوقضنا لصلاة الليل،

أي كان نومنا ساعة واحدة! فقام وصلى، ولم ينتهِ الأمر هكذا! فلما صلى الفجر جلس للدرس، فقلت: الشيخ سينام نومة عميقة، فقال لي يا شيخ محمد: ركّب الساعة على الثامنة وثلث! فنمنا ثلثي ساعة، ثم قمنا وقرأنا عليه المعاملات إلى الظهر!!

٤- ومرة أخرى، دعي إلى مركز إسلامي، وكان هذا المركز متعدد الأدوار، فطلب من الشيخ أن يصعد إلى الدور العلوي! فصعد الشيخ، ثم لما نزل، كأنه اتضح عليه بعض التعب، فقيل له في ذلك، قال: لا، أليس هذا في سبيل الله؟! أليس هذا في سبيل الله؟!!

٥- ومن صبره وجلده رَحِمَهُ اللهُ مواظبته على الدرس، انظر الآن مع كثرة مشاغل الشيخ، وكبر سنه، ومع ما اعتراه من الأمراض، إلا أنه رَحِمَهُ اللهُ لا يترك الدرس أبدًا! حتى أنه لما أصيب في ركبته، حضر الدرس على كرسيه المتحرك (عربيته)! ولم يترك الدرس.

٦- الشيخ بدأ التدريس في سن مبكر من عمره، بدأ التدريس في سنة ١٣٥٧هـ، وقد ولد في الثلاثين، كما ذكر ذلك هو رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى في المجلد الثامن.

٧- كان يحضر الدرس قديمًا بلا قائد، لأنه لم يكن له أحد يقوده، كان يحضر درس الفجر ولا يفوته أبدًا، مع أنه لم يكن له قائد ثابت، فمرة يقوده أحد عماله أو من يكون في الشارع أو أحد أقاربه أو جيرانه أو طلابه، المهم هو: أن لا يتوقف على قائد يقوده، هو يحضر للدرس، إن جاء أحد يقوده أم لا، حتى عام ١٤١٣هـ حينما أنعم الله على إبنه أحمد فلازمه إلى وفاته يقوده رَحِمَهُ اللهُ.

٨- في حرب الخليج أُطلقت صواريخ على الرياض، وأُطلقت صاروخ قبل الفجر على الرياض بالتحديد في اليوم الخامس من شهر رجب من ذلك

العام، فكان الناس في خوف ورعب، كما هو معلوم لديكم، فتخلف كثير جدًا من الطلاب عن درس الفجر، فحضر قلة يُعدون على الأصابع، والذي فاجأهم أن الشيخ جاء على ما هو عليه! ما تغير عنده شيء أبدًا، جاء والصواريخ تطلق على الرياض، وهو يأتي للدرس، ويلقي الدرس كما كان!!

٩- لما جاء الشيخ ليتزوج في القصيم، جاء والكتب معه، وكل من استضافه يقرأ، حتى في وقت الزواج يقرأ عليه، وألقى محاضرة في ثانوية بريدة!

١٠- لما كان الشيخ في الدُلم قديمًا، يُحدث عنه الشيخ عبد الرحمن ابن جلال يقول: إنا خرجنا على أرجلنا، نحن والشيخ، وليس معنا سوى حمار واحد، وضعنا على الحمار أدوات القهوة والفُرش، وأصبحنا نمشي على الأرض والشيخ معنا، وجلسنا على بعد ثلاثة عشر كيلو متر من الدُلم، على النفود، فما أن جلسنا حتى قال الشيخ للقارئ: اقرأ، فبدأ يقرأ بعد صلاة المغرب، على نور بسيط من السراج، وفوجئنا بسحابة عظيمة وريح شديد، ونحن الآن على النفود، فجعلنا فُرشنا على رؤسنا من شدة المطر والريح، ثم قال لنا الشيخ بعزيمة وقوة: احملوا أغراضكم فوق الحمار، فحملنا أغراضنا على الحمار، ومشينا على أرجلنا والشيخ معنا، والشيخ كفيف الآن، ومشينا حتى وصلنا إلى إحدى المزارع التي أضيء فيها ضوء، بسبب أن أهلها أوقدوا فيها سعفًا يتدفئون عليه، فذهبنا إليهم، فما أن وصلنا وأخذنا مكاننا، حتى قال الشيخ للقارئ: واصل، اقرأ من الموقف الذي وقفت عليه!!

١١- في آخر أيام الشيخ، وهو في المستشفى العسكري في الطائف، كانت تقرأ عليه الكتب، حتى أنه في الساعات الأخيرة له رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أمر من عنده أن يقرأ عليه كتاب فتح المجيد!

١٢- فدخل عليه الشيخ محمد الموسى ليطمئن على صحته، فقال له الشيخ: ماذا معك؟ هات ما عندك؟ قال: ما معي الآن شيء، عندي كتاب فتاوى اللجنة، المجلد الثاني عشر، خرج من المطبعة، وبعض المعاملات، وإني تركتها في السيارة، وما قدمت إلا للإطمئنان على صحتك، فقال الشيخ: ارجع وهاتها! قال: فجئت وقرأت عليه من فتاوى اللجنة أكثر من أربعين صفحة!! ثم بدأنا في المعاملات!!

الاهتمام البالغ في الكتب

ذُكِر له «المفهم في شرح صحيح مسلم» للقرطبي، فقال: هل طبع هذا الكتاب؟ قالوا: نعم. قال: ائتوني بنسخة.

فكان يتابع الكتب رَحِمَهُ اللهُ، وهذا فيه ملحظ على أن طالب العلم لا يكتفي بما لديه من الكتب، بل عليه أن يكون طالب علم إلى الممات! ومن طلب العلم أن تشتري الكتب كلما استجدت، بل إنه لا يكفي طبعة عن طبعة، لأن طالب العلم منهوم لا يشبع، وطالب العلم الذي يكتفي ببعض الكتب عن بعض، ويقول بعضها يجزئ عن بعض، هذا في الحقيقة ليس بطالب علم!!

مواقف تربوية مع التلاميذ والعلماء

١- جاء أحد الطلبة. مبتدئ في طلب العلم. وبدأ يقرأ على الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، ويلحن لحنًا جليًا، وكان الشيخ يعدل له، ويلحن والشيخ يعدل، ويذهب الوقت كله في تعديل القراءة وتصويبها، قال الشيخ له. دون أن يغضب.: ما اسمك؟ قال: صقر، قال الشيخ: كن صقرًا كاسمك! الصقر ما يحتاج من يعلمه!

٢- فالشيخ ما كان يؤنب أحدًا، وأعظم كلمة سمعت منه خلال الدرس في الأعوام كلها: أنه كان مرة في الدرس يشرح - يقرأ عليه الحديث فيشرح - وكان ممن حضر الدرس أحد المتعالمين أو ناقص عقل؛ المهم كان كلما انتهى الشيخ من الشرح علق هذا الحاضر، وزاد التعليق!! فالشيخ ما احتمل هذا فقال: يا هذا الدرس لي وليس لك!

يعني إن كنت تريد أن تدرس فافتح درس ثاني، وهذه أعظم شدة وكلمة سمعوها من الشيخ رحمه الله.

٣- إذا قرأ عليه القارئ ولحن، لا يعدل أو يصوب، بل يقول: أعد.. أعد، حتى يتنبه التلميذ إلى الخطأ من نفسه، فإن لم يتنبه نبهه، لا سيما وأن الذين يقرأون هم من أصحاب الفضيلة العلماء.

٤- جاء رجل أعجمي، فأراد أن يقرأ على الشيخ كتاب التوحيد، فأذن له، فكان الشيخ يعلمه كما في الكتاتيب، حرفًا حرفًا، إلى أن انتهى الكتاب! حلم واسع!!

٥- كان يطلب من الطلاب البحوث، ويقول: من يبحث هذا وندعوا له.

٦- وكان يواسي طلابه ويعرف المحتاجين منهم. حتى أن أحد الطلاب انقطع، ثم كتب للشيخ رسالة شديدة اللهجة، قرأها عليه الشيخ محمد الموسى، فرد عليه الشيخ وقال: والله ما علمنا بحالك، وإننا نعتذر، واعتذر الشيخ وكأنه هو المخطئ!

٧- جاء رجل وأهدى للشيخ بخورا فاخرا، فكان عنده رجل وكأنه استشرف لنفسه هذا البخور، فأهداه له الشيخ.

٨- جاء تلميذ وقال: يا شيخ أنا أريد منك هدية أتذكركم بها كلما

رأيتها، فقال الشيخ: حسنًا صل معنا العشاء، يقول التلميذ: فقلت للشيخ محمد الموسى يا شيخ محمد ترى الشيخ أعطاني وعدًا بالهدية فَذكِّره، فقال: لا الشيخ إن شاء الله ما ينسى، قال التلميذ: فلما صلينا العشاء قلت يا شيخ أنا صاحب الهدية، قال: فخلع بشته وأعطاني إياه! وقال: هذه هديتي!!

٩- لما تكلم عن مسألة السواك، وهل يستاك باليمين أو بالشمال، أخذ السواك وجعل يستاك يمينًا ويسارًا، ويقول هكذا صفة المسواك.

١٠- سئل مرة عن تركيب سن الذهب، فقال: لا يجوز، قالوا: يا شيخ لكن سن الذهب أقوى ويستمر طويلًا...، ففتح الشيخ فمه وقال: أنا عندي هذا السن ليس بذهب، وهو من حين ركبت إلى الآن لم يؤلمني!!

١١- جاء الشيخ لدرس الفجر، وكنت حاضرًا أيضًا، وكان الشيخ قد حنى لحيته، فكأن التلاميذ تبسموا وسمع منهم، فقال: ما يضحككم؟ قالوا: رأينا اليوم منك حناء وقد تركته وقتًا، قال: نعم تركناه وعدنا إليه، الحمد لله.

١٢- فكان رَحِمَهُ اللَّهُ يباسط تلاميذه، ويتحدث معهم بأسلوب مبسط جدًا، إذا كان هذا الشيخ مع تلاميذه، وهي رسالة نبعثها لأهل العلم مع تلاميذهم، فإن هناك رسالة تبعث للعلماء مع العلماء، وماذا كان يعمل الشيخ مع العلماء؟

١٣- كان رَحِمَهُ اللَّهُ يدافع عن العلماء، ولعلكم تذكرون البيان الذي أصدره رَحِمَهُ اللَّهُ وقرأ في وسائل الإعلام كلها للدفاع عن العلماء والدعاة في سبيل الله، وكان يعذرهم رَحِمَهُ اللَّهُ، وإذا كتب ردًا لهم اعتذر لهم اعتذارًا لم يكن لهم أن يعتذروا به عن أنفسهم!!

١٤- فى مجمع الفقه الإسلامى - وكان يضم العديد من العلماء على

شتى المذاهب الفقهية المعاصرة: فهذا مالكي وهذا شافعي وهذا حنفي وهذا حنبلي - فقام أحد علماء المالكية وتهجم على الشيخ، وتكلم عليه وقال أنتم يا الوهابية تقولون كذا وكذا، فقال الشيخ له: سبح، سبح، لكن الشيخ الآخر أصبح يزيد كلما قال له الشيخ: سبح سبح يزيد، فالشيخ رحمه الله ما تكلم ولا بكلمة، ولما انتهى قال الشيخ رحمه الله لأحد مرافقيه أحضر ثلاثين نسخة من الكتاب الفلاني غدًا، ووزعها على أصحاب الفضيلة المشايخ، فمن الغد أتوا بثلاثين نسخة ووزعوها على المشائخ الموجودين في مجمع الفقه الإسلامي، ثم قال الشيخ رحمه الله: هذا الكتاب الذي معكم مؤلفه مالكي، فإن وجدتم فيه ما يخالف مذهبنا، أو يخالف مذهب مالك، فأخبرونا ونحن نرجع إلى الحق إن شاء الله، هذا الذي في الكتاب هو من أئمتكم وهو يوافق ما نحن عليه والذي عليه الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

فانظر إلى علمه رحمه الله، وحسن تأدبه مع العلماء، ما قال أنت جاهل أو غير ذلك.

١٥- كان عنده العلماء في جلسة خاصة في بيته، فكان الشيخ لا يأخذ الهاتف، لكنه في ذلك الوقت رفع السماعة وكانوا في شدة البحث، فرفع السماعة وتركهم وأصبح يهاتف، فلما انتهى كأنهم عتبوا على الشيخ، وقالوا يا شيخ لو جعلت للإفتاء وقتا آخر، قال: لا، هذه امرأة لها حاجة لو لم نقضها لتعطلت حاجتها، ونستمر إن شاء الله نستمر.

١٦- يقول رحمه الله «كلمة عجيبة»: لو أن الصحابة أحياء لطلبوا العلم، فلا تقعد عن العلم أبدًا.

١٧- الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، وهو من تعرفون في الدعوة إلى الله، وقد أثير حوله ما أثير وكُتِب ما كتب، ونحن لا نقول أنه معصوم ولكن حسبه

أنه من الدعاة.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كُلِّمَ عن الغزالي كثيرًا، لكن هل الشيخ شُحن؟، لا.

جاء الغزالي إلى الشيخ عبد العزيز رحمهما الله، ودخل عليه، فأراد بعض الحضور أن يثير بعض المسائل المنتقدة على الغزالي، لكن الشيخ صرف النظر عنها كلها، وأصبح يتحدث في واقع المسلمين وفضل الدعوة إلى الله عز وجل.

فلما قام الشيخ الغزالي، قام معه الشيخ يمشي إلى السيارة ويودعه فقال الغزالي: أشهد بالله إن كان هناك أحد من السلف فهو هذا الرجل! ثم قال يا شيخ عبد العزيز: إذا رأيتم شيء في كتاباتي يخالف الدليل، بلغوني والله أعدله.

انظر.. الشيخ ما قال له أنت خالفت، بل هو الذي أصبح يقول هذا!!

١٨- جاء إليه بعض طلبة العلم وقالوا: يا شيخ إن الشيخ فلان عنده مخالفات في كذا وكذا، وأثبتوا المخالفات فعلًا، فهم الشيخ أن يكتب له نصيحة، وطلب الكاتب وكتب النصيحة كاملة، فلما جاء في آخر النصيحة، قال له أحد الحضور: يا شيخ وإنه يقول فيك كذا وكذا، أنت يا شيخ، فأخذ الشيخ الورقة ومزقها، قال: لا، لا يظن أنني أنتصر لنفسي!!.

[انظر: «التسعون البازية» طبعة دار العاصمة، و«الإنجاز في ترجمة ابن باز»، و«محاضرة في ترجمة الشيخ ابن باز» للشيخ عبد العزيز السدحان، وقد استفدت كثيرًا من إحدى المحاضرات المفرغة في ترجمة الشيخ ولم أستطع

الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني

نشأته والهجرة إلى الشام

ولد «ناصر الدين» في مدينة أشقودرة، عاصمة ألبانية، عام ١٩١٤م في أسرة فقيرة بعيدة عن الغنى، متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، فقد تخرج والده الحاج نوح نجاتي الألباني في المعاهد الشرعية، في العاصمة العثمانية الآستانة- قديمًا والتي تعرف اليوم باستانبول. ورجع إلى بلاده لخدمة الدين وتعليم الناس ما درسه وتلقاه، حتى أصبح مرجعًا تتوافد عليه الناس للأخذ منه.

وبعد أن تولى حكم ألبانية الملك «أحمد زوغو» سار بالبلاد في طريق تحويلها إلى بلاد علمانية تقلد الغرب في جميع أنماط حياته، فطلع عليها بتغيرات اجتماعية كانت صدمة هزت أركان تلك البيئة المحافظة المطبوعة بالطابع الإسلامي، فأخذ يسير وفق خطوات أتاتورك أحد معاول هدم الخلافة العثمانية.

فألزم المرأة الألبانية المسلمة بنزع الحجاب قسرًا، وألزم الرجال بلبس اللباس الأوروبي كالبنطلون والقبعة كالحال في تركيا من سقوط الخلافة ١٩٢٢ إلى يومنا هذا... ومنذ ذلك اليوم بدأت هجرة الذين يريدون دينهم، ويخافون سوء العاقبة، فتوجس والد الشيخ خيفة، وتوقع أن يسوء الحال أكثر من ذلك، فقرر الهجرة إلى بلاد الشام، فرارًا بدينه، وخوفًا على أولاده من الفتن، ووقع اختياره على مدينة دمشق، التي كان تعرف عليها من قبل في طريق ذهابه

وإيابه من الحج، ودفعه إلى ذلك ما ورد في فضل هذه البلاد من الأحاديث، ودعاء رسول الله ﷺ.

بداية تلقيه للعلم

بدأ الغلام المهاجر من ألبانية دراسته في الشام، وأول ما بدأ بدخول مدرسة الإسعاف الخيرية الابتدائية بدمشق، وكان مقرها بجوار البناء الأثري المشهور بقصر العظم في حي البزورية، واستمر على ذلك حتى أشرف على نهاية المرحلة الابتدائية، وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين الغزاة، وأصاب المدرسة حريق أتى عليها، فانتقلوا عنها إلى مدرسة أخرى بسوق ساروجه، وهناك أنهى الشيخ دراسته الأولى.

ونظرًا لسوء رأي والده في المدارس النظامية من الناحية الدينية، فقد قرر عدم إكماله الدراسة، ووضع له برنامجًا علميًا مركزًا قام من خلاله بتعليمه القرآن والتجويد والصرف وفقه مذهبه الحنفي.

كما أنه تلقى بعض العلوم الدينية والعربية على بعض الشيوخ من أصدقاء والده مثل الشيخ سعيد البرهاني إذ قرأ عليه كتاب «مراقي الفلاح» وبعض الكتب الحديثة في علوم البلاغة.

أخذ الشيخ إجازة في الحديث من الشيخ راغب الطباخ، علامة حلب في زمانه، وذلك إثر مقابلة له بوساطة الأستاذ/ محمد المبارك الذي ذكر للشيخ الطباخ ما يعرفه من إقبال الفتى على علوم الحديث وتفوقه فيها، فلما استوثق من ذلك خصَّه بإجازته تقديرًا واعترافًا.

توجهه إلى علم الحديث واهتمامه به

توجه الفتى إلى علم الحديث في نحو العشرين من عمره متأثرًا بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ/ محمد رشيد رضا رحمه الله يقول الشيخ محمد المجذوب في كتابه القيم «علماء ومفكرون» من حديث دار بينه وبين الشيخ ناصر:

«. . . وركز الشيخ من بين الموجهين له على السيد رشيد رضا، الذي يعتبره من أكبر الرجال أثرًا في دفعه إلى دراسة الحديث الشريف».

يقول الشيخ ملخصًا صلته العلمية بالسيد رضا على نحو ما يحدثنا الأستاذ المجذوب: «أول ما ولعت بمطالعته من الكتب القصص العربية كالظاهر وعنترة والملك سيف وما إليها. ثم القصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها، ثم وجدت نزوعًا إلى القراءات التاريخية.

وذات يوم لاحظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءًا من مجلة المنار فاطلعت عليه ووقعت فيه على بحث بقلم السيد رشيد رضا يصف فيه كتاب «الإحياء» للغزالي، ويشير إلى محاسنه ومآخذه.

ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله، ثم أمضي لأتابع موضوع تخريج الحافظ العراقي على الإحياء، ورأيتني أسعى لاستئجاره لأني لا أملك ثمنه. من ثم أقبلت على قراءة الكتاب، فاستهواني ذلك التخريج الدقيق حتى صممت على نسخه، وهكذا جهدت حتى استقامت لي طريقة صالحة تساعد على تثبيت تلك المعلومات، وأحسب أن هذا المجهود الذي بذلته في دراستي تلك هو الذي شجعني وحبب إلي المضي في ذلك إذ وجدتني أستعين بشتى المؤلفات اللغوية والبلاغة وغريب الحديث لتفهم النص إلى

جان تخريجه». ويتابع الأستاذ المجذوب:

«وقد أطلعني الشيخ على عمله في ذلك النسخ، فإذا أنا تلقاء أربعة أجزاء في ثلاثة مجلدات، تبلغ صفحاتها ألفين واثنتي عشرة في نوعين مختلفين من الخط. أحدهما عادي والثاني دقيق علق به في الهوامش تفسيرًا أو استدراكًا.

ولعمر الحق إنه لمجهود يعجز عنه أولو العزم من أهل العلم في هذه الأيام، ناهيك بطلبة الجامعات ممن لا يملكون أي عزيمة تسعفهم بالصبر على التحقيق والمتابعة.

فكيف إذا أضيف إلى ذلك أن الشيخ لم يكن آنئذ قد تجاوز العشرين من العمر، ولا جرم أن هذا الجهد الجبار في تأليف تلك المجلدات، مع الاستعانة بكل وسائل التحقيق المتيسرة للفتى أيامئذ، كان ذا أثر كبير في تمرسه بهذا الضرب من العمل العلمي، فهو وإن كان لا يستحوذ على رضاه بصورة تامة، قد شق له الطريق إلى تقدم أعلى في هذا المضمار.

ومن خلال هذه الحياة، وتلك النشأة، وهاتيك الملابسات، يتراءى لي أن ثمة عوامل خفية كانت دائبة على توجيه الفتى في ذلك الطريق، لتجعل منه في النهاية واحدًا من كبار خدمة السنة المطهرة في ديار الشام».

وحول هذه المؤثرات غير المنظورة يقول الشيخ: إن نعم الله عليَّ كثيرة لا أحصي لها عدًا، ولعل من أهمها اثنتين: هجرة والدي إلى الشام، ثم تعليمه إياي مهنته في إصلاح الساعات».

فأخذ عن أبيه مهنة إصلاح الساعات فأجادها حتى صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يكسب رزقه منها. يقول: أما الأولى فقد يسرت لي تعلم العربية ولو ظللنا في ألبانية لما توقعت أن أتعلم منها حرفًا. ولا سبيل إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا عن طريق العربية. وأما الثانية فقد قيضت

لي فراغًا من الوقت أملؤه بطلب العلم. فأتاحت لي فرص التجارة التي لو حاولت التدريب عليها أولًا لالتهمت وقتي كله وبالتالي لسدت بوجهي سبل العلم، الذي لابد لطالبه من التفرغ.

يقول الشيخ عندما سُئل عن الطريقة التي يوفق بها بين تفرغه للعلم واشتغاله بتصليح الساعات وبيعها : إن ذلك صحيح، ومن توفيق الله تعالى وفضله عليّ أن وجهني منذ أول شبابي إلى تعلم هذه المهنة، ذلك لأنها حرة لا تتعارض مع جهودي في علم السنة، فقد أعطيت لها من وقتي كل يوم، ما عدا الثلاثاء والجمعة، ثلاث ساعات زمنية فقط. وهذا القدر يمكنني من الحصول على القوت الضروري لي ولعيالي وأطفالي على طريقة الكفاف طبعًا، فإن من دعائه عليه الصلاة والسلام : «**اللهم اجعل رزق آل محمدًا قوتًا**». رواه الشيخان.

من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل

وسائر الوقت أصرفه في سبيل طلب العلم والتأليف ودراسة كتب الحديث، وبخاصة المخطوطات منها في المكتبة الظاهرية، ولذلك فإني ألازم هذه المكتبة ملازمة موظفيها لها.

ويتراوح ما أقضيه من الوقت فيها ما بين ست ساعات إلى ثماني ساعات يوميًا على اختلاف النظام الصيفي والشتوي في الدوام فيها.

وكان إذا جاء وقت صلاة الظهر أذن وصلى بالمسلمين في المكتبة، وكذلك الأوقات الأخرى كالمغرب والعشاء.

وكان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي والتعليق

عليه. ومعلوم أن هذا الكتاب هو تخريج لأحاديث كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي.

وقد حكى لي الشيخ عن قصة عمله في المغني هذا فقال: بعد ما خططت في ذهني صورًا لنسخ التخريج الذي هو مطبوع على هامش الإحياء بدأت أنسخ الأحاديث، ووضعت خطة هذه منها قائلًا: «**إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة**». هكذا في الإحياء.

يقول الحافظ العراقي: وقد نقلته منه ولكني لم أجده هكذا، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة «**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**». انتهى كلام العراقي.

ولكن ماذا فعلت؟ وضعت شرطة وأتممت الحديث من «الصحيحين»، واصطلحت على هذا حتى ما أنسب إلى الحافظ العراقي شيئًا ليس له، اصطلحت الزيادة التي أنقلها من الأصل الذي عزا الحديث إليه أضعه بين شرطتين. ويومئذ كنت حديث عهد بالمطالعة ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لوضعت الأقواس التي جريت عليها في كتبي فيما بعد بدل الشرطتين.

الشاهد: بدأت بالنسخ ثم وصلت إلى نصف المجلد الأول ثم خطر في بالي خاطرة وذلك أني أثناء عملي بالأحاديث تمر بي بعض منها لا أفقه بعض ألفاظها؟ وبالتالي لا أتبين المعنى المراد من الحديث كله، فقلت لماذا لا أشرح كل هذه الألفاظ في الهامش، وتكون مذكرة لي ومساعدة على فهم الحديث.

وبعد أن وصلت إلى نصف المجلد الأول ألقيته ورجعت أنسخه من جديد على الخاطرة الجديدة. وكلما مررت بحديث فيه كلمة مغلقة عليّ

أستعين «بغريب الحديث» لابن الأثير و«بالقاموس»، وأكتب المعنى في الهامش حتى توسع الأمر، وصار التعليق أكثر من المتن، وهكذا حتى انتهى الكتاب.

وهذا ما نفعني كثيرًا جدًّا، والحقيقة كدت أقول أنا أعجب من لطف الله بعباده، ولكن أشعر بأن الله كان ينقلني من خطوة إلى أخرى، الآن أقتطف ثمار ما كنت أؤلف وأخطط وأنا لا أدري ما وراء هذا التأليف، وما وراء هذا التخطيط، والآن أقتطف ثمار بعض التآليف، فأجد هناك مادة غزيرة في مشاريعي العلمية الأولى، وذلك لوفرة النشاط والرغبة الملحة في متابعة البحث واستجمال روايات الحديث، وإن كنت والحمد لله لازلت على النشاط والبحث، ولكن للشيخوخة حقها».

والذي ينظر إلى جهد الشيخ في هذا العمل يعجب لنباهته وحسن اطلاعه، في مثل ذلك السن، ويزداد عجبه من شدة إتقانه لترتيب الكتاب وتنسيقه وحسن خطه.

وكان ذلك العلم فاتحة خير كبير، فقد ازداد إقبالًا على علم الحديث ودراسة السنة بشغف شديد، وكان والده رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له يحذره قائلًا: «علم الحديث صنعة المفاليس». ورغم هذا فقد ازداد حب الفتى لحديث رسول الله ﷺ وتمييز صحيحه من ضعيفه.

وبما أنه كان يعيش في كنف والده الذي يعول أسرة كبيرة، فلم يكن بمقدوره أن يشتري ما يحتاج إليه من الكتب التي لا يجدها في مكتبة أبيه العامرة بكتب المذهب الحنفي خاصة، فلذلك يمم شطر المكتبة الظاهرية؛ وكانت من نعم الله الكبرى عليه، إذ كان يجد فيها ما لا يستطيع شراءه من الكتب، كما كان يستعين أحيانًا ببعض المكتبات التجارية الخاصة التي يعدها الشيخ من التوفيقات الربانية ؛ بسبب ما

تيسر له من الاتصال بالسيد سليم القصيباتي وابنه عزت اللذين يملكان إحدى أكبر مكتبات دمشق، وقد مكنا الشيخ من كل كتاب يعوزه الإطلاع عليه، فيسمحان له باستعارته لزمن غير محدود دون أجر، حتى يأتيهما راغب في شراء الكتاب فيبعثان إليه فيرده إليهما وبذلك فسح لهذا النهم الذي لا يشبع من العلم أن يجد تحت تصرفه أعدادًا لا حصر لها من الأسفار التي هو في أمّس الحاجة إليها. كما اتصل بالمكتبة العربية الهاشمية «عيد إخوان»، وكان له من أصحابها أحمد وحمدي وتوفيق خير معين في الحصول على أربه من الكتب.

ولعل الاهتمام بالحديث أصبح شغله الشاغل، حتى كان يغلق محله ويذهب إلى المكتبة الظاهرية، ويبقى فيها اثنتي عشرة ساعة، لا يفتر عن المطالعة والتعليق والتحقيق إلا أثناء فترات الصلاة، وكان يتناول طعامه البسيط في المكتبة في كثير من الأحيان فيها. . . ولعمري هكذا الأوائل من أهل الحديث أمثال ابن الجوزي؛ فقد كان يقول: «كنت آكل الخبز اليابس وأشرب عليه الماء عند نهر عيسى بكورة البصرة، وكنت أعتبره وقتًا ولك لألحق أهل العلم لآخذ عنهم ولا يفوتني شيءٌ منهم».

ولهذا قدرته إدارة المكتبة فخصصت له غرفة خاصة به ليقوم فيها مع بضع أُمهات المصادر بأبحاثه العلمية المفيدة، فكان يدخل قبل الموظفين صباحًا وفي بعض الأحيان كان من عادة الموظفين الانصراف إلى بيوتهم ظهرًا، ثم لا يعودون؛ ولكن الشيخ يبقى في المكتبة ما شاء الله له البقاء، فربما يصلي العشاء ثم ينصرف.

وإن كل من رآه في المكتبة آنذاك يعرف مدى اجتهاده وحرصه على الاستفادة من وقته. حتى إن كثيرًا من الناس كانوا يحملون عليه لكثرة انهماكه في المطالعة والتأليف أثناء زيارتهم له في المكتبة. وبالطبع كان للشيخ عذره؛ لأنه لا يريد إضاعة الوقت بالترحاب والمجاملة، وكان

يجيب عن بعض الأسئلة التي توجه إليه وهو ينظر في الكتاب دون أن يرفع بصره إلى محدثه بأوجز عبارة تؤدي الغرض.

وكما يقول عنه الأستاذ/ محمد الصباغ: عين في الكتاب وعين في السائل.

وكان من ثمرة هذا الجهد تخريجه أحاديث البيوع في موسوعة الفقه الإسلامي وغيرها من المؤلفات. وإن من يقرأ كلام الشيخ في مقدمة فهرس مخطوطات الحديث في المكتبة الظاهرية حول قصاصة الورق الضائعة يقدر الدأب الطويل والجهد الضخم الذي قام به في خدمة السنة.

الدعوة في سبيل الله

لقد كان لحديث رسول الله ﷺ الأثر الكبير في توجيه الشيخ الألباني علمًا وعملًا، فتوجه نحو المنهج الصحيح، وهو التلقي عن الله ورسوله فقط، مستعينًا بفهم الأئمة الأعلام من السلف الصالح دوت تعصب لأحد منهم أو عليه.

وإنما كان رائده الحديث حيث كان. ولذلك بدأ يخاف مذهبه الحنفي الذي نشأ عليه. وكان والده ﷺ وغفر له يعارضه في مسائل كثيرة في المذهب، فبين له الشيخ أنه لا يجوز لمسلم أن يترك العمل بحديث رسول الله ﷺ بعد أن ثبت عنه وعمل به بعض الأئمة لقول أحد من الناس، كائنًا من كان، ويذكر له أن هذا هو منهج أبي حنيفة وغيره من الأئمة الكرام رحمهم الله.

ومن هذا المنطلق تبدأ مرحلة النشاط الدؤوب في عمل الشيخ في الدعوة إلى الله تعالى.

ينقل لنا الأستاذ المجذوب عن الشيخ قائلًا:

«لقد بدأت بالاتصال بالمعارف والأصدقاء وأصدقائهم، وجعلت من الحانوت ندوة نجتمع بها، ثم رأينا الانتقال إلى دار أحد الأنصار، ثم إلى واحدة أخرى أكبر، ومن ثم استأجرنا إحدى الدور لهذه الغاية، وجعل الحضور يتكاثرون، حتى ليضيق بهم المكان، وبلغ النشاط مستوى عاليًا في قراءة الاتجاه، فضيق علينا، ثم ألغيت الاجتماعات وانفض السامر».

وهكذا بدأت المناقشات بين الشيخ وغيره من المشايخ وأئمة المساجد، ولقي المعارضة الشديدة من كثير من المشايخ المذهبيين المتعصبين، ومشايخ الصوفية، والخرافيين المبتدعين - وبخاصة من بين قومه الذين كانوا يثيرون عليه العامة والغوغاء، ويشيعون عنه بأنه «وهابي ضال»، ويحذرون منه الناس في الوقت الذي وافقه على دعوته بعض أفاضل العلماء المعروفين في دمشق، وحضوه على الاستمرار قدمًا، منهم العلامة بهجة البيطار، والشيخ عبد الفتاح الإمام، والشيخ حامد التقي، والشيخ توفيق البزره رحمهم الله تعالى وغيرهم من أهل الفضل.

ولم يكن الألباني ليبالي بكلام الناس ومعارضة المعارضين، وإنما كان يزيده ذلك إصرارًا على التمسك بهذا المنهج الحق، ويوطن نفسه على الصبر وتحمل الأذى عملًا بوصية لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ الآيات إلى قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧].

وقد حمل الشيخ راية التوحيد والسنة، وزار كثيرين من مشايخ دمشق، وجرت بينه وبينهم مناقشات حول مسائل التوحيد والتعصب

للمذاهب والبدع بصحبة الشيخ عبد الفتاح الإمام رَحِمَهُ اللهُ رئيس جمعية الشباب المسلمين يومئذ.

وتابع الشيخ الحساد وجهله المتنطعين والجواسيس والوشاة والمعارضين لمنهجه؛ وها هو ذا يحدثنا عن أهم ما واجهه من هذه المضايقات فيقول:

كان من آثار الإقبال الطيب الذي لقيته الدعوة أن رتبنا برنامجًا لزيارة بعض مناطق البلاد ما بين حلب واللاذقية كإدلب وسلمية، وحمص، وحماة ثم الرقة، وعلى الرغم من الأوقات التي خصصت لكل من المدن فقد صادفت هذه الرحلات نجاحًا ملموسًا، إذ جمعت العديد من الراغبين في علوم الحديث على ندوات شه دورية، يقرأ فيها من كتب السنة، وتتوارد الأسئلة، ويثور النقاش المفيد.

«إلا أن هذا التجول قد ضاعف من نقمة الآخرين، فضاعفوا من سعاياتهم لدى المسؤولين، فإذا نحن تلقاء مشكلات يتصل بعضها برقاب بعض».

وقد وصل الأمر في هؤلاء الحاقدين على الشيخ إلى حد الوشاية به وقول الزور إلى الحكام مما أدى إلى سجنه نحو ستة أشهر، وكان قد سجن مرة قبل ذلك عام (١٩٦٧) لمدة شهر فقط، وقد يسر الله له تعالى من التوفيقات الربانية ما أتاح له الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكروا يومًا بلقائه، فضلًا عن الدخول معه في حوار عدّل كثيرًا من أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية.

وكان يستفيد من سفره إلى حلب كل شهر حيث يذهب إلى مكتبة الأوقاف الإسلامية الوحيدة العامرة فيها بالمخطوطات، هناك يقضي فيها الساعات الطويلة في دراسة مخطوطاتها، ونسخ ما هو ضروري منها

لمشروعاته العلمية. ومن الكتب التي نسخها من هذه المكتبة كتاب «الزوائد - للبوصيري»، ولم تحد دعوة الشيخ إلى الكتاب والسنة حدود، بل امتدت إلى خارج حدودها إلي البلدان المجاورة كالأردن ولبنان يدرس فيها علوم السنة لمن يرغبها من طلبة العلم.

مجالسه العلمية

وقد كان للشيخ برنامج أسبوعي يعقده ويحضره طلبة العلم وأساتذة الجامعات، وقد درّس في هذه المجالس من الكتب العلمية ما يلي: -

١- الروضة الندية - لصديق حسن خان.

٢- منهاج الإسلام في الحكم - لمحمد أسد.

٣- أصول الفقه - لعبد الوهاب خلاف.

٤- مصطلح التاريخ - لأسد رستم.

٥- فقه السنة - لسيد سابق.

٦- الحلال والحرام - ليوسف القرضاوي.

٧- الترغيب والترهيب - للحافظ المنذري.

٨- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - لعبد الرحمن بن حسن.

٩- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث - لأحمد شاكر.

١٠- رياض الصالحين - للنووي.

١١- الإلمام في أحاديث الأحكام - لابن دقيق العيد.

١٢- الأدب المفرد - للإمام البخاري.

وكان يدرسه على النساء، وكان يختار منه ما صح من الحديث ويعلق عليه.

وزاد الأستاذ محمد عيد عباسي أحد تلاميذ الشيخ - فرج الله عنه- في كتابه القيم «بدعة التعصب المذهبي» الملحق بقوله: هذه بعض الكتب الفقهية التي كان الشيخ ناصر يدرسها لتلاميذه في دمشق:

١- كتاب اقتضاء الصراط المستقيم - لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢- فقه السنة - لسيد سابق.

٣- منهاج الإسلام في الحكم - لمحمد أسد.

٤- الروضة الندية في شرح الدرر البهية - للعلامة محمد صديق خان.

وهو جزءان كبيران، ولقد درسناه كاملًا، بجميع أبوابه، من عبادات ومعاملات، وبيوع ونكاح، وطلاق، وقصاص، وحدود، وديات، ورهن، وصرف، وبغاة، وأطعمة، وأشربة، وجهاد... إلخ. وكان أستاذنا حفظه الله يشرح البحوث شرحًا علميًا محققًا لا يكاد أن يترك مسألة صغيرة ولا كبيرة إلا يجليها ويوضح غامضها، ويعلق على ما يقرأ موافقًا أو مختلفًا، وهو في جميع ذلك يستند إلى أقوى الحجج وأثبت البراهين».

في الجامعة الإسلامية في المدينة

يقول الأستاذان عيد عباسي، وعلي خشان في ترجمتيهما للشيخ: -

بفضل ذلك الجهد المتواصل، وبتوفيق من الله تعالى ظهرت للشيخ مؤلفات نافعة في الحديث والفقه والعقائد وغيرها تدل أهل العلم والفضل

على ما حباه الله به من فهم صحيح، وعلم غزير، ودارية فائقة بالحديث وعلومه ورجاله، بالإضافة إلى منهج علمي سديد يجعل الكتاب والسنة حكمًا وميزانًا في كل شيء مسترشدًا بفهم السلف الصالح وطريقتهم في التفقه واستنباط الأحكام. هذا المنهج الذي سار عليه كثير من المحققين من أهل العلم، ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلامذته، ومن تبعهم على ذلك.

كل ذلك جعل الشيخ علمًا ذائع الصيت يرجع إليه أهل العلم، ويعرف قدره المشرفون على المراكز العلمية، مما دفع المشرفين على الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة حين تأسيسها، وعلى رأسهم الشيخ العلامة/ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، رئيس الجامعة الإسلامية والمفتي العام للمملكة العربية السعودية آنذاك على أن يقع اختيارهم على الشيخ ليتولى تدريس الحديث وعلومه وفقهه في الجامعة.

وبقي هناك ثلاث سنوات أستاذًا للحديث وعلومه، كان خلالها مثالًا للجد والإخلاص، حتى إنه كان يجلس مع الطلاب على الرمل أثناء الاستراحات بين الدروس، ويمر به بعض الأساتذة والطلاب حوله على الرمل فيقولون: «**هذا هو الدرس الحقيقي وليس الذي خرجت منه أو الذي ستعود إليه**».

كان الشيخ يفعل ذلك بينما غيره من الأساتذة يتوجهون إلى غرفهم الخاصة للاستراحة وتناول المرطبات أو الشاي والقهوة، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وربما أدى هذا الدأب والإخلاص إلى حسد بعض الناس له، وفيهم بعض أهل العلم لما رأوا من تعلق الطلاب به وحبهم ومرافقتهم إياه في الجامعة وخارجها في الرحلات التي يشرف عليها الجامعة». فأبت المعاصرة إلا أن تكون حرمانًا.

لقد كانت علاقة الشيخ بالطلاب علاقة الزميل بالزميل، ورفع الكلفة والصديق بالصديق، وليس كعلاقة الأستاذ بالتلميذ، إذ محا الكلفة التي تحرِّج الطالب وأحل مكانها الثقة والأخوة.

يقول الشيخ: كنت أحمل معي في السيارة من أصادف من الطلاب إلى الجامعة، أو إلى المدينة، وهكذا كان الحال، ففي جميع الأحيان تكون السيارة مملوءة بهم في الذهاب والإياب». حتى وصل الأمر برغبة الطلاب وتعلقهم بالشيخ وشعورهم أنه لا فرق بينهم وبين أستاذهم، ما حصل في أحد الأيام أن الشيخ جاء إلى إدارة الجامعة بعد انتهائه من محاضراته، فترك سيارته أمام الإدارة ودخل فإذا بالأستاذ محمد عبد الوهاب البنا يريد النزول إلى المدينة، فخرج مع الشيخ إلى سيارته لتوصيله معه، فإذا بالسيارة مملوءة بالطلاب، فلما رأوا الشيخ البنا اضطر أحدهم للتنازل له وهكذا الحال.

وكان إذا دخل الجامعة في الصباح لا تكاد ترى السيارة من كثرة الطلاب الملتفين حولها يسلمون على الشيخ ويسألونه ويستفيدون منه.

مكايد الحاقدين

«أبت المعاصرة إلا أن تكون حرمانًا»

كل هذه القضايا آنفة الذكر مجتمعة أثارت عليه الحاقدين من بعض أساتذة الجامعة، فكادوا له ووشوا به عند المسؤولين في الجامعة، ولفقوا عليه افتراءات، وشهدوا عليه شهادات زور وبهتان ودسوا له الدسائس، ونسوا الله والوقوف بين يديه يوم لا تخفى عليه تعالى خافية، فعملت إدارة الجامعة بدورها على إنهاء خدماته. وتحمل الشيخ ما ألصق الوشاة به من

التهم والافتراء وقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، والله يشاء ويختار، ولا راد لمشيئته سبحانه، فرضي الشيخ بقضاء الله بنفس مؤمنة صادقة، بل سعد به؛ لأنه فتح عليه مغاليق المسائل والقضايا الإسلامية، ورجع بحماسة أكبر للبحث والتنقيب بما يفيد المسلمين في شتى علوم الشريعة المطهرة التي انشغل عنها بالتدريس لفترة طويلة.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز من كلمات ذات عبر، مسليًا بها الشيخ ناصر، وذلك عند الاستغناء عنه: حيثما كنت تقوم بواجب الدعوة لا فرق عندك، وذلك لمعرفته بقوة إيمانه بالله العظيم وعلمه الواسع وصبره على البلاء. ولعل هذا ما يفسر تكراره لدعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

أثر علم الألباني على الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

من آثار الشيخ محمد ناصر الألباني على الجامعة الإسلامية، وضعه في منهج الحديث الذي يدرس في الجامعة درس «علم الإسناد»، فكان الشيخ يختار من «صحيح مسلم» حديثًا للسنة الثالثة وآخر للسنة الثانية، من «سنن أبي داود»، فيسجله على السبورة بالسند، ويأتي إلى كتب الرجال كالخلاصة والتقريب، فيعمل لهما دراسة حديثية عملية في كيفية تخريج الحديث، وكيفية نقده من رجاله، فكان يعطي الطلاب هذه الدروس العملية من الكتب.

فعلم الإسناد هذا الذي ابتدعه الشيخ في الجامعة الإسلامية ونعمة البدعة هذه، يجعله أول معلم يقرر هذا العلم في جامعة في العالم، حيث إن جميع الجامعات الإسلامية في الدول العربية أو الإسلامية في ذاك الوقت

لم يكن فيها شيء من ذلك وحتى جامعة الأزهر القديمة العريقة لم تكن تدرس مادة الإسناد.

وكان لهذا الدرس آثاره بعد رحيل الشيخ عن الجامعة، وذلك عندما تولى الدكتور/ محمد أمين المصري رئاسة قسم الحديث في الجامعة. فنحا منحى الشيخ ناصر في تدريس مادة الإسناد، وأكمل مسيرته حيث جعل الطلاب يقومون بتحقيق المخطوطات الحديثية فرحمه الله رحمة واسعة.

فصارت سنة متبعة بعد ذلك في سائر الجامعات في العالم الإسلامي. ولا أدل على ذلك، من الكتب الكثيرة المخرجة والمحققة تحقيقًا علميًا، والتي تطبع اليوم بعد أن لم يكن ذلك معروفًا أو موجودًا من قبل.

من خلق الشيخ:
إنصافه الآخرين، ورجوعه عند وضوح الحق لديه

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني قبل كلِّ شيء إنسان يخطئ ويصيب، ولكن من الناس من تأخذه العزة بالإثم، فهو لا يعترف بخطئه، إن أخطأ سواء جاءه النصح من عالم أو شيخ مثله، أو جاءه من طالب علم، ولكن الشيخ ولله الحمد والمنة متبع لطريقة السلف متخلق بأخلاقهم جاعلٌ نصب عينية قول الله عز وجل ورسوله في كل شيء، فهو غفر الله له - لا يستحي من الحق- يعلنها كثيرًا في كتبه ومحاضراته ودروسه، وهذه خصلة حميدة طيبة لا نراها اليوم في كتب كثير من المعاصرين من متعصبة المذاهب وأشباه العلماء الحاقدين المتعالين على العباد كالحشرات الشامخة بأنوفها، المستعيضة عما تشعر به من حقيقة الذل، بما تتظاهر به من بهرج الكبرياء، ونسوا الاستفادة من خلق

وورع الذين اتبعوهم كأمثال أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يقول: «نحن قوم نقول القول اليوم، ونرجع فيه غدًا، ونقوله غدًا، ونرجع فيه بعد غدٍ، كلنا خطاء إلا صاحب هذا القبر». والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تبعه بذلك الخلق، وكان أصحابه يقولون عنه دائمًا: يكون له في المسألة قولان.

ولعمري، هذا ديدن سلفنا الصالح، وهذا مما جعل للشيخ محبين في كل مكان من عالمنا الإسلامي الكبير، وحسده كثير من جانب آخر. ونحن في هذا الباب نعطي نماذج مختصرة وقليلة لبيان هذا الجانب الخلقي فيه، والله المستعان.

١- «مختصر الشمائل المحمدية»:

يقول في مقدمته: «... هذا، وقد يجد القارئ الكريم في هذا المختصر شيئًا من الخطأ أو التقصير. والسبب الأول - كما هُوَ ظاهر- أن ذلك من طبيعة الإنسان، الذي كتب عليه أن لا يكون معصومًا، زد على ذلك أنني قمت به، وأنا بعيد عن كتبي ومراجعي، فالمرجو ممن وقف على شيء من ذلك أن يصححه، وأن يخبرنا به إن تيسر ذلك له، «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

٢- «صفة صلاة النبي ﷺ»:

يقول في مقدمته: «... وختامًا لابد لي من أن أشكر فضيلة الشيخ التويجري على اهتمامه بالكتاب، وحرصه على نصح القراء والطلاب، ومحاولته الكشف عن أخطاء الكتاب، حسب رأيه، وإلا فهو مخطئ في كل ذلك إلا ما سبقت الإشارة إليه من المسائل الأربع، وأرى أن من تمام الشكر أن أعترف بإصابته الحق فيها، وأني رجعت إلى رأيه فيها وهي:

أولًا: تفسير المأثم والمغرم في دعاء التشهد بالذنوب والمعاصي، على أنني قد سبق أن رجعت عنه في الطبعة الثالثة الصادرة سنة (١٣٨١هـ)، أي قبل صدور رسالة الشيخ بست سنين.

ثانيًا: قولي في مقدمة الطبعة الثانية من الكتاب في الصلاة إنها أعظم ركن من أركان الإسلام. قال الشيخ: «لابد من تقييد ذلك بما بعد الشهادتين». وأنا لا أخالفه فيما قال لأنه من باب «دع ما يريبك إلا ما يريبك»، وإن كنت عنيت أنها أعظم في الأركان العملية، على أن المقدمة المشار إليها لم نعد بعد إلى نشرها مرة أخرى! والقيد المذكور قد جاء صريحًا في آخر فصل «شبهات وجوابها» فلتقر عين الشيخ الفاضل بها.

ثالثًا: عدلت عن قولي في تفسير جملة **والشر ليس إليك**، في دعاء التوجه: «لأنه - أعني الشر- ليس من فعله تعالى «إلى قولي لأنه ليس في فعله تعالى شر»، تحقيقًا لرغبة الشيخ، وإن كنت لا أشعر بكبير فرق بين العبارتين، وقد ناقشته طويلًا في الرد الذي سبقت الإشارة إليه.

رابعًا: صححت ما جاء في نقلي عن «البدائع» تعليقًا على رفع اليدين في السجود بلفظ «ابن الأثرم»، فالظاهر أن الصواب «الأثرم» كما ذكره الشيخ احتمالًا وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ الطائي. والله أعلم.

هذا ولعل الله تبارك وتعالى ييسر لنا نشر الرد على الشيخ التويجري، فإن فيه تفصيل القول والأدلة على كثير من المسائل الواردة في الكتاب، وبخاصة رسالة الصلاة للإمام أحمد التي طالما نبهنا في آخر الطبعات السابقة على «أنها لا تصح نسبتها إلى الإمام أحمد»، بل قال الحافظ الذهبي فيها: «أخشى أن تكون موضوعة».

٣- «شرح العقيدة الطحاوية»:

١- وفي مقدمته على «شرح العقيدة الطحاوية» يقول رادًا على أحد المتعصبين: «... والواقع خلافه، فأنا الذي كتبته ووقعته باسمي، ورغبت في طبعه في آخر الكتاب، خضوعًا للحق، واعترافًا بالخطأ، دون أن أنسى وجوب نسبة الفضل إلى الذي نبهني عليه، فقد قلت في الاستدراك المشار إليه:

قلت: ثم تبين لي أنني وهمت في توهيم المؤلف رحمه الله، فإن اللفظ المذكور قد أخرجه الترمذي في تمام حديث: «اتقوا الحديث...» ورواه ابن جرير أيضًا، وقد خرجته على الصواب في تحقيق «المشكاة» رقم الحديث (٢٣٤). والفضل في هذا الاستدراك يعود إلى أحد المصححين في المكتب الإسلامي - جزاه الله خيرًا-.

والحديث: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، ومن قال في القرآن برأيه...».

٢- وفي (ص٣١) من هذا الشرح يقول الشيخ: «... ثم خرج الحافظ هذه الطرق التي أشار إليها، وبعضها حسن عنده، وابن رجب يقول فيها: «لا تخلو من مقال». ولذلك كنت توقفت عن إعطاء حكم صرح لهذا الحديث بالصحة حتى يتيسر لي النظر في طرقه، ثم يسر الله لي ذلك، منذ بضع سنين، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها، وأودعت تحقيق الكلام فيها، وبيان ما لها وما عليها في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٤٠).

وبناء على ذلك جزمت بصحته في هذه الطبعة كما تراه في الصفحة (٥٦٢).

والحديث: إن الله تعالى قال: «**من عاد لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشي أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصره، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذن لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**». والحديث رواه أيضًا ابن جرير، وإسناده ضعيف كما ذكرت في «تخريج المشكاة» (٢٣٤). وقد كنت ذهلت عن هذا في الطبعات السابقة، كما نبهت عليه في الاستدراك الذي ألحقناه بآخر الكتاب في الطبعة الثالثة. فسبحان من لا ينسى.

٣- وفي حديث: **إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم بأخذ الشاة القاصية**. ... «الطحاوية» (ص٥٧٨). صحيح الإسناد، وأقول الآن: كلا، ولا أدري كيف وقع هذا، فالسند ضعيف كما هو مبين في «تخريج المشكاة» (١٨٤)، ثم في الأحاديث الضعيفة (٣٠١٦).

٤- في تحقيقه على مشكاة المصابيح للتبريزي:

حدثني قائلًا: بأنه تيسر لي فيما بعد أن أضع ملحقًا على نسختي من مطبوعة المشكاة التي عليها تخريجه - السابق- استدركت فيه تخريج الأحاديث التي لم أتمكن يومئذ من تخريجها بسب ضيق الوقت كما نبه على ذلك أخونا الأستاذ الناشر زهير الشاويش في المقدمة بين الهلالين ص (ز) كما استدركت فيه بعض الأوهام التي وقعت لي مما لا ينجو البشر عادة منه.

[كل ما سبق مستفاد من «حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني].

الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين

أخطأت يا ابن عثيمين

قال د: سعود حسن مختار:

كان للشيخ ابن عثيمين أسلوب تعليمي رائع، فهو يسأل ويناقش ويوقف الطلاب ليعلمهم الجرأة والقضاء على الخجل، وأذكر أنه مرة تكلم في مسألة الإجهاض، ثم لما أذِّن لصلاة العشاء أبديت رأيًا طبيًّا له في المسألة، وبعد استئناف الدرس حمد الله، وقال: إن هذا طبيبًا يقول: أخطأت يا ابن عثيمين. ولم أقلها والله.. ولكن يريد أن يعلمنا أن الحوار، وقبول النقد رحمه الله ثم أحرجني رحمه الله فقال: قم وألحّ علي حتى قمت، وقلت الرأي الطبي حسب فهمي له، ثم علق عليه رحمه الله وكان لربما سئل في مسألة، فقال: لا أعلم، أو قال سوف أسأل شيخنا ابن باز، كما حدث في مسألة الإبر المغزية «الجلوكوز» ثم عاد في اليوم الثاني بإجابة الشيخ ابن باز رحمهم الله جميعًا. [المدينة، عدد: ١٣٧٧٩].

إذًا تصدق الآن

قالت نورة بنت محمد السعيد:

من أبرز الشواهد على ضربه للأمثلة وتقريبه للمعاني ما حدث له مع والدي رحمهما الله، حيث كان لدى والدي رحمه الله بيت زائد عن حاجته

ورغب في إيقافه بعد موته، واستشار الشيخ: هل يفعل أم يتصدق به في حياته؟ فقال له الشيخ: إذا كنت ما شيًا فهل تضع السراج أمامك أم خلفك؟ فقال: بل أمامي، فقال: إذًا تصدق الآن. [الدعوة، عدد: ١٧٧٦].

من مشكاة النبوة

قال الشيخ محمد بن صالح المنجد:

كان مرة يمشي في طريق العودة من المسجد، وطلابه يقرؤون عليه يقرأ عليه طالب في كتاب، فجاءه شخص من الخلف ودفع الطالب الأيمن، ثم دفع الطالب الأيسر واخترق ما بينهما، وأمسك الشيخ من كتفه وجذبه بقوة، حتى استدار جسد الشيخ من قوة الجذبة، حتى قال بعض طلاب الشيخ: الآن ربما ينفجر عليه، ولكنه فاجأهم أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتسم، وهش في وجه هذا الأعرابي الذي جاء بهذه الجلافة، وسأله عن حاجته فلما أخبره قال: خذ هذه الورقة، كتبت حاجاتي في ورقة أخرى، فاعتذر الشيخ فقال: أنت لا تقف لي، فلم يزل به حتى قضى له الشيخ حاجته، وواصل طريقه، وهذا يذكر بخلق النبي ﷺ مع الأعرابي الذي جاءه. [الدعوة، عدد: ١٧٧٧].

أصر على دفع المبلغ

قال الشيخ محمد بن صالح المنجد:

خرج الشيخ مرة مع شخص في سيارته من عنيزة إلى بريدة، في مهمة في مشروع خيري، فأسرع السائق المرافق للشيخ، وكان في الطريق نقطة تفتيش على السرعة الزائدة، فأوقفوا السيارة لإعطائه المخالفة، فنظر

العسكري في السيارة، فإذا فيها الشيخ محمد بن صالح العثيمين فاستحيا، وقال: تفضلوا امشوا، فمشت السيارة، وبعد برهة يسيرة قال الشيخ للذي معه: لماذا أوقفونا؟! قال: لأجل السرعة الزائدة، قال: ارجع إلى هذه النقطة، فاستدار ورجع على أمر الشيخ، فلما وصل إلى المكان، قال لهذا العسكري: لماذا أوقفتنا قبل قليل؟ قال: يا شيخ كان فيه سرعة زائدة، قال: ولماذا تركتنا نمضي؟ قال: لعلكم مستعجلين، وعندكم مسألة مهمة، قال: لا، كم هي مخالفة السرعة؟ قال: يا شيخ ما فيه داعي، قال: كم مخالفة السرعة؟ ثلاثمائة، هذه مائة وخمسين مني ومائة وخمسين تأخذها من هذا، لأنه خالف ولأني ما نصحته، وأصر على دفع المبلغ.

[شريط مائة فائدة من العلامة الشيخ ابن عثيمين].

اعملوا ما شئتم وسألقي الدرس

قال محمد رابع سليمان:

سجل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين خلال شهر رمضان الماضي موقفًا مؤثرًا أمام أطبائه الذين كانوا يشرفون على حالته الصحية داخل المسجد الحرام، فقد كانت حالة الشيخ الصحية تستدعي راحته في تلك الليلة وعدم إلقائه الدرس بعد صلاة التراويح، لأن الأطباء يرغبون في إضافة دم للشيخ وعمل بعض الفحوصات، لكن الشيخ قال لهم: اعملوا ما شئتم وسألقي الدرس، فكان يتحدث ويلقي المحاضرة والأطباء يضعون الإبر في جسده لزيادة الدم واستكمال الفحوصات، والتأكد من درجة الحرارة والضغط والحالة الصحية العامة، فهكذا وإلى هذه الدرجة كان حرصه على نشر العلم وتعليم الناس حتى آخر يوم من رمضان

قبل مغادرته المسجد الحرام. [الأربعاء، عدد يوم ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١ هـ].

أكبرتُ هذا الورع العظيم في شخصه

قال د: عبد الله بن إبراهيم المطلق:

في عام ١٤١٧هـ وفي شهر شوال استضافته جامعة الإمام في دورة المبتعثين في المعهد العلمي بجدة في محاضرة علمية للمبتعثين؛ ليجيب على أسئلتهم الشرعية، وقد تزامن ذلك مع اجتماع هيئة كبار العلماء في مدينة الرياض، فاعتذر الشيخ عن المحاضرة إلا أن يأذن له سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز فأذن له فحضر، وقد شرفت بمرافقته وقراءة الأسئلة على فضيلته، وفي نهاية المحاضرة طلبت منه توقيع انموذج يتم من واقعه صرف مكافأة لصاحب المحاضرة، فلما صلى الشيخ رَحِمَهُ اللهُ صلاة المغرب وجلست بجواره لاستكمال الإجابة على الأسئلة، قال لي: أين الورقة التي كانت في يدك قبل قليل، فأعطيتها إياه فمزقها، فقلت له: لم فعلت هذا يا شيخ؟! أحسن الله إليك قال: نحن الآن محسوبون الآن على هيئة كبار العلماء بالرياض، فأكبرت هذا الورع العظيم في شخصه رَحِمَهُ اللهُ حيث رفض مكافأة الجامعة على هذه المحاضرة رغم تكلفة مشقة السفر إلى جدة معللًا ذلك؛ بأنه في حال انتداب إلى الرياض لحضور اجتماع الهيئة فرحمه الله رحمة واسعة.

الاكتفاء بالاسم مجردًا

قال محمد بن عبد الله المشوح:

طلبت منه رحمة الله عليه أن نعقد معه لقاء عبر برنامج «في موكب

الدعوة» الذي يذاع عبر إذاعة القرآن الكريم؛ لنتناول شيئًا من سيرته وحياته وطلبه للعلم ومشايخه وتوجيهاته لطلبة العلم، فلبى بكل تواضع فصدرت ذلكم اللقاء موجز أثنيت فيه على الشيخ رحمه الله بما هو أهل له من الأوصاف العلمية والمديح الصادق.

فأوقفني وأوقف التسجيل وطلب محو وإزالة تلك المقدمة والاكتفاء بالاسم مجردًا من أي مديح أو اطراء أو ثناء. [الرياض، عدد: ١١٨٩٣].

انج بنفسك

قال سامي بن عبد الله المرشد:

في أحد مجالسنا مع الشيخ رحمه الله تعلمت شيئًا لن أنساه ما حييت: ألا وهو عدم التسرع في الفتيا إلا عن علم، فقد استفتاه أحد طلاب العلم لدى والدي الشيخ عبد الله بن عقيل عن شخص أحدث في الطواف، فإن توضأ وأعاد الطواف، فسيفوته موعد عودته بالطائرة، فهل يجتهد ويفتيه، أم ماذا يعمل؟ لاسيما وأنه يريد إجابة عاجلة غير آجلة... «فتمهل» الشيخ رحمه الله في إجابته، وصار في تفكير «طويل» و«عميق» ثم أفتى عليه رحمه الله بأن الإنسان أي إنسان غير مضطر للفتيا حتى ولو ألح عليه السائل وبيَّن حاجته للفتوى إلا عن علم لأن المسئول مسئول عما يفتي به يوم القيامة فلا يفتي ولا ينقل الفتوى إلا عن علم وتيقن، فمن إجابته رحمه الله أن قال كلمتين شافيتين كافيتين، وغنيتين بالإيضاح ألا وهما: **انج بنفسك**. [الرياض، عدد: ١١٨٩٦].

أنس بمقارعة الحجة بالحجة

قال د: حسن بن فهد الهويمل:

حين يخرج من قاعة الدرس في الكلية يلتف من حوله الطلبة، ويسألونه ويستفتونه ويراجعونه فيما لم يقتنعوا فيه، وهو يجيب ويفتي واقفًا أو ماشيًا، وقد يحتدم الخلاف بينه وبين تلاميذه الذين غرس فيهم الثقة والجرأة، حتى إذا بلغ مكتب العميد أو مقر القسم عاد إلى القاعة دون أن يأخذ زملاؤه من الراحة.

لقد نقل العملية التعليمية من الإلقاء والتلقي الشفوي إلى الحوار والمراجعة والمشاركة، وضخ في شرايين الدرس الفقهي المتني الواحدي المذهب أو قل المقدم من المذهب ما عرف بالفقه المقارن بحيث استدعى النص ومارس مع تلاميذه الاستقراء والاستنباط فكان في درسه لا يعطي الجاهزيات وإنما يعلم الطريقة، فلم يكن يوزع السمك، وإنما كان يعلم كيف يصاد، ومن ثم أتاح الفرصة للرأي الآخر وخرج العلماء، ولم يخرج الحفظة، ولقد أنس بمقارعة الحجة بالحجة ومواجهة الرأي بالرأي، وكانت ثقته بالنص وإيمانه بتحديد معطياته وفق النوازل سبيلًا، لتواصل التجديد وتعدد التحويلات ومراقبة المبادرات، أعطى الطلبة حق الإسهام في صناعة القضايا واستكمال متطلباتها، حتى لقد وجد فيه الطامحون مضامير لاكتشاف قدراتهم، وتحول درسه إلى ما يشبه المرافعات القضائية، كل طالب يقول ما في نفسه، وفضيلته يتفجَّر علمًا ومعرفة يسوق البرهان تلو البرهان، والحجة في أعقاب الحجة، لا يضن بعلم، ولا يبخل بجهد، ولا يتردد في سبيل إرشاد ضال أو تعليم جاهل، وهو إلى

جانب ذلك رجل محسن يسعى في حاجات الفقراء والمساكين، يدعم الجمعيات، ويجمع لها التبرعات ويشفع لكل ذي حاجة عند ولاة الأمر. [الجزيرة، عدد: ١٠٣٣٧].

انظر الوالد

قال النقيب صالح بن عبد العزيز العجلان:

أذكر في ذات مرة كنت في مجلسه في منى أثناء موسم الحج وكان في نفس المخيم سماحة مفتي الديار السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حيث يجلس بجانبه من أجل الفتوى لعامة الناس وبينما الزحام يختلف من وقت لآخر وكلاهما رحمهما الله مشغول في الفتوى والإجابة على الأسئلة دون كلل أو ملل حتى خف الزحام ولم يبق لديهما من يسأله، ثم أقبل رجل يريد الإجابة عن سؤال ثم اتجه لفضيلة الشيخ ابن عثيمين وسأل الرجل ثم رفض الشيخ محمد الإجابة وأشار لفضيلة الشيخ ابن باز قائلًا، انظر الوالد «أي اسأل الوالد ابن باز». [الأربعاء، عدد يوم ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ].

خصم مكافأة المحاضرات

قال الأمير فيصل بن بندر:

كان العلامة الراحل أستاذًا في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود، ومعروف أن الأساتذة لهم رواتب في ضوء ما يقدمونه من محاضرات وقد يحدث أحيانًا أن يكون للشيخ ارتباطات في عمله في هيئة كبار العلماء أو في الحج أو في أي ارتباطات أخرى، ومن ثم لا يتمكن من حضور بعض هذه المحاضرات، فلما جاءت أوراق تسلم الرواتب طلب من المسؤول عنها

خصم مكافأة جميع المحاضرات التي اعتذر عنها. [الاقتصادية، عدد: ٢٦٥٠].

الدوائر الحكومية

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يستخدم أقلام وأوراق الدوائر الحكومية في أعماله الخاصة والشخصية، حدثني أحد طلاب الشيخ: أنه في أيام الحج يقول كنا في صحبة الشيخ وقد وفرت له الدولة وفقها الله هاتفًا مجانيا بالصفر الداخلي، وإذا أراد أن يتصل الشيخ اتصالًا شخصيًا اتصل بهاتفه الخاص، وكان يقول: هذا هاتف يستقبل ولا يرسل، بل ويقول نفس طالب الشيخ: اتصل بي في إحدى المحاكم في المملكة وقال: لدي ورقة خاصة أريد أن أرسلها لك بالفاكس، أعطني رقم الفاكس فقلت: هذا الرقم يا شيخ.. يتحول إلى فاكس فقال الشيخ: أليس هذا رقم المحكمة؟ قلت: بلى قال: والفاكس أليس للمحكمة؟ قلت: نعم، قال: كيف أرسل ورقة خاصة على حساب بيت مال المسلمين؟ اذهب واشتري فاكسًا لأرسل لك الورقة، وتم ذلك. [شريط أحب لقاء ربه].

زيارة أحد المسئولين

قال الشيخ راشد الزهراني:

يقول أحد الإخوة وكان مرافقًا للشيخ: رافقت الشيخ إلى زيارة أحد المسئولين، فلما دخلنا قصره هالني ما رأيته من أنواع الأشجار والورود

وجمال الطبيعة فقلت وتذكرت نعمة الجنة نسأل الله عز وجل أن يرزقنا الجنة، فقال رَحِمَهُ اللهُ: سبحان الله، سبحان الله أو يحرك ذلك ما في قلبك عن الجنة؟ إن الجنة أعظم بكثير من أن تقارنها بهذه الدنيا الفانية.

يقول: ولما دخلنا المسجد؛ لأداء الصلاة، خرج الشيخ فلم يجد حذاءه، فبدأنا بالبحث عنها، فأمر له بحذاء فأبى، فرأيت جنديًا يبكي، فقلت: ما يبكيك رحمك الله؟ فقال: أبكي لما أرى.. هذا ابن عثيمين الذي ملأ اسمه الآفاق وهو بهذه الثياب ويبحث عن حذائه؟! [شريط معالم في حياة فقيد المسلمين ابن عثيمين].

الساعة الثالثة والنصف

قال محمد بن عبد الجواد الصاوي:

في مرة كان هناك دعوة من إحدى اللجان الخيرية في جدة للشيخ وطال لقاءهم في الليل إلى قرابة الواحدة ليلًا، وكان الشيخ ليس من عادته السهر، فكأنه ظهر عليه الإرهاق والتعب وبدا عليه التعب وكأنه يريد النوم، فرجعنا إلى البيت الذي كان ينام فيه الشيخ فدخل الشيخ لينام ونمنا قريبًا منه، وأثناء الليل وأثناء النوم انتبهت قرابة الساعة الثالثة والنصف وكنا قد نمنا قرابة الساعة الواحدة والنصف، فحينما انتبهت على صوت الشيخ وهو قائم يصلي، في الوقت الذي كان هو في أمس الحاجة فيه إلى النوم والراحة قائمًا لله جل وعلا يصلي [شريط الإمام ابن عثيمين، مجموعة من طلبة الشيخ].

سجد للسهو بعد السلام

قال د: إبراهيم الخضيري:

كان يتحمل كثيرًا من الانتقادات التي كانت توجه إليه من بعض الطلبة أذكر موقفًا طريفًا أنه رحمه الله صلى في عنيزة فسجد للسهو بعد السلام، فقام أعرابي وقال: يا أخي إذا كنت لا تعرف أن تصلي فلا تتقدم، فهم طلبته بالأعرابي، فاعتذر له الأعرابي بعد ذلك. [الدعوة، عدد: ١٧٧٦].

شكروا للشيخ جهوده

قال إحسان بن محمد العتيبي:

سافر شاب من «الأردن» إلى العمرة، وفي «خيبر» قدّر الله عليهم حادثًا صدموا به عمود الإنارة! فهرعت الشرطة لمكان الحادث وأصروا على السائق أن يدفع تكاليف العمود وكانوا قدر قدّروا ذلك (٢١٠٠٠) ريال!

وهذا السائق ومعه المعتمرون لا يقدرون على دفع هذا المبلغ!

فحجزت الشرطة جواز سفر السائق لحين تدبير المبلغ ودفعه عند رجعتهم من أداء العمرة.

فغلب الشباب على أمرهم وفكروا في طريقة تحصيل المبلغ، فلم يكن أمامهم إلا عرض الموضوع على بعض المشايخ، فكان أن ذهب واحد منهم وهو الذي حدثني بالقصة إلى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في غرفته في الحرم المكي بعد صلاة العصر.

فعرف الشيخ منه القصة، وقال له: تعال غدًا، وإن شاء الله يصير خيرًا!

قال الشاب: فلم أرجع للشيخ لأنني عرفت أن المبلغ كبير، والشيخ لا يعرفنا، ولم يعرف عن الشيخ أنه يساعد في مثل هذه الأمور، لكنني ذهبت والكلام لمحدثي تحقيقًا لرغبة الشباب في أن أكلم الشيخ فقط.

ثم رجع القوم إلى «الأردن» وكان لابد من المرور على «خيبر»! لأخذ الجواز، ولعل الله أن يكون قد رقق قلوبهم فيسقطوا عنا المبلغ.

ولما دخل الشاب إلى المركز أصرَّ الضابط على إحضار المبلغ كاملًا وإلا فلا سفر، فإذا أرادوا السفر فمن غير السائق! تحير الشباب وسائقهم! ماذا يفعلون؟

توجهوا للشاب الذي ذهب للشيخ ابن عثيمين فقالوا له: ألم تذهب أنت للشيخ ماذا قال لك؟ قال: تعال غدًا!! قالوا: فهل ذهبت له؟ قال: لا!!

قالوا: اتصل به لعل الله أن يكون الفرج على يديه ونحن محبوسون عن أهلنا هنا ونحن في آخر أيام رمضان!! قال: فاتصلتُ بالشيخ في غرفته فرد عليَّ وأخبرته بحالنا!

قال: أنت الشاب الأردني؟؟!!

قلت: نعم يا شيخ!

قال: ألم أقل لك تعال في الغد، لِمَ لمْ تأت؟

قال: استحييت!

قال: فلم كلمتني إذن؟؟! على كل حال: المبلغ كان جاهزًا في اليوم نفسه!!

فلم يصدق صاحبي الخبر، وكاد الشباب أن يطيروا فرحًا ومعهم

السائق بالطبع.

قال الشاب: والحل يا شيخ؟

قال الشيخ: أن أحوِّل المبلغ للمركز، وأطلب منهم أن ييسروا لكم أن ترجعوا إلى أهليكم قبل العيد!!

قال الشيخ: أعطني الضابط المسئول!

كلَّم الضابط الشيخ بنوع من اللامبالاة!

قال الشيخ: المبلغ عندي وأعطني رقم حسابكم وأنا أحوله لكم وأطلقوا الشباب وسائقهم ليذهبوا إلى أهليهم!

ردَّ الضابط بقلة أدب: آسفين يا شيخ! لابد من إحضار المبلغ نقدًا وإلا فلن يسافروا ولن يرجعوا!!

غضب الشيخ جدًا من الضابط، وقال: أقول لك المبلغ عندي دعهم يذهبوا إلى أهليهم!!

رفض الضابط مرة أخرى!

أغلق الشيخ السماعة.

قال الشاب: فما هي إلا لحظات والمركز ينقلب رأسًا على عقب!! ما الخطب؟؟

إنه أمير المدينة!! الأمير عبد المجيد وقتها اتصل يسأل عن الضابط الذي رفض طلب الشيخ وبدأ يتهدد ويتوعد العقوبة!!

حاول الضابط وأفراد الشرطة التستر على زميلهم!!

ورأى الشباب تغير اللهجة بصورة سريعة ومذهلة! إلى رقة وأدب!

فأمرهم أمير المدينة بإطلاق الشباب وسائقهم فورًا وتصليح العمود على حساب الدولة!!

لا يتصور أحد مدى فرحة الشباب بهذا الخبر! فشكروا للشيخ جهوده ووقفته معهم وارتفعت أصواتهم بالدعاء للشيخ وأكبروا في الأمير احترامه للعلماء وتقديره لمكانتهم في موقف لن ينساه أحد منهم ما عاش أبدًا! [المدينة «الرسالة»، عدد: ١٣٧٨٨].

الشيخ عبد العزيز بن باز

قال إحسان بن محمد العتيبي:

صلى الشيخ ابن عثيمين في الحرم المكي، وأراد بعد خروجه من الحرم الذهاب إلى مكان يحتاج الذهاب إليه إلى سيارة.

أوقف الشيخ ابن عثيمين سيارة تاكسي، وصعد منه، وفي الطريق، أراد السائق التعرف على الراكب!

السائق: من الشيخ؟

الشيخ: محمد بن عثيمين!

السائق: الشيخ ابن عثيمين وظن أن الشيخ يكذب عليه، إذ لم يخطر بباله أن يركب معه مثل الشيخ..

الشيخ: نعم. الشيخ!

السائق: يهز رأسه متعجبًا من هذه الجرأة في تقمص شخصية الشيخ!

الشيخ ابن عثيمين: من الأخ؟

السائق: الشيخ عبد العزيز بن باز!!

فضحك الشيخ.

الشيخ: أنت الشيخ عبد العزيز بن باز؟!!!

السائق: يعني أنت الشيخ ابن عثيمين؟؟؟

الشيخ: لكن الشيخ عبد العزيز ضرير، ولا يسوق سيارة!! ثم تأكد للسائق أنه هو الشيخ رحمه الله، ووقع في إحراج. [المدينة «الرسالة» عدد: ١٣٧٨٨].

كان يرتاح إلى نصحه

قال الشيخ محمد عبده يماني:

الأمر الذي يسترعي الانتباه أنه رحمه الله كان ينصح لولاة الأمر ويوجههم إلى بعض الأمور التي يراها جديرة بالعناية، ولكن نصائحه تأتي بصورة مباشرة إليهم وقريبة منهم وبحكمة وروية، ينشد من خلالها النصح دون تكلف أو رغبة في الظهور ولهذا فقد كانوا يحبونه وكنت أشعر أيام الملك خالد رحمه الله أنه كان يرتاح إلى نصحه ويفرح بلقائه ويتقبل منه النصح، وكنا نلاحظ عفة الرجل وترفعه عن الدنيا، فلم يكتب في طلب لجاه أو مال. وحتى عندما عرض عليه الملك خالد رحمه الله أن يشتري له منزلًا اعتذر وفضل أن يبقى في منزله قانعًا محتسبًا واستأذن أن يدفع المال لبناء المسجد إلى جانب مرفق خيري كمكتبة في جوار المسجد بدلًا من أن يبني له منزل. [الجزيرة، عدد: ١٠٣٣٤].

❁ ❁ ❁

كلمة تدون بماء الذهب

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري:

لما رجع من أمريكا بعد العلاج سئل عن حالته العلاجية والصحية فقال الشيخ كلمة تدون بماء الذهب قال: اعلموا أن المرض لا يقدم الآجال وأن العافية لا تؤخر الآمال والآجال، وإن أجلي مكتوب وأجلكم مكتوب من قبل أن يخلق الله السماوات والأرض فآمنوا بهذا، فإني آمنت به. [شريط أحب لقاء ربه].

لا تحرمونا هذا الأجر

قال إبراهيم بن محمد العثيمين:

أذكر آخر موقف من المواقف العظيمة والتي لا نستطيع نحن ولا الكثير من الناس أن يأتوا بمثلها وهو في أواخر أيامه رَحِمَهُ اللَّهُ في اليوم التاسع والعشرين في رمضان حصل له بعض التعب في الصباح، فقرر الطبيب المرافق أن يتم نقله من الحرم إلى مستشفى جدة، وبالفعل تم نقله إلي هناك وأدخل العناية المركزة وجلس هناك قرابة الأربع أو الخمس ساعات تقريبًا وعندما جاء العصر تحسنت حالته شيئًا ما فأصر أن يذهب إلى مكة رغم محاولاتنا إثناءه عن ذلك فقال: لا تحرمونا هذا الأجر فهذه آخر ليلة في رمضان وبالفعل ذهبنا إلى مكة ومعنا الأطباء المرافقون وأجلسناه في غرفة داخل الحرم، وأول ما دخل الغرفة طلب أن يتوضأ ويصلي المغرب والعشاء وبعد أن انتهى من الصلاة طلب أن يعد للدرس، ولما انتهى من الدَّرس قال للأطباء: كيف تحرمونني من هذا الأجر العظيم.

فهذا الموقف من يستطيع اليوم أن يقفه، فالإنسان إذا أدخل المستشفى لأي سبب جلس بعدها ما جلس حتى عن مباشرة عمله فهو يخرج من غرفة العناية المركزة للدَّرس فهذا تفكيره وهذا شغله الشاغل والحمد لله. [الدعوة، عدد: ١٧٧٦].

ندعو له بالهداية

قال د: سعود بن عبد الرحمن العجاجي:

بينما نحن مغادرين الفندق الذي سكنه، توقف أمامه طفل أمريكي ومعه والدته، فطبطب على رأسه وبدأ يداعب هذا الطفل الذي أثارته هيئة الشيخ وهيبته بلبسه السعودي والمشلح، فطلبت الأم من ابنها أن يحيي الشيخ فرد الشيخ بأحسن منها. وقال الشيخ موجهًا كلامه لأمه: الله يهديك للإسلام. وكان الشيخ خلالها غاض النظر، وعاف الخاطر، ثم طلبت الأم من ابنها أن يودع الشيخ بعبارة have anice day.

وسألني الشيخ ماذا يقول الطفل فأبلغته أنه يتمنى لك يومًا سعيدًا، لكن بعض المرافقين امتعضوا من ملبس المرأة، فقال أحدهم: قبح الله وجهك. لكن الشيخ لم يعجبه هذا الكلام فقال: يا إخوان ليس هذا من سمات الإسلام. الطفل وأمه قابلانا بوجه حسن طيب فأحرى أن نعاملهم بالمثل، فبدلًا من أن ندعوا عليهم جدير أن ندعوا لها بالهداية، الذي هو منهج الدين الرفيع. [الاقتصادية، عدد: ٢٦٥٠].

يضع نعله تحت إبطه

قال الشيخ محمد حسان:

لا أنسى أبدًا ذلك اليوم الذي صليت فيه العصر مع الشيخ رحمه الله في الجامع الكبير بعنيزة، فسلمت عليه وقبلته بين عينيه فأخذني من يدي وانطلق خارج المسجد، فاستحييت من الشيخ أن أترك يده لأحضر حذائي، فخرجت معه من المسجد بدون الحذاء، وإذ بالشيخ يضع نعله تحت إبطه ويمشي هو الآخر بدون نعليه، وكانت حرارة الأرض وقتها لا تطاق والشيخ إلى جواري يمشي وهو ممسك بيدي ويذكرني بالله عز وجل ويستعيذ بالله من حر النار حتى بكيت، وشعرت أن الشيخ رحمه الله أراد أن يريني بهذا الدرس البليغ. [البلاد، عدد: ١٦٢٣٠].

يقوم الليل ويدعو

قال الشيخ بدر بن نادر المشاري:

بلغني من أحد طلابه أنه كان قليلًا من الليل ما ينام في أوقات النوازل الكبيرة على الأمة خصوصًا في أيام أزمة الخليج ومأساة إخواننا في البوسنة والشيشان حيث كان يقوم الليل ويدعو ربه لهم بالنصر والثبات ورد كيد أعدائه الدين عنهم وكذلك دعاءه للمسلمين وحثهم للوقوف معهم. [شريط أحب لقاء ربه].

ينزل الناس منازلهم

قال أحد محبي الشيخ:

ومع إيمانه بالتفريق بين الحق والرجال إلا أنه كان ينزل الناس منازلهم ويقدر للعلماء قدرهم. دُعي إلى افتتاح تسجيلات إسلامية ضخمة فوجد لكل صاحب أشرطة لوحة كبيرة عليها اسمه، ولاحظ أن لوحة الشيخ الألباني صغيرة فأنكر عليهم وأمرهم بتكبير لوحة الألباني أو تصغير لوحات المشايخ الآخرين. وكان يدرّس كتاب «حلية طالب العلم» للشيخ بكر أبو زيد، وهو أصغر منه سنًا. [مجلة الأسرة، عدد: ٩٢].

***

[وكل ما تقدم مستفاد من كتاب: «صفحات مشرقة من حياة الشيخ ابن عثيمين» للشيخ حمود المطر. ط. دار ابن رجب، وهو كتاب نفيس جدًّا].

***

الشيخ عبد الله بن قعود رحمه الله الخطيب المفوه والعالم الناصح والمفتي المحقق

في أثناء إعدادي لهذا الكتاب بلغني خبر هذا العلم الأشم، والطود الشامخ، وضاق وقتي، ولم تسعفني مراجعي بأن أذكر طرفًا من مآثره ومناقبه فرضيت من كل ذلك بإثبات مقالتين:

الأولى: بقلم: خالد بن عبدالرحمن بن حمد الشايع المستشار الشرعي والمشرف التربوي وأحد الدارسين على فضيلته.

والثانية: بقلم للدكتور سعد بن مطر العتيبي أحد تلاميذ الشيخ.

مقالة الشيخ خالد الشايع

الحمد لله الحي القيوم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

ففي صباح هذا اليوم الثلاثاء الثامن من رمضان عام ١٤٢٦هـ ودَّعت الدنيا بمدينة الرياض أحد أئمة العلماء وأعلامها النبلاء، وهو الشيخ عبدالله ابن حسن بن قعود، عن عمر يناهز الثالثة والثمانين، بعد أن لازمه المرض بضع سنين.

وتناقل الناس الخبر آسفين حزينين، يعزي بعضهم بعضًا، ويسألون الله له المغفرة، وأن يخلف على الأمة فيه خيرًا.

وتوافد الناس للصلاة عليه في جامع الإمام تركي بن عبدالله بالرياض

عقيب صلاة العصر، حيث امتلأ هذا الجامع الكبير بالتمام وزيادة، وتقدم المسلمين أمير منطقة الرياض الأمير سلمان بن عبدالعزيز، وسمو نائبه الأمير سلطان بن عبدالعزيز، وعدد كبير من الأمراء والعلماء وطلبة العلم، وأمَّ الناس سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ المفتي العام للمملكة.

ثم وُوري الشيخ ابن قعود الثرى في مقبرة العود وسط مدينة الرياض التي اكتظت الطرقات المؤدية إليها بالسيارات والمشاة، فقد شيعه عدد كبير من الناس، فيهم الأمراء والعلماء والمسئولون وغيرهم من محبي الشيخ رحمه الله.

والشيخ ابن قعود رحمه الله صاحب علم وعمل ودعوة، فقد كان أحد أعضاء لجنة الإفتاء بالمملكة، إلى قبيل مرضه، وكانت له جهود علمية ودعوية في الخطابة والتعليم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفيما يلي ترجمةٌ مختصرةٌ للشيخ، استفدتها من مقدمة مجلدات فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء، إضافة لما أعرفه عن الشيخ لدى دراستي عنده وحضوري مجالسه:

فهو الشيخ العلامة عبد الله بن حسن بن محمد بن حسن بن عبد الله القعود.

ولد في ليلة ١٧ رمضان عام ١٣٤٣ هـ ببلدة الحريق الواقعة بوادي نعام أحد أودية اليمامة.

نشأ الشيخ في بلدة الحريق بين أبوين كريمين ببيت ثراء وفضل، فوالده أثناء نشأته أحد أثرياء البلد، وتعلم مبادئ الكتابة والقراءة من المصحف لدى محمد بن سعد آل سليمان، وذلك في آخر العقد الأول من عمره وأول الثاني، وقرأ القرآن بعد ذلك عن ظهر قلب، وبعض مختصرات شيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام محمد بن

عبدالوهاب رحمهما الله، على قاضي بلدته آنذاك الشيخ عبدالعزيز ابن إبراهيم آل عبداللطيف رَحِمَهُ اللَّهُ.

بعد هذا قويت رغبته في تحصيل العلم فرحل في ٢٧ صفر ١٣٦٧ هـ مفارقًا ذلك البيت الغني بأنواع الأموال، وتوجه إلى حيث يقيم سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في الدلم بمنطقة الخرج، ولازمه أربع سنوات، ما عدا فترات الإجازات ونحوها، فكان يعود فيها إلى والديه اللذين يتعاهدانه أثناء تلك الفترة بما يحتاجه من مال - جزاهما الله عنه وعن العلم خيرًا..

وقد سمع على الشيخ ابن باز أشياء كثيرة من أمهات الكتب وغيرها من كتب الحديث والفقه، ومن المعروف لدى طلاب الشيخ ابن باز أن الشيخ ابن قعود حرر على إحدى نسخ بلوغ المرام فوائد نفيسة لدى دراسته عليه في الدلم، وقد صورها البعض واستفادوا منها، وحفظ الشيخ ابن قعود أثناء وجوده لدى الشيخ ابن باز مختصرات كثيرة منها بلوغ المرام، وكان ميالًا كثيرًا للأخذ بالدليل - أي: لمسلك أهل الحديث..

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض في مطلع عام ١٣٧١ هـ الذي هو نواة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، التحق به وتخرج في كلية الشريعة في عام ١٣٧٧هـ.

وكان من مشايخه في الدراسة النظامية المذكورة: الشيخ عبد العزيز ابن باز، والشيخ عبدالرزاق عفيفي، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ عبد الرحمن الإفريقي، رحمهم الله.

أما وظائفه الرسمية: ففي عام ١٣٧٥هـ عين مدرسًا بالمعاهد، وفي ١٣٧٩ هـ انتقل إلى وزارة المعارف وعمل بها مفتشًا للمواد الدينية بالمرحلة الثانوية، وفي ١٣٨٥هـ انتقل إلى ديوان المظالم، وعمل به عضوًا قضائيًا

شرعيًّا، وفي ١/ ٤/ ١٣٩٧هـ انتقل إلى رئاسة البحوث العلمية والإفتاء وعمل بها عضوًا في اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء المنبثقة من هيئة كبار العلماء، بجانب عضويته في هيئة كبار العلماء، وفي ١/ ١/ ١٤٠٦هـ خرج للتقاعد.

واستمر في المشاركات في اللقاءات والنشاطات العلمية والثقافية، إضافة لإفتاء الناس فيما يعرضونه عليه، وتعاون مع جامعة الملك سعود بإلقاء محاضرات لطلاب الدراسات العليا بقسم الثقافة الإسلامية، وهكذا دروسه العلمية الأسبوعية المستمرة في المسجد والتي يؤمها كثيرٌ من طلبة العلم.

وأما في مجال الإمامة والخطابة: فقد عُين إمامًا وخطيبًا بجامع المشيقيق بالرياض منذ شعبان ١٣٧٨هـ، وفي المحرم ١٣٩١ هـ عين خطيبًا لجامع الملك فيصل (المربع) واستمر فيه على مدى ثمانية وعشرين عامًا، حتى وقت إعادة بناء منطقة مركز الملك عبدالعزيز التاريخي وترميم الجامع عام ١٤١٨هـ.

للشيخ ابن قعود رحمه الله عدد من المؤلفات منها: مجموعة خطب صدرت في أربعة أجزاء في أزمان متفاوتة باسم (أحاديث الجمعة)، وله تعليق على بعض مقررات الحديث والفقه في المرحلة الثانوية والمتوسطة إبان عمله مفتشًا بوزارة المعارف. إضافة لبعض الرسائل المختصرة، ومئات الفتاوى التي اشترك في الإجابة عنها مع أعضاء اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

ولدى دراستنا على الشيخ رحمه الله لاحظنا تجرده للحق واتباعه للدليل، وتميز أسلوبه رحمه الله بالبسط والتفصيل، بحيث يعرض المسائل عرضًا جليًّا يزول معه اللبس والتردد، ولاحظنا التأثر الكبير منه رحمه الله بشخصية شيخنا

العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه الله، في تعليمه وترجيحاته وورعه عن التفرد بالرأي أو الهجوم على المسائل بلا علم.

إضافة لتأثره بالشيخ ابن باز في ورعه وزهده، وانصرافه عن الدنيا وعدم مزاحمة الناس على ما في أيديهم، وفي تطلبه للحق والوقوف عنده، وفي بذله نفسه للناس.

وأما خطب الشيخ رحمه الله، والتي يسّر الله لي حضورها إبان دراستي في المرحلة المتوسطة، فقد تميزت بالمعالجات العميقة لقضايا العقيدة وللمسائل الحياتية الحادثة مع ملاحظة الاختصار والإيجاز، وكان له رحمه الله أسلوبه المتميز في الخطابة، الذي يلحظ معه سامعه إخلاص الشيخ لله تعالى، وشدة نصحه للناس، وتميزت خطبه بأنه كان يرتجلها ولا يقرأها من ورقة. فكان جامعه متجهًا لطلاب العلم ولعدد من وجهاء الناس، حيث يؤمونه من أنحاء شتى من مدينة الرياض، إضافة لعامة الناس، فكان المسجد يغص بالمصلين.

وقد كان الشيخ ابن قعود رحمه الله يُولي خُطبه اهتمامًا بالغًا بالتحضير لها، وبكيفية أدائها وإلقائها، كما يظهر ذلك في مقدمته لكتاب الخطب، ولذلك فكان الشيخ كثيرًا ما يبكي على المنبر لشدة تأثره وعظيم نصحه.

وحدثنا من هو أكبر منا أن الملك فيصل رحمه الله إبان حياته كان يصلي الجمعة في ذلك الجامع، فيسمع خطب الشيخ ويصلي وراءه.

وقد عرفنا عن الشيخ رحمه الله تواضعه ولطفه ورفقه وحرصه على مخالطة الناس، وكانت الابتسامة لا تغادر محياه، وكان لطيف المعشر قريب النفس، تكسوه مهابة العالم في حديثه وشخصيته وسمته، غير أن سماحته وتواضعه تقربه منهم، فكان رحمه الله رقيق القلب سريع البكاء، يبكي في الصلاة ولدى خطابته في النفس.

ومن لطفه وتواضعه ورفقه ما كنا نلاحظه من وقوفه للناس عند باب الجامع بعد خطبته وصلاة الجمعة، يجيب عن أسئلتهم ويحل إشكالاتهم، ولا يستطيل وقوفه في حر الصيف أو برد الشتاء. كان الشيخ في لبسه وهندامه نضرًا مرتبًا، غالب لباسه البياض، ومع حسن لبسه وجمال منظره إلا أنه ما كان يتكلف ولا يبالغ في هندامه.

ومنذ بضع سنين حلَّ بالشيخ مرضٌ تمادى به، حتى ألزمه بيته، فانعزل عن الناس وخاصةً بعد توالي الفتن والأحداث الجسام، فإنه إبان صحته ونشاطه كان لا يتفرد بالرأي، فكان كثيرًا ما يحيل على العلماء الآخرين، أو يطلب عرض المسألة على اللجنة الدائمة للإفتاء، وكان ازدياد مرض الشيخ بعد أن بلغه خبر وفاة شيخه العلامة عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث كان صدمةً بالغة له أثرت فيه وفي صحته تأثيرًا بالغًا.

وبعد: فإن وفاة عالم جليل كمثل الشيخ عبدالله بن قعود لمما يحزن النفوس ويكدر الخواطر، فقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أئمة العلماء الناشرين لسنة سيد الخلق محمد ﷺ، بالعلم والعمل، وما أجل ما قاله الإمام أيوب السِّختيانيّ: إنّه ليَبلُغني موت الرّجل من أهلِ السنّة؛ فكأنّما أفقد بعضًا من أعضائي.

ومما يبين أثر موت العلماء على الأمة ما نقله المفسرون في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١].

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها، وروي مثله عن غيره أيضًا.

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن هذا التفسير للآية حسنٌ جدًّا وتلقاه أهل العلم بالقبول. ومما جاء في بيان الرزية بفقد العلماء ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي

ﷺ أنه قال: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»**.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: فدلَّ هذا على أن ذهاب العلم يكون بذهاب العلماء.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا هلك علماؤهم.

ونقل عن علي وابن مسعود وغيرِهما قولهم: موت العالم ثلمةٌ في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار.

وقال سفيان بن عيينة: وأي عقوبة أشد على أهل الجهل أن يذهب أهل العلم.

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمُها ... متى يَمُتْ عالمٌ منها يَمُت طرفُ
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها ... وإن أبى، عاد في أكنافها التَّلفُ

إلى غير ذلك من النقول والآثار التي تبين الأثر الكبير الناشئ عن موت العلماء.

وينبغي أن يشار في هذا المقام إلى أن من حق علمائنا أن تبرز مآثرهم وأن تبسط سيرهم حتى يستفيد منها الناس، ولكي يقتدي بهم من بعدهم، ولأجل أن يُعرف ويحفظ فضلهم، وإن الله لحافظٌ دينه ومعلٍ لكلمته، والموفق من استعمله الله في بلاغ دينه والعمل بعلمه وتعليمه ودعوة الناس إليه.

فنسأل الله تعالى أن يغفر لشيخنا عبدالله بن قعود ويرفع درجته في المهديين، وأن يخلفه في عقبة في الغابرين، وأن يغفر لنا وله، وأن يفسح له

في قبره وينور له فيه، وأن يخلف على الأمة فيه خيرًا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

حرر في ٨/٩/١٤٢٦هـ

مقالة الشيخ الدكتور سعد بن مطر العتيبي عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن والاه.. أما بعد..

فكم في حياة الكبار من خفيات مفيدة، من حقنا أن نعرفها، ومن الإحسان إلينا أن يدونوها هم لنا إن استطاعوا، أو يحدثونا بها لندونها عنهم إن استطعنا، فكتابة المذكرات من مثلهم أو ممن حولهم لهم، تورِّث علمًا وتجربة يُنيرها العلم الذي يحملون.. فهي ليست (ماركة تجارية) تظهر في تخبطات قومية، أو تهورات ناصرية، أو إيديلوجية حرباوية في قوالب انحنائية تتنازعها شيوعية بائدة ولبرالية خادعة، ولا حتى في تعجلات شبابية، أو تعالمات تكفيرية، أو تلبيس شيطاني يتخذ من قَدْح أهل العلم قُربة!..

كلا إن حياة الكبار لها طعم آخر، إنَّها لون أصيل ثابت، وتلك ألوان صناعية باهتة متقلبة..

إنَّها الدروس العملية النافعة.. فكم في سير أعلام النبلاء من حكاية واقعة عملت في قلوب القارئين ما لم تعمله أسفار العلم التي حوتها مكتباتهم، ومرت عليها أعينهم.. وكم في المذكرات من تاريخ لم يؤرّخ في سواها، كما في مذكرات العلّامة الأديب الأريب الشيخ /

علي الطنطاوي رحمه الله. . فكم فيها من نزهة للقلوب وراحة للنفوس وعبرة للمتعظ، مع ما حوته من الفوائد المشار إليها. .

نقول إنا لله وإنّا إليه راجعون، رحم الله شيخنا العلامة الجليل/ عبد الله بن حسن بن محمد بن حسن بن عبد الله بن قعود. . العالم الفقيه الداعية المحتسب، هكذا نحسبه ولا نزكي على ربنا أحدًا. .

وهنا أُبيِّن: لا أريد أن أتحدث عن حياة شيخنا العلمية والعملية العامرة، كلا، فذلك شيء يطول الحديث عنه، فلا يناسب مثل هذا المقام. . وإنّما أريد أن أسجل شيئًا من وفاء تلميذٍ لشيخه، بذكر بعض الدروس المستفادة من حياته - مما يخطر الآن على البال - على سبيل الإيجاز الشديد. . لعلّ درسًا منها يعلق بنفس أبيّة طاهرة، فترث عن الشيخ شيئًا من الإرث العملي المنحوت من منهاج النبوّة. . فهكذا ينبغي أن تكون مراثي العلماء. .

لعل بعض شبابنا لم يتيسر له الجلوس بين يدي هذا الشيخ الجليل، ومهما قلت لأقرِّب لهم صورةً من حياته ومعنى للجلوس بين يديه، فسيقصر الوصف عن حقيقة مذاق جلسة من تلك الجلسات التي كنّا نستكثر الزمن بينها وبين تاليتها - وإن لم يفصل سوى ساعات في بعض الأحايين - ونحن نُقَبِّل جبينه تقربًا إلى الله عز وجل بتوقير ورثة الأنبياء - وهو يشيعنا عند باب داره، وحتى يصل إلى باب سيارة أحدنا رغمًا عنّا، أو وهو يتقهقر إلى مظلة باب الدار ويلوح لنا بيديه، ووجه إلينا حتى ننصرف! إذْ لم تُجْد محاولاتنا في إقناعه بالاكتفاء بالتوديع عند الباب حتى صرنا نقرِّب له حذاءه - دون علمه - لعلمنا بعزمه على السير معنا - ولو حافيًا - حتى ننصرف!

كانت بداية صلتي بالشيخ رحمه الله في حضور خُطَبه وصلاة الجمعة خلفه في جامع الملك عبد العزيز رحمه الله الواقع بحي المربع من مدينة الرياض، إذْ

كنت أحضر في معية والدي رحمه الله وجعل قبره روضة من رياض الجنة وأسكنه فسيح جنته - . . وكنا نخرج من خطبه بموعظة ممزوجة بالفقه والتأصيل والتربية مزجًا عجيبًا ترسّخه نغمة الصوت الصادقة، والعبرة الخاشعة، والبكاء الذي لا تجدي محاولات الشيخ في كبته! ومن يقرأ كتابه (أحاديث الجمعة) يجد فيها شيئًا مما ذكرت، ومن يستمع بعض تسجيلات خطبه يدرك كثيرًا مما وصفت، ومن حضر تلك الجُمع تذكّر أكثر مما أحاول استذكاره. . كان روّاد خُطبه نُخَبٌ مُتميِّزة من العلماء، وأذكر منهم العلامة الجليل شيخ الحنابلة الشيخ/ عبد الله بن عقيل، والشيخ الجليل العلامة عبد الرحمن البراك حفظهما الله، وأمّا من يحضرها من طلبة العلم فقد لا أكون مبالغًا لو قلت: إنَّهم جلّ المصلين خلفه!

ثم شاء الله عز وجل أن نقترب من الشيخ أكثر، إذ كنت أتصل به كثيرًا لأعرض عليه بعض ما يشكل عليَّ من المسائل أثناء الدراسة، ولا سيما فيما يتعلق بالتخصص (السياسة الشرعية)، والشيخ على علم بهذا الفنّ، بل قد مارس بعض مجالاته عمليًّا أثناء عمله في ديوان المظالم، وكنت أجد أجوبة تدلّ على عمق علمي، يستند فيها الشيخ إلى النصّ ويرعى فيها المقصد. . ولمّا رأيت من الشيخ انشراحًا، عزمت وبعض زملائي على أنّ نتقدم إلى الشيخ بطلب دروس خاصّة في فنّ السياسة الشرعية، فوجدنا منه ترحيبًا عجيبًا، ولم نلبث أن حدّدنا الوقت والكتب، وبدأنا القراءة على الشيخ. . فأنهينا عليه - بحمد الله - كتاب السياسة الشرعية، للإمام أبي العبّاس ابن تيمية، وكتاب: مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية، لأبي عبد الله البعلي، والاختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية لأبي الحسن البعلي، وكتاب: الطرق الحكمية، للعلامة ابن قيم الجوزية، وكتبًا أخرى موسمية، وبعض البحوث العلمية، إضافة إلى بعض الكتب التي بدأناها ولم ننهها، بسبب اشتداد المرض عليه

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورفع الله درجته وأجزل الله مثوبته..

كان هذا الدرس خاصًا، فلم يكن يحضره سوى بعض الزملاء - ومنهم الآن القضاة والأساتذة الأكاديميون، ووالله لقد كنّا نجد الشيخ - أحيانًا - واقفًا الباب ينتظرنا! ويصرح لنا بمدى اهتمامه وحبه لهذا الدرس!.. ومع ما يستفاد منه من التواضع والسمت الحسن، كان مما يميز درس الشيخ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورفع درجته وأجزل الله مثوبته - استحضاره السوابقَ القضائية والتاريخية، مما له صلة بموضوع كثير من الدروس.. وهذا في حد ذاته، مطلب أندر من الكبريت الأحمر كما يقال..

وفي ظلال هذه الجلسات العلمية التي تعقد في مكتبة الشيخ المنزلية، كان المجال خصبًا للتعرّف على منهج الشيخ في البحث والترجيح، والتطبيق الفقهي على الوقائع..

فكان مما استفدناه منه في هذه الجلسات: أنَّ الشيخ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - لا يأبه بأي قول ليس له مستند من الكتاب والسنّة، مهما كان قائله. وهذا من آثار تتلمذه على الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ! و كان يرى أنَّ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو مجدِّد فقه الحديث في الجزيرة العربية..

وحكى لنا - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - بدايات اعتماده للأخذ بفقه أهل الحديث، قائلًا: كنت أتردد على ورّاق بحي البطحاء بالرياض، فوقع نظري ذات مرّة على كتاب: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، للعلامة الشوكاني، فلمّا تصفحته، أُعجبت به كثيرًا، فاشتريته واقتنيته، ومن ثمّ تأثرت بمنهجه في الاستدلال. وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحتفظ بنسخة من (بلوغ المرام، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ) عليها تعليقات الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وتصحيحاته وتعقيباته، وبعضها بخط الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان يخرجه لنا إذا ما عرض لنا حديث للشيخ ابن باز تعقيب عليه.. فقد كان يستذكر تلك

الأحاديث من بين بقية الأحاديث..

ومما استفدناه منه رحمه الله: أنَّ على طالب العلم أنّ لا يكون متذبذبًا، تتجاذبه الأقوال والآراء، بل عليه أن لا يقبل قولًا إلا بحجة، وإذا ثبت لديه القول بالحجة، فلا ينتقل عنه إلا أن يتيقن حجة أقوى من حجته السابقة.. وكم في هذه الفائدة من فقه وعلم..

ومما استفدناه من سيرته العطرة، أنَّ على طالب العلم أن يلزم غرز العلماء الكبار، ليعرف ما يأتي وما يذر، فيحيى عن بيِّنة، ولا يقع فريسة لكاتب هالك، أو متعالم جاهل.. لقد كان الشيخ على صلة قوية بمشايخه، وكان يلجأ بعد الله عز وجل إليهم.. ومنهم على سبيل المثال، العلامة الجليل الفقيه الأصولي الكبير الشيخ: عبد الرزاق عفيفي رحمه الله.. فكان يشكو إليه بعض ما يعتب عليه أقرانه مما لم يدركوه من أمور الواقع، فيجد من الشيخ عبد الرزاق رحمه الله عونًا له على الثبات وردّ الشبهات..

ومما استفدناه منه رحمه الله: ما نصّه: «الأوامر التي تأتي على خلاف القاعدة، لا تؤخذ على أنَّها قاعدة، وإنَّما تؤخذ كما جاءت نادرة، مثلًا: قراءة النبي ﷺ للطور والمرسلات والأعراف في المغرب، التي الغالب فيها القراءة بقصار المفصّل، فلا يؤخذ بالسنّة التي وردت على خلاف الغالب، في الغالب؛ أنّنا نكون عكسنا القاعدة " . قلت: كم أجرى بعض النّاس النادر مجرى الغالب، فوجدنا من يقرأ الزلزلة في ركعتي الفجر في الأسبوع عدة مرات زاعمًا اتّباع السنّة!..

ومما يزيدك حبًّا للشيخ، اهتمامه بالعلم الأصيل، دون التعلق بالتوابع والاستكثار من الإجازات، وما إليها، وهي قاعدة قديمة عنده، بل إنَّ من تطبيقاتها القديمة لديه - وقد ناقشته فيها لعدم تسليمي له بها - : أنَّه ختم القرآن على أحد القراء في المسجد النبوي، فلما انتهى طلب منه المقرئ أنّ

يتبعه لداره، ليكتب له الإجازة في قراءة حفص عن عاصم، فأبى شيخنا ذلك، وقد دُهش المقرئ لمَّا قال له الشيخ: ما جئت للإجازة، إنَّما جئتك لأضبط القراءة! وإنَّما لم أسلِّم لشيخي بالامتناع عن الإجازة، لأنَّ إجازات القرآن والقراءات، لا زالت بعافية ولله الحمد، فلا تُعطي إلا لمن يستحقها، بخلاف غيرها، وكتاب الله عز وجل، لا يُتقنه من لم يأخذه من أفواه القراء المتقنين..

قلت: وأمَّا ما وافقت شيخي فيه بهذا الشأن، فهو مقت اللهث وراء الإجازات، والانشغال بها عن العلم، حتى رأيت من الطلبة من لا همّ له إلا هي، يرحل ويظعن من أجلها، ورأيت من يحضر بعض مجالس العرض في آخر جلسة، ليسمع حديثًا واحدًا أو لا يسمع شيئًا، حتى يدوِّن اسمه فيمن حضر! والله المستعان!

وأمَّا سعة أفق الشيخ وعنايته بشؤون الأمّة، وحبِّه لجمع الشمل، وتوحيد الكلمة، وقدراته الدبلوماسية في هذا الشأن، فشيء قد لا يخطر على البال! ولو تركت لقلمي المجال، لربما طال المقام وفاتت المناسبة دون أن أقدم لمحبيه عنه شيئًا..

ولكن أكتفي بذكر طرفٍ - حرّج علينا الشيخ نشره في حياته - ليكشف لنا شيئًا من جهوده العملية في متابعة شؤون الأمّة التي لا تحدّها الأقاليم..

مرّة كان الحديث في الدرس عن الشفاعة - فيما أظن - وأثناء القراءة، ضحك الشيخ فلفت انتباهنا، ثم سكت مبتسمًا برهة، ونحن نبادله الابتسامة نتحيّن ما بعدها، وحينها أدرك الشيخ مبتغانا، وكاد يعود بنا حيث وقفنا، ولكن النّفوس قد تهيئت لأمر تردّد فيه الشيخ، فلم ندعه حتى نطق، فقصَّ علينا القصّة التالية (أسوقها كما أتذكرها قدر المستطاع) قال:

ذات مرّة اتصل بي الشيخ عبد العزيز (يعني ابن باز - رحمه الله - وكان ابن باز حيًّا حين إخبارنا بالقصة) بعد صلاة العصر، وقال: يا شيخ عبد الله! أريد أن تأتيني الآن! فاتجهت إليه وأنا أُفكِّر: ماذا يريد الشيخ في هذا الوقت الذي هو وقت راحته في العادة.. ولما وصلت داره، وجدته في انتظاري، يترقب مجيئي إليه وبيده ظرف مغلق.. فرحب بي ثم سارَّني قائلًا: يا شيخ عبد الله، تذْكِرتُك إلى باكستان جاهزة، وأريد أن تسلِّم هذا الخطاب لأخينا ضياء الحق بنفسك!.. وحكى لي قصة الظرف باختصار.. فحاولت أن أعتذر لبعض الأشغال الخاصة، فلم يترك لي الشيخ مجالًا، وقال: استعن بالله، وستجد الإخوة في انتظارك هناك!.. قال: فجهزت نفسي وسافرت إلى هناك، ولما وصلت مطار إسلام آباد، وجدت جمعًا من الإخوة في استقبالي، وسرنا إلى حيث كان الرئيس ضياء الحق رحمه الله، ووجدنا ضياء الحق عند مدخل المبنى، فاستقبلنا ورحب بنا ترحيبًا قويًا، ثم جلسنا وسلمته الخطاب، فنظر فيه، ثم قال: إن شاء الله.. إن شاء الله.. ولمَّا هممنا بالانصراف، قال: بلّغ سلامنا للشيخ ابن باز.. وإن شاء الله يسمع ما يسره (أو كلامًا نحو هذا). قال: وكان الشيخ قد قال لي: هذا الخطاب فيه شفاعة خاصّة في أخينا نجم الدين أربكان، لعلّ الله ييسر له الخروج من السجن.. وكان نجم الدين أربكان - وفقه الله - قد سُجن حينها بأمر من الرئيس التركي الجنرال الهالك كنعان إيفرين - عليه من الله ما يستحق..

قلنا: يا شيخ عبد الله! وما علاقة ضياء الحق بالموضوع؟ لماذا اختاره الشيخ ووجه له الرسالة؟! قال: سألت الشيخ - يعني ابن باز - فقال: له به علاقة صداقة قديمة! لعلّ الله ينفع به.. لعلّ الله ينفع به..

ثم سألنا الشيخ جميعًا بصوت متقارب: هل كان لهذه الشفاعة أثر؟ قال الشيخ: نعم لم نلبث حتى سمعنا خبر إطلاق سراح نجم الدين أربكان، وما

إن خرج حتى بدأ في تأسيس حزبه الإسلامي باسم جديد.

قلت: وأمَّا ما لم يذكره شيخنا عبد الله بن قعود رَحِمَهُ اللَّهُ لنا أثناء سرده لهذه القصّة، فهو: لماذا اختار شيخنا ابن باز شيخَنا ابن قعود لهذه المهمّة؟ بل لماذا كان يختاره ممثلًا عنه في عدد من المهام الدقيقة، والاستجابة للدعوات الخارجية الموجهة إليه من عدد من المؤتمرات الإسلامية! بل لماذا أرسله لمناقشة مدعي النبوة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي قصة أخرى عجيبة!

ولعلَّ مما يمكن اندراجه في الجواب: أنَّ شيخنا ابن قعود - رَحِمَهُ اللَّهُ ورفع درجته وأجزل الله مثوبته - سلفي حقيقة، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، علم، وفهم، ومرونة شرعية على نهج المرسلين، ذلَّة على المؤمنين وعزّة على الكافرين..

لقد كان له عناية بالحركة الإسلامية في تركيا، ذكر بعضها في محاضرة ألقاها في جامعة الملك سعود في حشد كبير من الأساتذة والطلاب والمهتمين تحت عنوان: (الدعوات الإصلاحية وأثرها في المجتمع)، وله رحلات أجنبية عديدة حضر خلالها مؤتمرات دولية ولقاءات عامّة، ووقف فيها على كثير من المواقف التي تتطلب مرونة شرعية يتقنها أيّما إتقان، مع ما وهبه الله عز وجل من خلق و معرفة بذوقيات التعامل الخارجي ورسمياته. حتى في طريقة أداء العبادة في بعض الأحوال: ومن ذلك أنّه كان بصحبة أحد المبتعثين في الولايات المتحدة الأمريكية، فحان وقت صلاة العصر، وكانوا في أحد المطارات الأمريكية الدولية، فسارّه الطالب المبتعث: يا شيخ حان وقت الصلاة، وأريد أن أرفع صوتي بالأذان؟ فردَّ الشيخ: لا.. ثم بدأ الشيخ مباشرة يؤذن بصوت عادي - كأنما يحدثني - ونحن نسير، نحو الصالة الأخرى لنطير منها إلى المطار المحلي، ثم

قال لي: لا ضرورة لرفع الصوت.. الحمد لله الدين يسر.. هذا قد يضرّ، ونحن اثنان.. أو كلامًا نحو هذا..

أتذكر هذه القصّة، ونحوها من قصص علمائنا الذين نشأوا في طاعة الله بالعبادة وطلب العلم، وابيضت لحاهم في ذلك غير محرِّفين ولا منْحرفين ولا مغَيِّرين.. وأتذاكرها أحيانًا مع الزملاء الذين أشرت إليهم، فلا ينتهي عجبُنا من الشيخ، ومعرفته بدقائق من الواقع العالمي، لا يعرفها كثيرون من أصحاب الشأن، وقد سألت عددًا من الأكاديميين العسكريين عن علاقة ضياء الحق بكنعان إيفرين من الناحية التاريخية، فقال لي بعضهم: كان الضبّاط الباكستانيون يَتَخَرَّجون في الكليات العسكرية التركية!.. وهل في هذا جواب يُفسِّر الواقعة، أو أنَّ جوابها في غيره؟! الله أعلم..

كما لا ينتهي عجبُنا من نابتة لا تعرف قدر علمائنا الكبار، وتظنّ أنَّهم لا يدركون من أمر الواقع إلا دون ما هم يدركون..

ولا ينتهي عجبنا كذلك من فئة تظنّ أنَّ علماء الأمة لا حقَّ لهم في الاهتمام بأمر المسلمين، فما شأن أهل الآخرة بأهل الدنيا، وكأنَّ علماءنا لم يبطلوا العلمانية من جذورها، ويُفنِّدوا مقالات دعاتها من أساسها..

ثم عجبنا ممن يزعمون الثقافة ويتزعمونها - رغمًا عنها - ثم هم يحاولون التنقّص من كبار العلماء مباشرة أو من خلال النيل من المؤسسات الشرعية التي ولَّاهم عليها ولاة أمرنا - وفقهم الله لما يرضيه - وكأنَّهم أوصياء حتى على الشريعة التي لم يتخصصوا فيها! فتجدهم ينقدون الفتاوى، ويسيؤون فهم النصوص، بل إنَّهم لا يحسنون قراءة بيانات أهل العلم في الأمور العامة التي يرون وجوب بيانها للنّاس، نصحًا للأمَّة، وحذرًا من كتم العلم، ودرءًا لما يُتَوَقَّع

من الفتن.

وترد على خاطري خواطر من المشهد الإعلامي - الذي يفتقد الشرعية النظامية بمخالفة كثير من مواد السياسة الإعلامية - حول هذا المعنى، منها:

هل هذا التحصيل العلمي، والفقه الشرعي، والوعي الدعوي، ووقار المشيخة، وتجربة السنين، هل هذا كلّه هو الألم الذي يستنطق الأعداء بالخوف والتخوف والتنادي لحصار الخير الذي بلغ الآفاق؟ وهل جيل الصحوة الذي ينقاد للعلماء - امتثالاً لأمر الله عز وجل - أشدّ رهبة في صدورهم من الله؟ وهل هؤلاء قوم يفقهون! لنجد أي سندٍ لما يتقوّلون؟..

وأنا في خضم هذه الأفكار.. أتذكر بعض آي الكتاب، فأجدني أردِّد قول الله عز وجل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾ [الحشر: ١٣].

❊ ❊ ❊

[واستفدت هاتين المقالتين من موقعنا المبارك: «ملتقى أهل الحديث» بارك الله في القائمين عليه، وفي أعضائه وزواره؛ فإنه شامة في جبين الشبكة العنكبوتية].

❊ ❊ ❊

الشيخ العلامة مقبل بن هادي الوادعي

صفحات مضيئة من مراحل الشيخ التعليمية مُحصلًا ومُعلمًا يستفيد منها طالبُ العلم

الصفحة الأولى: الهمة العالية:

وتتمثل في نبذه للدنيا، مع تيسر جمعها، فقد اغترب غيرُه، ورجع كلُّ واحدٍ منهم بشيء من حطام الدنيا، والشيخُ قد رجع بما كان سببًا لعزته في الدنيا والآخرة، وعزةٍ لأهل بلده، بل لليمن عامة، وكان يتحرق بشدةٍ لحال أهل بلده، ويرى أنه لابد من إنقاذهم، وكان يرى أن تُجعل الدنيا تابعة للعلم، فقد قال: **لا يفلح أحد من طلبة العلم إلا إذا جعل الدنيا لوقت فراغه.**

الصفحة الثانية: صبرِه على طلب العلم ونشره:

لقد تحمل الشيخ في سبيل تحصيلِ العلم النافع المشاقَّ والمتاعبَ، حين كان طالبًا، وحين صار عالمًا مُعلِّمًا، فقد صبر على مرحلة اليتم، وافتقاد الأب الحنون المشجع لولده على الخير، وصبر على المجتمع الذي فُقد فيه علمُ الكتابِ والسُّنَّة، وفي أثناء طلبه للعلم لم يكن هناك أحدٌ يساعده على طريقه الذي يسلكه منذ بدأ طريقه، بل كان هو الذي يعمل، ويتعلَّم، وكان دائمًا إذا ذكر تعلمه في جامع الهادي يقول: **اليوم الذي نجد فيه خبزًا ناشفًا مع شيء من الطماطم يعتبر أسعد يوم، وأهنأ يوم من حيث المأكل.**
ويذكر أنَّه في بعض الأيام كان يذهب إلى خزانة الخبز، أو المكان الذي يُرمى فيه كسرُ الخبر، التي لا يُحتاج إليها ويُخرج تلك الكسر، وقد علت

عليها خيوط العنكبوت، ويمسح عنها ذلك ويأكلها، ويذكر أنه عندما رحل إلى مكة من نجدٍ، لم يكن عنده إلا إيجارُ السيارة، وشيءٌ من التمر، وأنه بَقِيَ على ما معه من التمر عند وصوله إلى الحرم حتى نفذ منه، وكان يأكله على الماء، ثم بعد ذلك كان يعاني من عدم وجود مالٍ ينفق على نفسه منه، ومن عدم وجود فراش يفرشه أو يتخذه غطاءًا في الحرم، فكان إن ذهب إلى واحد من أهل بلده المغتربين ليسكن عنده تأذى بأعمالهم ومعاصيهم، ومن سماعِ الملاهي وغير ذلك، وإن نام في الحرم لم يكن معه ما يتغطى به، وها هو يحدثنا عن موقفه: قال رَحِمَهُ اللهُ: **بقيت في مكة أشرب ماءً، وآكل تمرًا، حتى انتهى التمر، وأردت أن أشتغل، إن ذهبت إلى أصحابي شغلوني باللهو والطرب، وإن ذهبت إلى الحرم بردتُ، بعد ذلك اشتريت لي بطانية، وأشرب من زمزم وما تيسر من الطعام ونوم في الحصوة ويعلم الله أني أتصور أني ملك.** أ هـ.

وهكذا استمر يعمل ويتعلَّم، وكان يتعب، وترهقه الأعمالُ جدًا، حتى قال عن حاله: **إذا كان الشغل مرهقًا فأنسى في النهار**، أي معلوماته بسبب الإرهاق، وهكذا صبَّر نفسه وجاهدها، ولم يجعلها تسترسل مع ملذاتها وما ترغب فيه من قراءة المجلاَّت وغيرها، وصبَّر نفسهُ على الغربة عن بلده، وطبيعة النفس تهوى منزلها الأول وتحبه، وبعد خروجه صبر على تنكُّرِ المجتمع له القريب منهم والبعيد، وواجه في بداية أمره المجتمع بأسره.

وصبر على تعليم أبناء المسلمين، وما كان يجد الراحة إلا مع العلم، فقد سمعته يقول في بعض دروسه: **ما نستريح من هموم الدنيا، إلا إذا سمعنا أخًا يقرأُ علينا: قال البخاري: حدثنا محمد بن كريب، وساق السند، وآخر يقول: قال مسلم حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة** إلخ.

كل هذا إذا ذكر ذهبت عنا همومُ الدنيا، وسمعته يقول: **ليس في الدنيا**

شيءٌ يماثلُ العلم.

وقال: **إني بحمد الله أحبُّ كتاب ربِّي والسنَّة الغرَّاء سيما «الصحيحين» والقراءة فيهما عندي أحلى لذة في الدنيا، وإني إذا فتحت «صحيح البخاري» وقلت: قال الإمام البخاري** رَحِمَهُ اللَّهُ: **حدثنا عبد الله بن يوسف، قال حدثنا مالك... إلخ، أو فتحت «مسلمًا» وقلت: قال الإمام مسلم** رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالى: حدثنا يحيى بن يحيى، قال قراءة على مالك، أنسى مشاغِل الدنيا ومشاكِلَها.** أ هـ.

وكان يخرج إلى درسه أحيانًا وهو في غاية من التعب، وخاصَّةً في أيامه الأخيره، فكانت حياتُه مع العلم سواءً كان في بيته، أو في مسجده، أو في طريقه ورحلته، وعلى فراشه، فلا تراه إلا سائلًا أو مُجيبًا -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى- سواءًا كان مريضًا أو صحيحًا، بل كان يقول: **أنا استشفي بدروسي.**

فقد كان الشيخُ حريصًا على تعليم نفسه وتعليم غيره، فقد بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ بذل العلم وتبصير غيره، وهو في المرحلة الثالثة من مراحل تعليمه رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي أثناء طلبه للعلم، وكان له دروسٌ لطلاَّبِ العلم وهو في معهد الحرم، كذلك وهو في الجامعة في المدينة قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **منذ كنت في الحرم المكي، وأنا أدرِّس بعضَ طلبة العلم في «قطر الندى» وفي «التحفة السنيَّة» وعندما كنت في المدينة، كنت أدرِّس بعض إخواني في الحرم المدني في «التحفة السنيَّة»، ثم وعدت إخواني في الله بدروسٍ في بيتي بعد العصر في «جامع الترمذي» و«قطر الندى» و«الباعث الحثيث».**

الصفحة الثالثة: الثبات على الحق:

الذي يدقِّقُ في المراحل التي مرَّ بها الشيخ يرى أنه ثبت أمام أمواجٍ متلاطمة من الأهواء، فقد درس عند الشيعة أربَع سنواتٍ، وسنتين على يدِ «مجد الدين» -وهو شيعي- وكذلك في الجامعة كانت تُحيط به جماعةُ

الإخوان المسلمين، ولم يكن قد انكشف أمرهم له، ومع هذا كله فالشيخ ثبته الله تعالى على الحق، ولم يتأثر بشيءٍ من ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ.

الصفحة الرابعة: عدمُ سكوته عن باطل يسمعُهُ وهو في مرحلة التحصيل:

فقد كان بين يدي الشيعة وفي جامع الهادي، وكان يُنكر بعض المنكرات، من ذلك أن رجلًا من الشيعة كان مُخرفًا مُنجِّمًا، فنصحه الشيخ قال عنه رَحِمَهُ اللَّهُ: **في ذات مرة أتى إلى المسجد محمد بن حوريه، فنصحه أن يترك التنجيم، فنصحهم أن يطردوني من الدراسة، فتشفعوا لي عنده وسكت.** أ هـ.

وهكذا كان وهو في الجامعة، فقد كان يُنكر التقليد بشدةٍ، ويبقى في جدال ونطاح مع بعض مدرسيه، وهكذا عند خروجه إلى اليمن كان يقف ضدَّ أيِّ باطلٍ يرى أنَّه باطلٌ.

الصفحة الخامسة: عدم التفاتِهِ إلى المثبطين عن العلم:

إن طريق طلب العلم من أفضل القربات، ولذلك فالشيطان حريصٌ على صرف الإنسان عن هذا الطريق بشتى الوسائل، فقد يتسلط هو على طلب العلم، أو يُسلطُ عليه بعض جنوده من شياطين الجن والإنس، فيعترضون طريق طالب العلم، إما بإغرائه بالدنيا وملذاتها، أو يُثبطونه ويُعظمون عليه الطريق، ويُريونه أنه لا يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه غيره والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان لا يبالي بمن يُثبطه أو يحاول أن يُهبط من همته، فقد كان الشيعةُ يسخرون منه، وهو يدرس عندهم، لتكريره دراسة القطر، يمرُّ به أحدُهم وهو في درسه ويقول: «قبيلي صبّن غرارة» ولكن الشيخ لم يلتفت إلى هذا أبدًا، وواصل سيره حتى وصل إلى ما وصل إليه رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشيخ رحمه الله برز في علم الحديث، وصار إمامًا بتوفيق الله له، ثم بتخصُّصِهِ في هذا الفنِّ، ولطالما كان الشيخ ينصح طلابه بعد أن يأخذ الطالبُ ما يحتاج إليه من دروس العقيدة واللغة والأصول أن يتخصَّصَ ليبرز فيما تخصَّص فيه.

الصفحة السادسة: محافظته على الوقت:

فقد كان الشيخُ في جميع مراحل تعلمُّه حريصًا على وقته جدًا، فلا يكاد يضيع شيئًا منه إلا في العلم والمذاكرة، ومما يدلُّ على ذلك انتسابه في وقت العطلة في كليِّة الشريعة، حتى لا يضيع عليه ذلك الوقت، كما ذكر هو ذلك عن نفسه، وهكذا حياتُه مليئةٌ بالشواهد على المحافظة على وقته، وسيأتي ذكرُ شيءٍ من ذلك إن شاء الله.

١- مراقبته وخوفه من الله

كان الشيخ من المراقبين لله تعالى، والخائفين منه، هكذا نحسبه، والله حسيبه، ولا نزكي على الله أحدًا.

ومن الأمثلة التي تدل على ذلك: أنه كان يشعر بأنه محمل مسئوليات الطلاب، ويخاف جدًا أن يقصر في حقِّهم، أو في شيءٍ هو مستطيع أن يعمله لهم، فكان لا يحب أن يؤخر عليهم شيئًا، بل يبادرُ بإعطائهم جميع ما يصلُ لهم من أهل الخير.

ومن الأمثلة أيضًا: أنه قال مرة في درس المغرب: **لا يخرجن أحدٌ إلا بإذن**، فقام طالب صغير، واستأذن الشيخ بالخروج. فقال له: **الشيخ اجلس** فجلس الطالب، وبعد قليل من أمره بالجلوس، قال له الشيخ: **ستدعو علي يا بُني لأني ما تركتك تخرج؟**. فلم يجب الطالب، فبعد ذلك أذن له الشيخ

بالخروج.

ويخبرني الأخ/ محمد الحاشدي، أن الشيخ كان في أثناء خروجه للدعوة في كثير من المحافظات اليمنية يجتمع عدد كبير من الناس لسماع محاضرته، وبعد المحاضرة يقبل الكثير منهم يريدون أن يصافحوا الشيخ محبة منهم له ويقوم الحراس ويطلبون من الناس أن لا يتبعوا الشيخ ومع ازدحام الناس، يخشى على الشيخ من الناس المغرضين أن يستغلوا فرصة زحام الناس، فيقوم الحراس -مضطرين- بدفع الناس أحيانًا، فيقول الشيخ: **لا تُوجعوا أحدًا، فلأن أموت أهونُ عليَّ من أن تُوجعوا شخصًا.**

٢- تعظيم الشيخ للسنَّة رَحِمَهُ اللهُ

إنَّ من أسباب علو شأن الشيخ: تعظيم لسنة رسول الله ﷺ، ويتمثل تعظيمُه لها في أمرين:

الأمر الأول: وقوفُه عند السنَّة، ودعوة الناس إلى ذلك، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ لا يخالف سنَّةً استبانت له، وكان رَحِمَهُ اللهُ ليله ونهاره داعيًا إلى تعظيم السنة في قلوب المسلمين، وإلى الوقوف عند أحاديث رسول الله ﷺ، فلا يخلو مجلسٍ من مجالسه ولا كتابٌ من كتبه، ولا شريطٌ من أشرطته، إلا ويرغِّب ويحثُّ على الالتزام بالدليل، وبالسنة المطهَّرة، ويحذر ويزجر من مخالفة ذلك، وكم كان يغضب إذا بلغه أن دليلًا من كتاب الله أو من سنَّة رسول الله؛ امتُهن أو خُولف، وإذا علم من رجلٍ ذلك؛ ناصحه فإن قبل ذلك المنصوحُ حمد الله تعالى وأثنى عليه، أن هدى المخالف إلى الحق، وإلى تعظيم سنَّة رسول الله ﷺ، وإن لم يحصل من المخالف للسنة رجوعٌ؛ انبرى له الشيخُ كالصاعقة، وفضح أمرهُ بين العامة، حرصًا منه على ألا يتأثر بهذا المخالف للسنَّة أحدٌ من المسلمين، وأظهر البراءة منه، ولو كان قريبًا

له.

فهذا البيضاني صهره وزوج ابنته، درس عنده، ثم تنكر للشيخ، ونَسِيَ الجميل، فحذر منه الشيخ، حين خالف سنة رسول الله ﷺ، من أجل هذا يقول: **لا. لن أترك أحدًا يطعن في سنة رسول الله ﷺ**، ولو لم يبق إلا أن نتعاضض بالأسنان لتعاضضنا.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: ردُّه على الغزالي وغيره الذين طعنوا في حديث السحر، فكتب فيهم كتاب «ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر»، وهكذا ردُّه على كثير من الزائغين المخالفين لسنة رسول الله ﷺ، كالإخوان المسلمين وجماعة التبليغ، والسروريين، وغيرهم ممن استهانوا بكثير من سنن المصطفى ﷺ جماعاتٍ وأفراد.

ومن أعظم ما يدلُّ على تعظيمه للسنة: أنه كان يردد دائمًا أن السنة عنده أغلى من ماله وأهله ودمه، وصدق رحمه الله فقد بذل في سبيل الدعوة إليها عمره؛ ما بين عملٍ بها، ودعوةٍ إليها، ودفاعًا عنها بلسانه، وزَبَّرَ ذلك بقلمه، وسطره ببنانه، فرحمه الله، وقد أخبرني الشيخ الفاضل/ أحمد بن سعيد الحجري أنه سمع الشيخ يقول: **أموالنا، وأنفسنا، وأعراضنا، ودماؤنا، فدى لسنة رسول الله ﷺ**.

من أجل هذا هابه الكثيرُ من المخالفين للسنة والزائغين عنها، فكان الكثير منهم إن أرادوا أن يخالفوا السنة: إما بتأويل زائغ أو بطعنٍ فيها بهتانًا وزورًا، يتخوَّف كلُّ واحد منهم أن يُخرج الشيخ فيه شريطًا، أو يكتب فيه كتابًا، فوقف الشيخ أمام المخالفين كالأسد، فهابه المبتدعة في داخل اليمن وخارجها.

وأخبرني الشيخ/ أحمد بن سعيد الأشهبي أنه سمع الشيخ يقول: **قولوا لأهل البدع إنا لكم بالمرصاد**.

وتعظيمه للسنة أمرٌ لا يخفى على من عرفه، وعاشره، وجالسه، أو سمع أشرطته، أو قرأ كتبه.

وإذا رأى أن المخالفين للسنة من العامة، قام في أوساطهم ناصحًا، ولربما أفرد بعض المخالفات المنتشرة بين العامة بالتصنيف، كما في كتابه «تحريم الخضاب بالسواد» وغيره.

والأمر الثاني مما يدل على تعظيمه للسنة: حرصُهُ على السنن، والعمل بها، فلم تر عيني رجلًا قط أحرص منه على السنن، والعمل بها، والأمثلة على ذلك كثيرة من أعظمها دلالة على ما ذكرتُه حرصه على إحياء سنة الصلاة بالنعال، فلا أعلم مسجدًا في البلاد اليمنية، بل في العالم، يُصلى فيه بالنعال كلُّ الفروض إلا مسجده، وكم كنت أسمعه، وهو يقول لطلابه: **صلوا يا أبنائي في النعال، فإنكم لا تستطيعون أن تصلوا بها في غير هذا المكان**، ومرة من المرات فرش المسجد بفراش جديد، فأشار على الشيخ بعضُ الناس ألا يُصلي الإخوان بنعالهم في المسجد، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: **بل يُصلي بها فسنَّةُ رسول الله ﷺ** أحبُّ إلينا، وأغلى من الفراش.

ومن أمثلة حرصه على السنة: أنه ذكر مرة في أحد دروسه ألبسة رسول الله ﷺ، وأنه لبس العمامة، ولبس الجبة، ولبس الإزار، والرداء، فقال: **إن شاء الله نلبس يومًا من الأيام الإزار، والرداء**، وهكذا كان حريصًا على العمل بالسنن، سواءً في الصلاة أو في غيرها، فلا ترى أحدًا في معهده، أو من طلابه يخالفون سنَّة فيسكت عنه، أو لا ينصحه، ولو كان زائرًا، وإن كان مسئولًا كبيرًا.

يخبرني الأخ الفاضل الشيخ/ أحمد بن سعيد الأشهبي أن بعض المسئولين، وأخبره بالدليل القاضي بكسر الصلبان، وأبدى ذلك المسئول استجابة لنصيحة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وكان يأتي بعضُ الزائرين للشيخ من القبائلِ والعامة، وهم قد تعودوا الشرب بشمالهم، فإذا رأى الشيخ من أحدهم ذلك، أنكر عليه برفق ولين، وحب للمنصوح.

قال شيخنا الشيخ أبو الحسن المأربي حفظه الله عن محافظة الشيخ على السنة:

لا أعلمه يعلم بشيء من السنة إلا ويجله وقضى به، وقدَّمه على غيره، وتمسك به في هيئته، وكلامه، وبهذا رفعه الله تعالى بين الناس، وقد دعا له أحدً الإخوة قبل غيبوبته بساعةٍ وقال له: **عافاك الله إن شاء الله يا شيخ، فأنكر عليه، وقال: اجزم في الدعاء.**

فلم يرد الاستثناء إلا في موضع «طهور إن شاء الله» فتأمل حرصه على السنة، وهو في حالة قد أخبره الأطباء بأنهم قد عجزوا عن علاجه، والموت قاب قوسين أو أدنى منه.

٣- عبادة الشيخ رحمه الله

إن أقرب الناس إلى الله وأخشاهم وأعبدهم له بعد الأنبياء هم العلماءُ، ولكن عبادة العلماء تختلف من شخص إلى آخر، فمنهم من يُكثر من قيام الليل، أو الصيام، أو الصدقة، أو بذل المال إن كان غنيًا، أو بمدارسة العلم وبذله، وشيخنا رحمه الله كان عابدًا لله تعالى وفرَّغ جُلَّ وقته لعبادةٍ وقربةٍ هي من أفضل القرب والعبادات بعد الفرائض.

هذه العبادة التي كان السلف يفضلونها على نافلة الصلاة والصيام هي طلبُ العلم وبذلُه للناس، فالشيخُ من صغره وهو قائمٌ بهذه العبادة العظيمة التي يملُّها كثير من الناس فليله ونهاره مع العلم، يستفيدُ ويفيدُ رحمه الله، فقد

يمضي شطر ليله أو ثلثيه وهو مع العلم، يغوص في بطون الكتب، باحثًا ومحققًا وناقدًا بصيرًا، وضمَّ على جانب هذه العبادة العظيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان الحق من الباطل، والسنة من البدعة، والوقوف أمام أهل الأهواء المبتدعة الضُّلال، فلقد كان مجاهدًا عظيمًا رافعًا لراية السنة والدفاع عنها، لم تنزل تلك الراية إلا عندما فارق الحياة، وهذا عبادةٌ عظيمة يعجزُ عنها رجالٌ ورجالٌ، وكان يأخذُ من الليل جزءًا لا بأس به، وكان يصوم الأيام المستحب صومُها، لا يتركها أبدًا، إلا لمرضٍ شديدٍ يقعده عن هذه العبادة، وإلا في مرضه الذي تُوفي فيه، وكان في حالة سيئة للغاية من المرض، أراد أن يصوم يوم عاشوراء فمنعه الأطباء فرحمه الله تعالى.

٤- توكله على الله

أما توكُّلُ الشيخ على الله سبحانه وتعالى، فأمره في ذلك عجيب، قل من يبلغ درجته، ممن عرفته من أهل العلم والدعاة إلى الله في هذا العصر، وهذا أمر شهد به للشيخ كثيرٌ ممن عرفه وجالسه. والأمثلة التي تدل على توكله على الله كثيرة جدًا، سأذكر بعضًا منها:

١ - يأتيه الطالب، ويستأذن للبقاء في مركزه مع عائلته، فلا يرد أحدًا، مع أن الطالب إذا جاء مع أسرته، فإنه يحتاج إلى نفقة، ومركز الشيخ لا تدعمهُ حكومةٌ من الحكومات، وإنما اعتمادُ الشيخ ومن فيه على الله، وليس للشيخ وكلاء يجمعون له المال، ولا عنده جمعية يصل إليه تبرعات الناس من أهل الخير عن طريقها قال لي الأخ/ أحمد الوصابي حفظه الله تعالى: قلت له مرة: أنت تأذن لمن جاء إليك. فقال: **أنا ما أجرؤ أن أرد أحدًا، كلنا على الله، المهم أن يكونوا طلاب علم**.

وقيل له مرة من المرات عندما تتكلم عن بعض الرجال والشخصيات أو الدول والجماعات، قد يكون ذلك سببًا لانقطاع المساعدات، فقال: **إذا أُغلق بابٌ؛ فتح الله أبوابًا أخرى من فضله.**

٢- من المواقف التي تدل على توكله على الله ما حدثني به فضيلة الشيخ/ عبد الله بن عثمان قائلًا: ذات مرة قلت له: يا شيخ لو أننا نأخذ بعض المال الذي يأتي مساعدة للطلبة، فنعمل به تجارة، ونستثمره في شيء تعودُ منفعته على الطلاب، قال: **نحن متوكلون على الله هو الذي يُسَيِّرُ دعوتنا.**

٣- ومن المواقف التي تدل على توكله، أنه كان يأتيه مندوبون من قِبَلِ بعض الجمعيات التي أقيمت على أساس حزبيّ، ويعرضون على الشيخ المساعدة المالية شهريًا، ويشترطون مقابل هذا شروطًا تخالف المنهج الذي يسير عليه الشيخ، وإلا فلن يساعدوه، كأن يُطلب منه أن لا يتكلم في فلان أو فلان، فيرفض الشيخُ ذلك، ويكون في أشد الحاجة إلى المال، ويقول لهم: **الدعوةُ على الله هو الذي يُسيِّرها**، فيقطعون عليه المعونة، وييسرُ الله له من غيرهم.

٤- يقول الأخ/ أحمد الوصابي: كنت آتي الشيخ لأطلب منه مالًا نأخذ به حاجات الطلاب، فإذا لم يكن عنده شيء، باشرني بالضحك، ويقول: **على الله، ييسر الله، الله ييسر لنا جميعًا.**

٥- وقال أيضًا: كنت إذا جئت إليه وهو في حال من الشدة، يذهب إلى الدرج الذي فيه المال، ويأخذ ما بقي فيه؛ ويأتي إليَّ وهو يضحك ينثرها أمامي فأجمعها ريالات وعشرات، وأتعجب أنا في همٍّ وغمٍّ، وهو يضحك ويقول: **سيسهل الله، الدعوةُ لها الله.**

٦- قال شيخنا أبو الحسن حفظه الله -عن توكل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أمره في

ذلك عجيب، فعدد الطلاب عنده يزيد على الألفين، ومنهم ستمائة عائلة تقريبًا، ولا يفكر في نفقتهم وحاجاتهم المادية، وأحيانًا تمرُّ بالطلاب أزماتٌ جائحةٌ، وإذا كُلم في ذلك؛ وكل الأمور إلى الله عز وجل، فيأتي بالفرج. أ هـ.

٥- زهدُ الشيخ وورعُه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ [الكهف: ٤٥- ٤٦].

وأخرج الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء**».

هذه الآيات، وهذا الحديث وأمثالها في كتاب الله عز وجل، وفي سنة رسوله ﷺ كان لها آثر كبير في حياة شيخنا، حيث دفعته إلى الزهد في حطام هذه الدنيا، ولقد عزف عن الدنيا حين أقبل الناسُ عليها بخيلهم ورجلهم، واحتقرها حين عظمها الكثيرُ من أبنائها، وتنازلوا عن الكثير من أمور دينهم في سبيلها.

لقد دخل إلى أرض الحرمين في زمن مبكّر من عمره، وفي وقت كانت الأعمال فيها متيسرة، فغيره جمع المال، وبنى الدور، واشترى المراكب

الفاخرة، ولبس الثياب الغالية، وشيخُنا كان يعمل بما يسدُّ حاجته، ويصرف بقية وقته في طلب العلم، ويتنقل في حلقات العلماء، ويقنع بالقوت اليسير، وهكذا عاش في زمن طلبه للعلم، فكان وهو في معهد الحرم يسكن في صندقة من الزنك، وفي المدينة يسكن بيتًا متواضعًا أيضًا، ومرت الأيام والسنون وهو على ذلك حتى خرج إلى اليمن، وأقام فيها دار الحديث بدماجَ، وتسامع أهلُ الخير به، وما هو عليه من الخير والدعوة إلى الله والتعليم، فوثق أهلُ الخير به، ومدوا يد العون إليه، وجاءته الدنيا بالآلاف والملايين، ومع هذا لم يتغيَّر شيخُنا، ولم يسل لعابهُ عليها، كما فعل غيرُه.

عاش الشيخ قبل أن تأتي إليه الدنيا في زهد وقناعة، وهكذا بعد أن جاءته، كان قبل أن تأتيه يلبس من الثياب أبسطها، ويسكن الدار المبينة من الطين، ويأكل الأرز الناشف، وما تيسَّر من العيش، وهكذا بعد أن جاءته الدنيا، واشتهر علمُه في المعمورة، فإنه لم يتغير، تستغرب إذا رأيته بثيابه، وكذلك إذا رأيت داره التي هي من الطين، وهي مُكونة من عدة غرف، لا تتجاوز أصابع اليد، أخشابها من الأثل، وسعةُ الغرفة لا تتجاوز المترين والنصف عرضًا تقريبًا.

حتى إنَّ بعض أهل الخير أرسل بمال للشيخ خاصَّةً يبني له بيتًا، ولكن الشيخ أخذه وبنى به مسجدًا لإقامة الدروس والصلاة، ولم يحرص على بناء بيتٍ له، كما أخبرنا بهذا الشيخ أبو حاتم العودى حفظه الله، ويستغرب كثيرٌ من الزائرين الذين لم يلتقوا بالشيخ قبل زيارتهم له، فيأتي أحدهم وهو يتخيل تلك الشخصية، التي ملأت البلاد اليمنية من علمه وخيره، أنه رجلٌ يلبس أفخر الثياب، ويسكن القصور العالية، ويأكل أفخر الأطعمة الغالية، وإذا دخل المسجد قبل أن يرى الشيخ، يبقى ينقل نظره في صور الطُّلاب، وكلما دخل عليه رجلٌ كثُّ اللحية، عليه ملابسُ فاخرةٌ، ظن أنه الشيخُ،

حتى إذا خرج الشيخ، وعرف الرجل به؛ يستغرب جدًا، أو يكاد لا يصدق أنَّ هذا هو الشيخ.

يخبرني الأخ الفاضل/ أحمد بن سعيد أن الأخ/ عبد الرحمن داوود رحمه الله جاء من السعودية، لزيارة الشيخ، وقال للأخ/ أحمد بن سعيد: لا تعرفني بالشيخ حتى أعرفه أنا.

قال أحمد بن سعيد: صعدت أنا وهو سلم المكتبة القديمة، وإذا بالشيخ نازل. فقلت: كيف حالك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال الشيخ: الحمد لله. قال الأخ/ أحمد: فلما جلسنا في المكتبة قليلًا، قلت للأخ/ عبد الرحمن بن داوود: هل عرفت الشيخ من بين الجالسين؟ فقال: لا. فقلت له: هل رأيت الرجل الذي نزل ونحن صاعدون، وقلت له كيف حالك يا أبا عبد الرحمن؟ قال عبد الرحمن: نعم. قلت: فذلك الشيخ، قال: فتعجب الأخ عبد الرحمن بن داوود رحمه الله من الحالة التي كان عليها الشيخ.

وأما عن مأكله: فغالب أحيانه لا يتعدَّى أكل طُلابه، وهو الأرز الناشفُ، وإن تيسر شيءٌ من الإدام أو الدجاج أحيانًا، فهو حسن هذا طعام الغداء. وأما العشاء: فالفول والخبز، أو لبن الإبل.

ومع هذه الحالة تجد الشيخ في غاية من السعادة والراحة والاطمئنان، كل هذا والدنيا كما سبق لك آنفًا تأتيه بالآلاف والملايين، ولكن آثر أن تكون هذه الدنيا مسخرةً في خدمة الدعوة، وحاجات طُلاب العلم.

وكان كثيرًا ما يُوصي طُلابه أن لا يجاروا أهل الدنيا في دنياهم، ولا يجزعوا لقلة ذات اليد، كثيرًا ما كان يقول لهم: **إذا أردت أن تطلب العلم، وأن تجاري أهل المعارض، وأن تجاري أهل السيارات، وأهل العمائر، وهكذا تجاري المسئولين والموظفين، إلى غير ذلك، لا تستطيع أن تطلب**

العلم.

وكان يقول: الإفلاسُ في طلب العلم، مثل العسل، الحمد لله إذا وجد العلم، ولو بقي المخبأ شهرًا أو شهرين ما دخله ريال ولا حاجة، الحمد لله رز وزيت، ويأكل الشخص وهو يضحك مستريح، العبرة هي راحةُ النفس، ليست العبرة المأكل أو المشرب أو الملبس.

ولقد حرص على أن يكون المالُ الذي تُساعد به الدعوةُ، أن يكون خاليًا من الشبهات، فليس المهم عنده أن يأتيه المال، ولكن المهم أن يكون صافيًا من أي دخن، وليتضح لنا هذا الأمرُ.

أضرب لك مثلًا: كان يوجد مجموعة من العمال، يعملون ويفرضون على كل واحد منهم في الشهر مائة ريال، ويرسلونها إلى الشيخ. فقال الشيخ. **فقلت لهم: إن هذا الفعل ليس بمشروع، وهذا المال قد وصل، ولكن لا تفعلوا هذا مرة أخرى، فمن تيسر له شيءٌ وأراد أن يساعد الدعوة فعل، أما هذا فما كان النبي ﷺ يفعله.**

فانظر أخي إلى هذا الورع والتقيُّد بأحكام الشرع، فلم يقل الدعوة بحاجة إلى المال، فنأخذه و«نُمشي» حالنا.

كما يفعل غيره من الذين يحتالون على أموال المسلمين بشتى الطرق، وهذا التصرف من الشيخ محمول على أنه رأى بعضهم كان يدفعُ ما يدفعُ بسيف الحياء، وإلا ففي هذه المسألة تفصيل من الناحية الفقهية.

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ كانت الدنيا عنده لا تساوي شيئًا بجميع ما فيها من المغريات، من سلطة ومال وغير ذلك، فها هو يقول ويعلن للملأ: **يعلم الله لو دُعينا لرئاسة الجمهورية، ولملك اليمن وغير اليمن، أو لثروات الدنيا، لما أجبنا، فقد أحببنا العلم، فالحمد لله الذي حبب العلم إلينا.**

قال عنه شيخنا الشيخ/ أبو الحسن: ما أعلمه يتكلم في أمر الدنيا، أو يكثر معاتبة على أحد لم يحسن أمرها، وأهمُّ شيءٍ عنده الوقوف عند سنة رسول الله ﷺ، وما كان رحمه الله يحسنُ عد الفلوس، إذا اختلفت أشكالها وفئاتها، كل هذه لعدم احتفائه بأمر الدنيا وزينتها. أ هـ.

وشيخنا رحمه الله ومنذ طلبه للعلم، وبعد خروجه، وانتشار دعوته، ما عرَّض نفسه للذل أبدًا. ولم يذهب إلى أحد من التجار ليسأله، ويعرض عليه حاله، وكان يرى أن نقل الصخر والضرب بالعصى أهونُ عنده من أن يقول: بقى كذا وكذا نحتاجه، فقد سمعته في أحد دروسه الماتعة يقول: **نقلُ الصخر أو الضرب بالعصي؛ أهون عندنا من أن نقول: بَقِيَ لنا كذا وكذا، ونريد كذا وكذا.**

وقال أيضًا في أحد دروسه الذي أجاب فيه عن أسئلة بيت الفقيه: **أستطيع أن أُقسمَ بالله أنني ما قد وقفت على باب تاجرٍ من أجل المسألة.**

ولقد شهد بزهده كثيرٌ من أعدائه فضلًا عن محبيه، وزهده أمر لا يستطيع أحد أن ينكره، ولمزيد من البيان سأذكر لك بعض المواقف التي تدل على زهده وورعه مع ما تقدَّمَ:

١- أخبرني الأخ الفاضل/ مقبل العويري والأخ الفاضل/ صادق العبديني، أن الشيخ جلس في أحد الأيام على كرسي التحديث في درس الظهر، بعد مرضه الذي أُجريت له فيه عملية، وقد قرر له الأطباء غذاء طيبًا مشتملًا على اللحم، فأخبر الشيخ الطلاب بهذا الأمر، وقال لهم: إن المال الذي يصل لطلبة العلم، وأنه يأتيه مالٌ خاص به، وأخبرهم أنه في هذا الوقت ليس عنده مال يخصه، وطلب من الطلاب أن يسامحوه، بأن يأخذ له نصف كيلوا لحم كل يومٍ، وقال لهم: إن لم تسمحوا؛ فسنصبر حتى يُسهل الله بمال. قال

الأخ مقبل: فبكيت ذلك اليوم من هذا الموقف.

٢- **قال الشيخ عبد الله بن عثمان:** إن الشيخ ذات مرة ذكر أنه لا يملك إلا ثوبه وعمامته.

٣- **أخبرني الأخ محمد بن يحيى الحاشدي:** أن الشيخ أخبره: أن الرئيس طلب من الشيخ أن يجعل مركزه جامعة مُعتمدة من قبل الحكومة، وتكون له شهادة معتمدة، فرفض الشيخ ذلك.

قلت: وفي هذا دلالة على زهده، ولو كان غيره ممن لم يوفقه الله لاعتبرها فرصة لا ينبغي أن تفوَّت، وأن تُهدر.

٤- **أخبرني الأخ عبد الله بن ماطر:** أن أحد الإخوة كان حارسًا للشيخ في نهار رمضان، وكان هذا الأخ مستبشرًا بتناول عشاء حسن مع الشيخ، غير المعهود عند الطلاب، وأذن المغرب، وبعد صلاة المغرب، استدعى الشيخ حارسه، لتناول وجبة الإفطار والعشاء، ولكن للأسف أن هذا الأخ فوجئ بغير الذي كان يتوقع، فلم ير إلا صحنًا من الأرز الناشف الذي ليس عليه شيءٌ.

٥- **أخبرني الأخ محمد الحاشدي:** أن الشيخ أخبره أن الرئيس علي بن عبد الله بن صالح التقى به، وقال له: أنا أريدُ أن أساعدك. فقال الشيخ: **لا أريد شيئًا، وجزاك الله خيرًا**. فقال الرئيس: أنا أريد أن أساعدك من مالي الخاص، فرفض الشيخ في عزَّةٍ، فقال الرئيس من الذي يساعدك؟ قال الشيخ: **أهل الخير** . فقال الرئيس: اجعلني واحدًا منهم. فقال الشيخ: **لا أريد شيئًا وجزاك الله خيرًا!**.

٦- كرم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ

إن الكرم خلق عظيم، حث عليه الإسلام وجعله من مكملات الإيمان، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم ضيفه...**» الحديث.

ولمكانة هذا الخلق العظيم في دين الإسلام، فإن النبي ﷺ جعل البخل داء، حيث قال: «**... وأي داءٍ أدوى من البخل**».

وشيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ قد جبله الله على الكرم، لأن الأخلاق منها ما هو جبليٌّ، ومنها ما هو مُكتسب، وفي كلٍّ خيرٌ، إلا أن الخلق الذي يجبل عليه الشخص، لا يكون مثل الذي يكتسبه ويتخلَّقُ به.

وكرم الشيخ عرفه القريب، وسمع به البعيد، وشهد عليه العلماء وطلاب العلم والعامة، وسأذكره لك بعض المواقف الدالة على كرمه وسخائه، سواء كان في المطعم أو في الإنفاق.

سألت الشيخ عبد الله بن عثمان عن كرم الشيخ، فقال: ما عرفت في الكرم أحدًا أكرم منه في زماننا ممن نعرفهم. وذكر موقفين من كرمه قائلًا: «نزلنا ذات مرة عنده، فبقينا أيامًا نجولُ في القرى دعوة إلى الله، ثم نعود إليه، فكان يكرمُنا غاية الإكرام، حتى إنه في آخر الأيام، كأنه ما بقي عنده مالٌ ليشتري به ذبيحة، وكان عنده قعودٌ أليف، قد ألف الطلاب وأحبوه، فكانوا يلعبون معه، ويستأنس بهم، ويلعب معهم، فأمر الشيخ بنحره، فترجيناه أن يُبقيه، وترجاه الطلاب كذلك، فأبى الشيخ إلا أن ينحر» وقال: من أعزُّ منكم.

وقال الشيخ عبد الله بن عثمان: «ومن كرمه أنَّا كنَّا إذا دخلنا عنده، يُخرج

لنا ما عنده، عسلًا كان أو زبيبًا أو غير ذلك، كاملًا بإنائه ووعائه الذي يكون فيه ذلك المتاع، ولا يخرج شيئًا من ذلك المتاع ويبقي الآخر في إنائه في المخزن، بل يقرب ذلك الوعاء بين أيدينا، ويأمرنا أن نأكل من وعائه. أهـ.

ويقارب هذا الموقف موقف آخر حدثني به الأخ الفاضل/ الشيخ/ صالح أبو همام القائم بمركز السوادية بالبيضاء، قائلًا: «من المواقف التي أذكرها عن الشيخ مقبل في كرمه، أنه جعل لنا وقتًا نقرأ عليه كتاب «تدريب الراوي»، وكنَّا جماعة، فندخل بعد العشاء إلى بيته، وكان مما لاحظناه من الشيخ شدة محافظته على إكرامنا، مع أننا طلاب علم، دخلنا لقراءة ما تيسر عليه، ثم نخرج، ولكن كل ليلة وقبل الدخول في الدرس، يأتي بكمية كبيرة من الزبيب، ويضعها، ويطلب الأكل، ويلح في ذلك». أ هـ.

والشيخُ إذا نزل عليه الضيف لا يسأله عن حاجته، ولكن يكرمه حتى يخبر هو عن حاجته شهد بهذا أحد الضيوف النازلين على الشيخ، وهو صحفي جريدة «المجلة»، فقد قال وهو يصف استقبال الشيخ: لم يسألني الشيخ عن سبب قدومي إليه، وهذا لطف من سجايا المضيف العربي الذي لا يسأل ضيفه عن حاجته إلا بعد ثلاثة أيام. أ هـ.

ومن المواقف الدالة على كرمه أيضًا: أن الشيخ في مرضه الذي عولج منه في الحديدة، كان يسكن في بيت أحد محبيه، وكان الزائرون يأتون إليه حاملين هدايا قيمةً من عسلٍ وغير ذلك، مما يعبر عن حبهم للشيخ، وكان إذا خرج من البيت، يعطي شخصًا المفتاح، ويقول له: **كُلْ مما شئت**.

وأخبرني الأخ/ عبد الله بن ماطر أيضًا: «إن أحد المحبين للشيخ أهدى للشيخ دبة من العسل الجيد، فأرسلها مع شخص ليوصلها للشيخ، فلما أوصلها الرسول إلى الشيخ، قال الشيخ لذلك الرسول: **هي لك**. فأبى الرسول أن يأخذها وكان الشيخ مستعدًا للسفر، فقال: **سنأخذها للإخوان**

في الرحلة. وأخذها وأعطاها من معه من المرافقين».

وأخبرني أيضًا أن شخصًا أهدى إلى الشيخ علبتين من العسل الفاخر المخلوط ببعض الأشياء الفاخرة الغالية جدًا، فلما أوصل الرسول تلك الهدية إلى الشيخ.

قال الشيخ للرسول: **خذ إحداهما**. فأبى ذلك الأخ أن يأخذ تلك العلبة، وبعد أيام سأل الرسول الشيخ: هل استفاد من ذلك العسل؟ فقال الشيخ: **أهديتهما لشخصين**.

وقال الأخ الشيخ/ أحمد بن عبد الله بن غالب الوصابي مخبرًا عن الشيخ: «كان إذا جاءه شخص بشيءٍ مُرسل إليه من الأمتعة، فإنه يعطي من عنده منه، وربما أعطاه كله».

ويقول الشيخ/ محمد الحاشدي: «الشيخ إذا أُعطى شيئين، فإنه يُعطي حامل ذلك الشيء أحدهما، وإن كان شيئًا واحدًا، أعطى ذلك الشخص شيئًا مما أعطي غالبًا».

وأخبرني أيضًا أن الشيخ كان إذا أعطي طعامًا خاصًا في أثناء مرضه، فإنه لا يأكل إلا مع من هو بجانبه، وإلا رفض الأكل.

وأخبرني الشيخ أحمد الوصابي عن الشيخ قائلًا: «ذات مرة تُوفي رجل شيبة، فأُرسل إلى الشيخ بطيب من أعز الطيب وأنفسه، وبكمية كبيرة جداً، وقال: **طَيِّب الميت، وخذ ما بقي لك**.

وقال الشيخ/ صالح الماوي: إذا كان في رحلة، فاشتهى الشيخ شيئًا، وأتى له بذلك الشيء، فربما لا يأكل منه إلا أقل واحد ممن معه.

وقال الشيخ/ أحمد الوصابي: «كان الشيخ إذا جاءه ضيف، لا يرضيه إلا أن يذبح له، ويوصيني من الصبح بذلك وطلب مني ذات مرة أخًا خاصًا

لإكرام الضيوف القادمين، وخصَّص لهذا المضيف راتبًا في الشهر». وقال ذات مرة وهو على الكرسي مناشدًا الطلاب: **إنه إذا قدم ضيف، ولم يوجد من يستقبله ممن خُصِّصوا لذلك، أن يقوم من وجده بإكرامه وضيافته، ويأخذ له ما يحتاج، ثم يأتي إلى الشيخ وسيعطيه ما بذله لذلك الضيف.**

ما تقدم ذكره كله في كرم الشيخ بالنسبة للمطعم.

وأما بذله للمال: فأمر فوق ما يتصور، قال الأخ الفاضل/ صالح بن أحمد الماوي: «كان إذا جاءه أحد يطلب منه مالًا، وأمر الشيخ متيسِّر، فإنه يعطيه أكثر من حاجته، فلربما تكون حاجةُ الشخص خمسة آلاف ريالٍ، فيعطيه عشرة آلاف ريال، وأحيانًا يعطيه هكذا بلا عد، لأنه ما عنده وقت للعد».

وذات مرة كنا في «خمر»، فجاءه ذو شأن يسأله، فقال له: **اذهب على الأخ صالح الماوي ليعطيك**. فقال له هذا الشخص: كم يعطيني. فقال: **خمسة آلاف**، فجاني هذا الشخص، فقال الشيخ يقول: تعطيني خمسة آلاف. فقلت له: الشيخ لا يدري ما عندنا من المال. أهـ.

وقد كنت أزوره في العطلة الصيفية، وآتي بمجموعة كبيرة من الطلاب، فيفرح بذلك فرحًا شديدًا، ومرة من المرات طلبت منه الباص، ليحمل الطلاب من بلدنا «العدين» فأخبرني أن الباص مُعطل، ثم قال: **استأجر للطلاب باصًا أو باصين، وسأعطيك الإيجار**، فذكرت له أننا ربما نحتاج إلى باصين، فقال: **كم إيجارهما؟**. فقلت: إيجارهما عشرة آلاف ريال كل باص خمسة آلاف ريال، فأعطاني عشرة ألف ريال، فذهبت إلى البلاد، ولم يجتمع من الطلاب إلا حملة باص واحد فدفعت خمسة آلاف إيجارًا، وأنفقت على الطلاب ألف ريال، ولما وصلت إليه أخبرته

بما حصل، ودفعت إليه الباقي أربعة ألف ريال، فقال الشيخ: **خذها، وانتفع بها، أنا إذا خرج مال من يدي، فلا أقبل رده.**

وقال لي الأخ/ صادق العبديني: «رأيت في مرضه الذي أُسعف منه إلى مستشفى الثورة، أن شخصًا أهدى له طيبًا فاخرًا غالي الثمن جدًّا، فدخل على الشيخ أحد عساكر المستشفى زائرًا، فما كان من الشيخ إلا أن يكرم ضيفه بذلك الطيب، فأهداه إلى ذلك العسكري». أ هـ.

«وأعطى الشيخ أحد الطلاب المجتهدين مالًا ليتزوج به، وكان المبلغ مبلغًا كبيرًا قدره خمسة آلاف ريال سعودي، فقال هذا الطالب ظنًّا منه أن هذا المال من مال الدعوة: يا شيخ كيف أعطي هذا المال، وإخواني من طلبة العلم لم يأخذوا مثل ما أخذت؟ فقال الشيخ: **يا بني هذا من مالي الخاص**. [أخبرني صاحب القصة نفسه بهذا].

أخبرني الأخ الفاضل/ الشيخ/ محمد بن سعيد العمني، أن الشيخ أعطى مجموعة من الطلاب خمسين ألف ريال ليتزوجوا، فلما أعطى الشيخ الحاضرين، قالوا له: يا شيخ، إن لنا أخًا في الخارج، استحي أن يدخل، فأعطاه الشيخ خمسين ألفًا، وزاده عشرة آلاف، وقال: **هذا حقُّ حيائه**، وأخبرني الشيخ/ أبو عبيدة الزاوي، أن الشيخ أعطى مجموعة من الأخوة الليبيين ألفي ريال سعودي؛ مساعدة زواجٍ، وبعضهم لم يتيسَّر له مكان يتزوج فيه، فجاء بالمال إلى الشيخ فأبى الشيخ قبوله.

وأخبرني محمد بن يحيى بابكر السعودي قائلًا: «في مرضه الذي طلب منه السفر إلى الخارج، أرسل إليه أحد الأمراء من السعودية مبلغًا وقدره خمسون ألف ريال سعودي له خاصةً، يستعين به على العلاج، ثم يسر الله له الدخول إلى المملكة العربية السعودية، والتزمت بعلاج الشيخ وتسفيره إلى الخارج، والقيام بجميع ما يلزم من علاج وغير ذلك، فرد

الشيخ ذلك المبلغ للأمير الذي أعطاه وشكر له فعله، وقال: قد تيسَّر الأمرُ، فلا احتاج إلى هذا المال، فأبى ذلك الأمير أن يقبله، وقال: المال لك يا شيخ. فأخذ الشيخ الشيك، وأرسله للأخ القائم على مركزه، وقال له: **اصرف المال وأنفقه على الطلاب**».

قال الأخ/ محمد بن يحيى بابكر، وهو الذي حمل المال إلى أحمد الوصابي المسئول على الطلاب: إن الشيخ حين أرسل هذا المال، كان بأشد الحاجة إليه.

وجاء رجل إلى الشيخ يحمل إليه رسالة، ففتحها الشيخ والرسول لم يزل عنده، فوجد فيها خمسة مائة ريال سعودي، فأعطاها حامل الرسالة ونفس القصة وقعت لأخينا الفاضل جميل الصلوي، إلا أن المال كان سبعمائة ريال.

«وأرسل أحد المحبين للشيخ بساعة رادو، ثمنها ألف وخمسمائة ريال سعودي، ومروحة فأراد الشيخ أن يُعطي حامل هذه الرسالة ما أرسل إليه إلا المروحة وقال للرسول: **الساعة لك**. فأبى أخذها وقال له: إن الذي أرسلها اشترط أن لا يلبسها غيرك».

وأخبرني الشيخ / أبو عبيدة الزاوي أن الأخ / أبا جعفر عصام الليبي جاء إلى الشيخ يحمل إليه ثلاثة آلاف دولار، فقال له الشيخ: **خذها لك**، فأبى الأخ وأصر على عدم أخذها.

ومن المواقف الدالة على كرمه: أنه كان يساعد الطلاب الصالحين في زواجهم مساعدة كبيرة من ماله الخاص، الذي يأتي إليه من بعض فاعلي الخير، وهذا أمر معروف مشهور عنه، فكم من طالب زُوِّجه، ودفع نفقة زواجه كاملة، وكان لا يرد شفاعة شافع يشفع عنده لطلبة العلم، وكم مرات عديدة شفعت لطلبة علم عنده، فما عرفته ردني يومًا، فيعطي ما طلب منه،

ويزيد عليه أحيانًا.

وأخبرني الأخ أحمد القدسي: أنه كان يساعد الشيخ ببعض الأعمال المتعلقة بالتأليف، وكان الشيخ يعطيه مالًا، ويكافؤه بمكافئة طيبة لا يتوقعها، قال: فلا أرضى بأخذها. قال: فيأبى الشيخ إلا أن آخذها.

وأُهدي للشيخ سيفٌ ثمين، فأعطاه الشيخ لأحد الجالسين مباشرة، أخبرني بهذا الأخ / محمد الحاشدي.

ومن أطرف ما سمعته في كرمه: أنني كنت أتحدث مع أهلي عن مرض الشيخ ورجوعه من أمريكا، وأنه في حالة إغماء، ويعاني من المرض عناءًا شديدًا، وعندي ولد لي قد بلغ الثامنة من عمره، فصرخ قائلًا: الشيخ سيموت؟ بصوت حزين، ووجهه متغير، فقلت له: أتخاف على الشيخ؟ فقال: نعم. فقلت له: لماذا؟ فقال: هو أكرمُ واحدٍ. فقلت له: لماذا أكرم واحد؟ فقال: أعطاني مرة ألف ريال.

تذكرت ذلك الموقف، وهو أنني كنت عن الشيخ، أقرأ عليه بحثًا لأحد طلبة العلم، وكان هذا الغلام معي، فلما انتهينا من القراءة، قال لي: **انتظر** فانتظرت، فذهب وجاء بألف ريال يحمله بيده، وأعطاه الغلام.

وهكذا كان الشيخ مع الطلاب صغارًا وكبارًا يكرمهم غاية الإكرام.

ويخبرني الأخ الفاضل/ الشيخ/ أحمد بن ثابت. قال: جئت إلى الشيخ أطلب علمًا، وكانت حالتي المادية متعبةً جدًا، حيث لا يساعدني أحد، فقال الشيخ لي: **إذا احتجت شيئًا فسل أحمد الوصابي**. قال: فكنت إذا احتجت مائتين أو نحوها أسأله ويعطيني، وفي أحد الأيام سألته سبع مائة ريال، وكانت لها قيمة، فقال لي الأخ / أحمد الوصابي: هذا مبلغ كبير، لابد من إذن من الشيخ، قال الأخ أحمد بن ثابت: فقلت له: أنا أستحي أن أسأل الشيخ، وإن كان ولابد من سؤال الشيخ، فأشفع لي عنده، واجعل

طلبي ألف ريال، حتى لا أعود إليه مرة أخرى، فذهب الأخ أحمد الوصابي، وأخبر الشيخ بالخبر، فقال: **أعطه ألفي ريال**، قال الأخ أحمد: ففرحت بها فرحًا شديدًا.

وزار الشيخ أحد الطلاب، وكان يدرس في «أذربيجان»، وبقي عنده فترة، وفي أثناء بقائه في معهد الشيخ، عرض عليه أحد الإخوة الزواج، فقال هذا الأخ، هو فؤاد أبو هاد: أشاور الشيخ بهذا الأمر، ولندعه يكمل لنا هذه القصة بنفسه قائلًا: «سالت الشيخ مقبلًا مشاورًا له، فلما أخبرته قال: **يا أخانا وأنت تريد الزواج؟**، فأجبته: بنعم. فقال: **وهل أهلك سيعينوك على ذلك؟**. فقلت له: أهلي غير موافقين على مجيئي إلى هنا، فقال: **وهل عندك المقدرة على الزواج؟**، فسكت، فضحك الشيخ وقال: **لا عليك. زواجك عليَّ إن شاء الله**، واختار لي بنفسه الأسرة، وأرسل لهم برسالة، مع أني لا أعرفهم، وعندما ذهبت إليهم، بصحبة أحد مشائخ ذلك البلد، قابلوا رسالة الشيخ بالإكرام، وعدت إليه وقد تزوجت». أ هـ.

وأخبرني الأخ الفاضل/ الشيخ/ محمد الحاشدي: أن الشيخ أُرسلت له عصا ثمينة ثمنها خمسمائة ريال سعودي. قال: «فلما وصلتها إليه، أعطاها لي، فأخبرته أنها ثمينة وغالية، وطلبت منه أن يأخذها، فأبى ذلك، فقلت: إن كان ولابد فأعطيني عصاك التي معك، وكانت من الخشب، فلم يرض، وأبى إلا أن آخذ تلك العصا الثمينة».

ومما يدل على كرمه العظيم: تزويجه بناته ببعض طلابه من دون مقابل، بل هو الذي يجهزها، ويشتري لها ما تحتاج إليه، أخبرني الشيخ الفاضل عبد الرقيب الإبي حفظه الله تعالى -أن الشيخ- رحمه الله خرج يومًا من صلاة التراويح، قال: فأخذني على انفراد، وقال لي: **أريد أن أزوجك ابنتي**، قال الشخ عبد الرقيب: وكنت عازمًا قبل أن يخبرنى بهذا الخبر على السفر إلى بلدى إب، فقال الشيخ: **إذا**

نزلت، **فاستشر أباك بهذا الأمر**. قال: فذهبت وأخبرت والدي بذلك، ورجعت بعد عشرة أيام من عيد الفطر، وسألني الشيخ عن مشاورتي لوالدي، فأخبرته وذكرت له أنني لا أستطيع، وليس هناك بيت، قال: فقال الشيخ: **لا تبالي بذلك أبدًا**. قال: وفي أحد الأيام، وكان يدرسنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «قطر الندى»، وبعد الانتهاء من الدرس، بدأ الشيخ بخطبة الحاجة، وإذا بالأخوة الحاضرين ينتظرون ماذا سيكون بعد خطبة الحاجة من كلام، فإذا بالشيخ يفاجئ الحاضرين بقوله: إنه يزوج عبد الرقيب ببنته، وتم العقد في هذه الحلقة، وبعد ذلك جهَّز الشيخ ابنته، وتم الزواج، والحمد لله، وبقي عبد الرقيب مع بنت الشيخ شهرين، ثم حصلت بعض المشاكل التي كانت خارجة عن إرادة عبد الرقيب، وإرادة الشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحصل الطلاق بعد سبعة أشهر من فترة الزواج، وحزن الشيخ كثيرًا مما حصل، ثم أخبر الشيخ عبد الرقيب: أن ينظر له امرأة، وهو مستعد أن يقوم بجميع ما يحتاج إليه من تكاليف الزواج. قال الشيخ عبد الرقيب: ووفق الله بعد الطلاق بفترة بامرأة أخرى، وذهب أخ إلى الشيخ فأخبره بخبري، فأعطى الشيخ عبد الرقيب اثنى عشرة ألف ريال سعودي، ليتزوج. قال الشيخ عبد الرقيب: في زواجي الأول والثاني ما دفعت شيئًا، وإنما الشيخ هو الذي يقوم بذلك كله، كل هذا كان في بدء دعوة الشيخ، وهكذا الشيخ فعل بابنته الثانية زوَّجها بأحد طلابه من أبناء عمه.

قلت: أي كرم يكون بعد هذا؟ فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وأخبرني الأخ الفاضل/ أبو حذيفة أحمد الوصابي: إن الشيخ كان يداعب ولد أبي حذيفة، وضربه الشيخ، ممازحًا له، فبكى ذلك الطفل، فأخذ ذلك بنفس الشيخ، وأراد أن يُطيِّب نفس ذلك الطفل، فما وجد شيئًا

إلا قلمًا ثمينًا في جيبه، فأخذ ذلك القلم وأعطاه الطفل، قال أبو حذيفة: ولما سكت الولد أخذت القلم ورددته إلى الشيخ، فأقسم الشيخ ألا يأخذه، وقال لأبي حذيفة: **تعالى وخذ بقية الطقم الذي جاء فيه هذا القلم.**

وختامًا إليك ما قاله شيخنا الشيخ / أبو الحسن عن كرم الشيخ قال: «هذا لا ينتطح فيه عنزان. . تأتيه الوفود من كل مكان، فيأمر بإعداد الطعام لهم، فتشعر بأنه ينفق نفقة من لا يخشى الفقر، أي ورب الكعبة». أ هـ.

٧- صبر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ

عُرف الشيخ بقوة صبره من صغره، فقد تحمل وعانى في بدء طلبه للعلم الشيء الكثير، فكان أحيانًا لا يجد له طعامًا، كما يخبرنا بذلك في دروسه، وكان ربما لا يجد الفراش، كما مر في مراحل تعليمه الآنفة الذكر.

ولما عاد إلى اليمن لاقى من الأمور والعقبات الشيء الكثير من الناحية المادة والاجتماعية، حيث وقف أمامه خصوم دعوة أهل السنة، ولكن الشيخ استعان بالله وصبر حتى تغلب على تلك المصاعب والعقبات، وهكذا صبر الشيخ على البقاء للتدريس في المسجد، وحبس نفسه للطلاب، فلربما تمر عليه السنة والسنتان أو أكثر لا يخرج من قرته، وهذا أمر يحتاج إلى صبر، وإلا لم يقم مركزٌ وعلمٌ ودعوةٌ.

وهكذا صبره على التدريس، فعنده ثلاثة دروس بعد الظهر، وبعد العصر، وبين مغرب وعشاء، وأحيانًا بعد العشاء، هذا في آخر أمره، وأما في بدأ أمره فهو الذي يدرس في المركز كل شيء، النحو، والمصطلح، وغيره.

ومن صبره أنه كان يُلقي دروسه أحيانًا وهو في غاية من التعب. يقول الشيخ أحمد الوصابي: مرض الشيخُ في إحدى العطل الصيفية مرضًا شديدًا، فقلت له: يا شيخ لو استرحت كان أفضل لك ولصحتك، ولا تكلف نفسك ما لا تُطيق، ويوجد من الإخوة من طلبة العلم المستفيدين من يسد عنك الفراغ، حتى تُعافى. فقال: **لو أموتُ على الكرسي، ولا أترك هذه الوجوه** -يعني طلاب العلم-. أ هـ.

وذات مرة صعد على الكرسي وهو في غاية من التعب، حتى إن ملامح المرض تعرف على وجه، ولم يتم درسه في تلك الليلة إلا بعناء شديد، وفي صبيحتها أُسعف إلى الحديدة، ومثلها يوم أن أُسعف إلى صنعاء، ومنها إلى السعودية وأمريكا، وقبل أن يُسعف كان يعاني من مرضه عناءًا شديدًا، لم يخبر بذلك إلا بعد إسعافه وتحسن حاله، يقول الأخ / محمد الحاشدي: «ما كان الشيخ يُشعر أحدًا بما يعانيه من الألم حتى إنه بعد إسعافه إلى المستشفى، كان يسال عن حاله: فيقول: **أنا متحسن**، ولكن بعد ألم شديد» أ هـ.

بل إن الشيخ كان في مستشفى الثورة وهو متعب جدًا، والزائرون يأتون إليه من كل مكان، ويتحمَّلُ الشيخُ ولا يرد أحدًا مع مرضه الشديد، كذلك عند ذهابه إلى أمريكا للعلاج كان متعبًا لكنه يصبر ويتحمل، ويقابل الناس، ويجيب على أسئلتهم.

قال شيخنا الشيخ/ أبو الحسن – حفظه الله –: «كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ يعاني من أمراض كثيرة، لو وزعت على عدد من الناس لهزمتهم، لكنه كان صَبَّارًا متصبرًا، فلا تراه يتأوَّهُ، وما سمعته في مرضه يشكوا أو يتأوه إلا بعد ما أصابته غيبوبة لمدة أربعة أيام، وكان يُصبِّرُ مرافقيه ويبشرهم بأنه بخير» أ هـ.

ومن المواقف التي تُبين صبره أن الدعوة كانت تمر أحيانًا بمواقف لا

تُطاق من قلة المادة وكثرة المطالب، فقد كانت المساعداتُ تنقطع أحيانًا شهورًا، والشيخ يصبر ويتحمل، ويواصل دروسه، قل من يتحمل تحمُّله.

يقول الشيخ/ أحمد الوصابي، وهو الذي يقوم بحاجات المركز: «حال الشيخ وموقفه في وقت الشدة، أو في الظروف الحرجة أقول في نفسي: لو أنا في موقف الشيخ ما طلعت على كرسي، ولا استطعت أن أُلقي درسًا واحدًا، ولا أجبت على سؤالٍ واحد!» أ هـ.

ومما يدل على عظيم صبره أنه كان في أثناء مرضه، وقد وقف عن الدروس يجاهد نفسه في الكتابة والتأليف، وقد كتب في مرضه كتاب «صعقة الزلزال» وهو في مجلدين، وكذلك انتهى من «تفسير ابن جرير» تحقيقًا.

ومن المواقف التي تدل على عظم صبره أيضًا، ما حدثني به الشيخ / محمد الحاشدي قائلًا: «سقط الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذات مرة في بيته، فكسرت ذراعه اليمنى، وكان ذلك اليوم يوم جمعة قبل الصلاة، ثم خرج الشيخ وهو على حالته تلك لأداء صلاة الجمعة، ولم يشعر أحدًا بما حدث له، وبعد صلاة الجمعة لقيته في المسجد، ومددت يدي لأصافحه، فباشرني باليسرى، فخفت أن يكون حصل له سوءٌ، فلمح ذلك الشيخ في وجهه فقال: **لا شيء، إنما يدي تؤلمني قليلًا**، فأُخذ بعد ذلك إلى المستشفى، وأعجب ما رأيته أن الأطباء كانوا يقبلون يده يمينًا وشمالًا في أثناء إجراء الإشاعة والكشف، فما سمعته يتوجع من ذلك، مع ما يكون من الألم لمن كُسر عظمه، أضف إلى هذا أنه لم يتوقف عن التدريس، بل رجع من المستشفى بعد العصر، وألقى درس المغرب، وقال لطلابه يخبرهم عن مرضه الذي حصل له هذا بسبب ذنوبنا»!!.

وأخبرني الشيخ أحمد الوصابي قائلًا: «أصيب الشيخ بالفتق، وصبر

عليه ثلاث سنوات، ولم يظهر ذلك لأحد، حتى أرتبطت أمعاؤه، فلم يستطع الأكل ولا الشرب، وأتى إليه الطبيب، فنظر إلى مرضه، وقرَّر ذهاب الشيخ للعلاج في المستشفى، فقال الشيخ: **أنا صابرٌ علي هذا منذ ثلاث سنوات، ولا أريد أن يعرف الأقرباء، حتى أشغلهم، وأريد أن أُكمل بعض بحوثي ومشاكلي وأُمشي حالي، لكنِ قدر الله وما شاء فعل.** أ هـ.

ومن أمثال هذا أن الشيخ في مرضه الأخير الذي أُسعف منه إلى صنعاء، ومنها إلى السعودية وأمريكا وألمانيا، قبل أن يُسعف بأسبوع ودروسه متواصلة، ويجيب على الأسئلة، وهو في غاية من التعب، ولكنَّه يتجلدَّ لذلك، وكان الطلاب يأتون إليه بعد الدرس يستفسرونه، وهو يقول لهم: **يا إخوان أنا متعب.** ولم يمنعه تعبه من مواصلة درسه، حتى إن آخر يوم هو يوم الجمعة الرابع عشر من ربيع الأول (١٤٢١هـ)، كان له بين مغرب وعشاء جلسة علميَّة، أجاب فيها على أسئلة أهل البيضاء، وفي ثلث الليل الأخير من تلك الليلة، أُسعف كما تقدم ذكر ذلك، أخبرني بهذا الشيخ/ أحمد الوصابي.

وسمعت الشيخ / أبا حاتم الفاضلي -وهو الذي رافق الشيخ في مرضه الأخير- يتعجب من صبر الشيخ على المرض، فقال: لقد أُعطي الشيخ صبرًا، وتحملًا، حيث إنك لا تسمعه يشكو، ولا يتسخط، ولا يتبرم، بل كثيرًا ما كان يردد **آمنت بالقدر.** أ هـ!!.

وقالت زوجُهُ الفاضلة أم سلمة -حفظها الله- وهي تتحدث عن صبره: «أما صبره فماذا أقول؟! لقد كنَّ نصيح بجواره ونتألم لما به، وهو يضحك!، ويكفي أن أذكر موقفًا واحدًا ونحن في مكة، وقد مر عليه يومان بلياليهن، لا يهدأ له بال، ولا يهنأ له عيش، ولا يستطيع الراحة ولا النوم، بل ولا الاضطجاع، ولا الجلوس، ولا القيام، من شدة ما به، حتى صحت وبكيت عنده، وأقسمت عليه إلا ليذهبن إلى

جدة، ويكشف على نفسه، عند أي طبيب، وهذا إنما هو موقف واحد، من مواقف عِدة، فقد كان يصبر على أي دواء ينصح به، صام عن الطعام واقتصر على لبن الإبل، خمسة عشرة يومًا، ومع هذا فهو يُقيم الدروس كلها، وأبحاثه، ولا يعلم بما فيه من الإرهاق والتعب إلا الله». أ ه!!.

كان الشيخ في أشد المرض في أيامه الأخيرة، وقد فُتح مكان عملية الفتق الآنفة الذكر، والتي أجريت له قبل مرضه الأخيرة، بسنوات، وصارت مياه الاستسقاء، التي أصيب بها الشيخ في أيامه الأخير من مرضه، تخرج من مكان العملية، وكان الشيخ مع هذا كله صابرًا، يقول الشيخ / أبو حاتم: لا تسمع له مع هذا أنَّة يأنها. أ هـ.

٨- صفحُهُ وعفوُهُ وحلمُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ

كان الشيخ يتمتع بخلق العفو والصفح عمن أساء إلى شخصه الكريم.

فقد وُجد من سفهاء الناس من كان يؤذي الشيخ إيذاء شديدًا، والشيخ يستطيع أن يرد له الكيل بكيلين، وذلك أن الشيخ أعطاه الله مهابة وإجلالًا في قلوب الحكام والمسئولين، ولو طلب الشيخ من المسئولين، أن يأخذوا على أيدي أولئك السفهاء لما قصَّروا في طلبه، ولكنه كان يعفو عنهم، ويصفح، ويُحسن إليهم بالمال، وهم على حالهم تلك.

ومن المواقف الدالة على صفحه أنه كانت تأتيه رسائلُ من قبل أعداء الدعوة فيها سبابٌ وشتائمُ قبيحةٌ، فلا يرد الشيخ عليها، وإن رد عليها عند الإلحاح عليه بالرد من قبل حامل الرسالة، فإنه لا يزيد على قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

وكم من مرة يصرح الشيخ أنه مسامحٌ لكل من تكلم فيه، يقول

الشيخ/ عبد الله بن عثمان: «كان إذا طعن أعداء الدعوة في شخصه، فإنه لا ينتقم لنفسه ولا يرد».

ويقول الأخ الفاضل / فواز البعداني: «شهدت خطبة عيد فطر لشيخنا أبي عبد الرحمن رَحِمَهُ اللَّهُ، فقال كلمة هزت مشاعري، وكانت الخطبة على إثر قيام الشيخ من عملية أُجريت له حالت بينه وبين طول قيام رمضان، فقال: **بما أني ما استطعت أن أقوم رمضان فإني أشهدكم أني قد أبحت عرضي،** فتعجبت من هذه العبارة ولم أفهمها، ثم قال الشيخ: **فمن تكلم عليَّ في مجلس أو كتاب أو جريدة أو غيرها، فأنا مسامح له، فلا يأتيني ويعتذر إليَّ، فأنا مسامح له.** أ هـ.

ومن المواقف التي تدل على حلمه ما ذكره لي الأخ الشيخ / صالح بن أحمد الماوي، قائلًا: «كنا مع الشيخ في الحديدة في مرضه الذي كان بعد العملية في الحديدة، وكان مع الشيخ ولد ابنته عبد الرحمن، فكنا نمزح مع الغلام، فزلت لسان أحد الحاضرين بكلمة تغضب الشيخ، فذهب الغلام، فأخبر الشيخ، فلما التقينا بالشيخ قال لنا: **ماذا قلتم لعبد الرحمن؟**، فقلنا: يا شيخ قلنا كذا وكذا. وما كنا نريد ذلك، وتمنيت أني أغوص في الأرض خجلًا وحياء، ولم يعاتب الشيخ أحدًا على ذلك».

ويقول الأخ/ صالح: «في أحد الأيام صليت الفجر في مسجده، فإذا برجل هيئته خليجيَّة، جاء إلى الشيخ يشكو بالطلاب، وهو ماله إلا ثلاثة أيام أو أربع، وليس له خبرة بأحوال الطلاب، وقام أحد الحراس ودفعه عن الشيخ، فقام هذا الرجل يريد أن يُضارب الحارس، مما أدى بالحارس إلى أن يدفعُه بشدة، وسقط سلاح الحرس، فوقع على رجل الشيخ، وجرحت إحدى أصابعه، حتى خرج منها الدم، فأخذ الشيخ نفسه ودخل البيت، ولم يشعرنا بما حصل له في حينه، ولكن بعد». أ هـ.

٩- حبُّ الشيخ لطلابه رحمه الله

إن الشيخ كان يعد نفسه أبًا لطلابه، وهم أبناء له، حتى إن مرة من المرات سأل الطلاب في أحد الدروس قائلًا لهم: **من أكثر الحاضرين أولادًا؟**، فذهب الطلاب يمنة ويسرة كل واحد يظن فلانًا من الناس الذين عندهم أولادًا، ولم يتفطنوا لما يريده الشيخ، وبعد ذلك قال الشيخ: **أنا أكثركم لأنكم كلكم أولادي**.

وأخبرني الأخ / فواز البعداني قائلا: قال لنا الشيخ في أحد دروسه المباركة: **أنا أعتبركم مثل أبنائي، بل أنتم أبنائي؛ لأنه ليس لي أبناء**.

ولهذا الشعور الذي يشعر به الشيخ نحو أبنائه من طلابه، فإنه كان يتألم ألمًا شديدًا لحالتهم من الناحية المادية، ومن ناحية المطعم، والمشرب، والملبس، يخبرني الشيخ/ أحمد الوصابي أنه كان يقول له: **إذا اتصل بك فاعل خير، وسألك عن الطلاب، فقل له: هم بحاجة إلى كساء، وطعام، وزواج، وحق علاج... إلخ** أ هـ.

وقبل أن يكثر الطلاب، كان إذا بلغه مرض طالب من الطلاب كائنًا من كان، فلا تجده إلا سائلًا عن حاله وزائرًا له، ويأتيه بالعسل ولربما صنع له طعامًا طيبًا وأتى به إليه.

وهكذا لما كثر الطلاب، فإنه لم يهمل مثل هذا الأمر، إلا أنه لم يكن مثل سابقه، وذلك لكثرة الطلاب، وعدم معرفته لحال كثير منهم، وأيضًا كبر سن الشيخ وكثرة مشاغله، ومع هذا فإذا بلغه مرض طالب، وكان مرضه شديدًا، ويحتاج إلى عناية، فإن الشيخُ يوصي به خيرًا، وإن كان مرقدًا في المستشفى زاره وواساه وساعده ماديًا ومعنويًا.

وكم من أخٍ جاء يطلب علمًا عند الشيخ، ويسكن في بيت أحد الطلاب فترة، فإذا جاء صاحبها يخرج من البيت، ولا يجد بيتا يسكن فيه، ولا يستطيع أن يشتري بيتًا أو يبني بيتًا، فيذهب إلى الشيخ يشكو إليه حاله، فيقول له الشيخ: تسكن معنا في بيتنا. مع أن بيت الشيخ ليس بذاك البيت الواسع.

وقد سكن الشيخ معه في بيته كثيرًا من الطلاب، وبعض الطلاب يستحي ولا يريد أن يضايق الشيخ في سكنه ودخوله وخروجه -وإن كان الطالب يتمنى اقترابه من الشيخ-، فيترك المركز ويرجع إلى بلده، والشيخ يتألم عليه خاصة إذا كان ممن يُرجى أن ينفع الله بهم الإسلام والمسلمين.

وأحيانًا تكون أمور الشيخ متيسرةً، فيقول لمن جاءه: **اشتر لك بيتًا، أو ابن لك بيتًا، ونحن نساعدك**، فلربما اشترى له بيتًا، أو دفع له تكاليف بناء بيت.

وكان إذا تأخرت المساعدة على الطلاب لتأزُّم أمور الدعوة، يتألم ألمًا شديدًا على حال الطلاب، وما إن يصل المال إلا ويخرجه مباشرة وبسرعة، قال الشيخ/ أحمد الوصابي: «كان إذا جاءه شيء للطلاب فإنه يبادر بإخراجه ويأمر بذلك، ويقول: **خير البر عاجله**». أ هـ.

أحيانًا يأتي بعض الطلاب إلى الشيخ وقد كتب حاجته في ورقة، فيدفعها إلى الشيخ، فيأخذها إلى الشيخ إلى جيبه، فيظن هذا الأخ أن الشيخ لن يبالي بها، ولكن الشيخ بعد دخوله يبدأ يُقلب تلك الأوراق، وينظر فيها، وإذا كانت الدعوة ميسورة، فإنه يخرج وينادي صاحب الورقة إن كان يعرفه من الكرسي قائلًا: **ائتني بعد الدرس**، أو يرسل له بالمال مع شخص آخر، أو يقول الذي أعطاني ورقة يذهب إلى فلان من القائمين على أمور الطلاب، ويكون قد أخبره أو

أعطاه ورقة ذلك الأخ، وقال له: **ساعده في حاجته**. أ هـ.

وإذا كان حالةُ الدعوة مُتعبة، فإن الشيخ يقرأ تلك الورقة ويسكت، وإذا تيسرت الأمور ولو بعد أيام، فإن الشيخ لا ينسى ذلك الطالب وحاجته، بل يساعده إن تيسرت الأمور. ولربما أعطاه بعض حلي زوجه.

أخبرني الأخ/ محمد بن حسين الصباحي. قال: أخبرني محمد بن منصور الرحبي أنه ذات مرة مرضت زوجُ أحد الطلاب مرضًا شديدًا، واحتاج هذا الطالب إلى مال لعلاج زوجه، فذهب محمد بن منصور وزوج المرأة إلى الشيخ الساعة الثالثة بعد العشاء، وطرق الباب على الشيخ، ففتح الشيخ لهما الباب وأخبراه بالخبر، فقال الشيخ: **والله لا أجد شيئًا أعطيك إياه**، فبكى الشيخ مشاركًا لذلك الطالب في الحزن، ثم تذكر الشيخ وقال: **انتظر**، فدخل الشيخ إلى بيته وأخرج معه سواران من الذهب، فقال: **هذا الذي تملكه الأهل خذه وبعه وعالج امرأتك**.

ومن المواقف التي تدل على عنايته بالطلاب أنه كان يخاف عليهم من البرد، ومما يضرهم وينبه القائمين على مصالح الطلاب، أن يتفقدوا أحوال الطلاب، من ناحية المطعم، والمشرب، والمسكن، وغير ذلك.

ولما بُني المسجد الثاني، وفُرش فرح به الطلاب لسعته، فبادروا إلى السكن فيه، وكان باردًا، يقول الشيخ / جميل الصلوي: «رأيت الشيخ لما أنتقل الطلاب إلى المسجد بعد بنائه، وكان باردًا، خرج الشيخ من بيته قرب نصف الليل، ومعه مصباح فجعل يقول: **يا أبنائي إذا خشيتم أن يضركم البرد، فلا باس أن تنتقلوا إلى المساكن الأخرى، أو إلى المكتبة**». أ هـ.

وكان يحرص على سلامة الطلاب أيما حرص، فيأمر بالحراسة ويشدِّد عليها، ويغضب غضبًا شديدًا، لمن أهمل فيها، ولربما خرج بعض الأحيان

يتفقد الحراسة على الطلاب.

ودائمًا كان ينبه على الحرص على مطبخ الطلاب من أن يأتي أحد مدسوسًا فيضع شيئًا يضر بالطلاب.

وكان إذا أتاه أحد الطلاب يطلبه شيئًا وحاجته ضرورية، فلربما أعطاه ما عنده من المال، ولو لم يكن عنده إلا ذلك المال.

يقول الشيخ/ أحمد الوصابي: «ذات مرة، جاء الشيخ طالبٌ، فشكا له حالته، وكانت حال الدعوة ضيقة من جهة المادة، فأحاله عليَّ، فجاءني هذا الطالب والأمور غير ميسورة، فرجعت إلى الشيخ، فقلت له: نحن في انقطاع، فقال لي: الحاجة الضرورية، لو لم يكن عندنا إلا هذا الشيء» أهـ.

وقال أيضًا: «كان الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يجل طلابه، لاسيما إذا رأى طالبًا مجتهدًا في العلم والعبادة، فإذا شفع هذا الطالب شفاعة، قَبِلَ شفاعته، وإذا رآه محتاجًا سواء في زواج أو سفر أو مرض ساعده، إن استطاع مساعدته، أو شفع له عند أهل الخير».

وأخبرني الشيخ/ محمد الحاشدي قال: «كانت تأتي الشيخ بعضُ الرسائل من بعض طلابه، ويذكرون فيها حالهم، فمن رحمته، وشفقته عليهم، يبكي إذا قرأها، وقد شاهدته مرة من المرات، أُخبر بطالب من طلابه أنه مريض، فتغير وجهه» أ هـ.

وقد شاهده كثير من الطلاب يبكي، عند قراءته رسائل لبعض الطلاب الذين يشكون له حالهم، وكان يُفضل البقاء معهم على غيرهم من أصحاب الرئاسة والملك والجاه. فقد قال: **أنا رضيت بكم يا طلبة العلم، ولا أريد مقابلة صحفي أو مسئول، أو مشايخ قبائل**». أ هـ.

ومما يدل على حبِّه لطلابه أنه إذا وكل طالبًا من الطلاب على عمل من

الأعمال لا يحب أن يشغله عن طلب العلم والفائدة، ولربما جاء ذلك الطالب وأراد أن يحاسب الشيخ، ويبيِّن له ماذا مشَّى من المال؟ وماذا بقي؟ فيقول له الشيخ: **أنت طالب علم، ولا نحتاج إلى مثل هذا، ولا تشغل نفسك بمثل هذا.**

أخبرني الشيخ/ أحمد الوصابي أنه قال يومًا للشيخ: -وكان الشيخ موكلًا له في إدارة المركز وشراء ما يحتاج إليه الطلاب- لو أخذت دفترًا وسجلت فيه ما أصرفه، ثم أعرض عليك ذلك، قال: فقال لي الشيخ: **أنت طالب علم لا تشغل نفسك بهذا.**

وأخبرني بمثل هذا الأخ / صالح بن أحمد الماوي، والأخ / عبد الحميد المقطري، وقال الأخ / أحمد الوصابي: الشيخ كان إذا لمح من الشخص شيئًا لا يرتضيه، أو أمرًا يُريبه، فإن هذا الشخص لا يرتضيه في عمل من الأعمال، وينزل قدره من عينه، ولكنه لا يُشعره بذلك، ولا يُشعر غيره. أ هـ.

ومن أمثلة ذلك ما حدثني به شيخنا الشيخ / محمد بن عبد الوهاب الوصابي -حفظه الله- قائلًا: ذهبت إلى الشيخ مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ذات مرة إلى دار الحديث بدماج، وكان معنا رجل ممن اتخذ الدعوة سلمًا للدنيا، فجلسنا في غرفة الضيافة، وجاء الشيخ، فلمح ذلك الرجل في المجلس، فقام مباشرة، وتبعته إلى البيت، وجاء ذلك الشخصُ معنا إلى البيت، فجاء الشيخ ورأى ذلك الرجل، فلم يدخل إلينا، وذهب إلى غرفة نومه في الداخل. أ هـ.

ومما يدل على حبِّه لطلابه تشجيعهم إذا رأى منهم أمورًا حسنة، كالكتابة والتأليف وتقديمه لكتبهم، واحترام آرائهم ولو خالفوه في بعض المسائل، فإنه لا يغضب أبدًا، بل يترك للطالب قناعتهُ؛ فيما

توصل إليه من المسائل التي تحتمل هذا وهذا.

وكان الشيخ حريصًا على راحة طلابه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، أخبرني الشيخ الفاضل/ محمد بابحر: «أن الشيخ كان إذا تيسر له مالٌ فإنه يتحسس بعض الطلاب الفضلاء غير المتزوجين، فيمر بعد صلاة الفجر بين الطلاب، ينظر في صفوفهم، فإذا وقع نظره على طالب محتاج إلى زواج وهو من الطلاب الفضلاء المستفيدين استدعاءه إلى منزله، وأعطاه تكلفة زواجه، قال الأخ/ محمد بابحر وأنا ممن فعل معي ذلك». أ هـ.

وممن فعل الشيخُ معه ذلك أيضًا محمد بن سعيد العدني، أخبرني أن الشيخ أخذه بعد صلاة الفجر إلى بيته، وأعطاه ثلاثة آلاف ريال سعودي ليتزوج، وقال: **اذهب وابحث لك عن زوج، وإن نقص عليك شيء فاتصل بي من أي مكان، وسأصلك بما تحتاج إليه**. أ هـ.

وأخبرني الشيخ/ صالح بن عبد الله الفقير -حفظه الله- أن الشيخ أتاه بعد الفجر، وهو في المسجد، وأخذه إلى البيت، وعرض عليه الزواج، ودفع للمرأة جميع ما تحتاج من كساءٍ وذهب، زد على هذا أنه أعطى صالحًا مبلغًا من المال كبيرًا ليشتري له كساءًا، ويصرف منه على نفسه، ويهدي منه لأهله عند الدخول عليها، قال الشيخ/ صالح: أخبرتني أهلي أن الشيخ أكرمها بالذهب أكثر مما أعطى ابنته ﷺ. أ هـ.

ومن حرصه وحبه لطلابه، أنه كان يحرص في دروسه على أفادة الطلاب بفوائد جديدة في كل درس.

ومن حبه لطلابه، حرصه عليهم أنهم يستفيدوا من أوقاتهم، فكان قبل مرضه يبقى بعد الفجر يدور في المسجد على جوانبه ووسطه، يوقظ النائم، وينبِّه الناعس، وينصح المضيعَ لوقته؛ لأنه وقت مبارك لحفظ القرآن.

ومما يدل على حبه لطلابه، شفاعته لهم عند من يرجو منهم منفعة

تعينهم على طلب العلم، أو غير ذلك، فكان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لا يتوانى عن ذلك أبدًا، فقد قدم ذات مرة طالب من طلاب العلم، أصيب بمرض احتاج أن يُعالج في الخارج، وحالةُ هذا الطالب غير ميسورة، فأتى إلى الطالب لأشفع له عند الشيخ، أن يشفع له عند أهل الخير، فذهبت معه إلى الشيخ بعد أحد دروسه رَحِمَهُ اللهُ، وأخبرته بخبر الأخ، فقال الشيخ: **مرحبًا فماذا تريدون؟**، فقلت له شفاعة إلى أهل الخير، فأخرج القلم، وأعطاني، وقال: **اكتب ما تريد، وأنا سأوقع وأختم**، فتحرَّجت من ذلك، وحاولت التهرب، فأبى إلا ذلك، فكتبت ما يسره الله من الكلام، وأخذ الشيخ القلم، ووقع وختم، وجاءه مرة رجل من الكويت، يريد أن يطلب علمًا عنده، فأخذه الأمن السياسي، وأخذ عليه جوازه، فكتب الشيخ رسالة إلى رئيس الأمن السياسي في اليمن [رسالة شفاعة لذلك الرجل]، ونفع الله بذلك.

١٠- تواضع الشيخ رَحِمَهُ اللهُ

إن تواضع الشيخ أمر معروف ومشتهر، لا ينكره إلا مكابر، ولمزيد بيان ذلك سأضرب لك أخي القارئ أمثلة لتواضعه:

١- تواضُعه في ملبسه:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللهُ لا يتميز في ملبسه عن طلبته، حتى أن الغريب والذي ما عرفه لا يستطيع أن يميزه من بين الطلبة، وإذا عرفه تعجب من تواضعه الجم.

قال صحفي جريدة «المجلة» في مقاله الذي نشره عن الشيخ: **«كان الشيخ أبسط مما ظننت، وأهيب مما توقعت»**، وكان الناظر إلى ملبسه يندهش

من شدة تواضعه. أ هـ.

أخبرني الفاضل الشيخ/ جميل الصلوي -حفظه الله- قائلًا: سمعت الشيخ على إثر رجوعه من دعوة إلى شبوه، قال وهو يتحدث عن رحلته الدعوية: **رأيت شابًا ينظر إلى شعث رأسي، فقلت يا بُني، لا يشغلنك شعث رأسي عن العلم.** أ هـ.

وأخبرني الشيخ منصور الأديي أنه سمع الشيخ يحث الطلاب على الزهد، والحرص على أموال الدعوة، ثم قال: **الحمد لله جميع ما ترونه من الثياب عليَّ؛ فهو مما أهدى إلي، ولولا هذه الهدايا لما أنفت أن أخرج بثوب مُرقع، فسأخرج ونفسي طيبة، وقد كنت أمشي في شوارع صنعاء، والشعر مجعد، ما عندي وقت لمشطه ودهنه، والجبة التي عليَّ قد علاها الدسم والله المستعان.**

٢- تواضعه في مسكنه:

وأما مسكنه فحدِّث عنه ولا حرج، فإن الدار التي يسكنها بيت مبني من الطين، ومع كونه من الطين؛ فقد بُني بصورة متواضعة للغاية، وهي عبارة عن غرف متفرقة، أحسن شيء منها المبني بالطوب وسقفه من خشب الأثل.

ولقد سألت عن تواضعه الشيخ الفاضل خطيب اليمن/ عبد الله بن عثمان الذماري، قال: «تواضعه لا يخفى على من عرفه، لو لم يكن من ذلك إلا سكنه الذي هو من الطين، وهو قادر أن يبني بيتًا مزخرفًا شاهقًا، ولكن أبى إلا أن يسكن ذلك البيت المتواضع». أ هـ.

وقد شهد بتواضع مسكن الشيخ مندوب جريدة «المجلة»، فقال في وصفه لمنزل الشيخ: «منزل الشيخ أقرب المنازل إلى المسجد من جهة

القبلة، كسائر البيوت لا يتميز عنها بشيء». أ هـ.

٣- خدمتُه لضيوفه وطلابه بنفسه:

إن خدمة الشيخ لضيوفه أمر معروف عنه مشهور، فلم يكن عنده خادم يقوم بخدمة من نزل عنده في بيته، ولا يرضى لأحد أن يقوم بذلك، بل هو الذي يأتي بالماء والطعام للضيف، وإن وُجدت فاكهةٌ تحتاج إلى تقطيع أو قشر؛ فإنه هو الذي يقوم بذلك، ولا يرضى لضيفه أن يفعل شيئًا من ذلك.

قال الشيخ/ عبد الله بن عثمان -حفظه الله-: «من تواضعه كنَّا إذا نزلنا عنده يأتي يحمل لنا الطعام أو الزبيب أو العنب بنفسه. حافي القدمين». أهـ.

قلت: أحيانًا يحتاج إلى زيادة طعام من مطبخ الطلاب، فلا يأمر أحدًا بالذهاب على مطبخ الطلاب، بل يخرج بنفسه حاسر الرأس حافي القدمين إلى المطبخ، فما يشعر الطباخُ إلا والشيخ عنده، يطلب حاجته منه، فيأخذها ويرجع.

يخبرني الأخ / محمد بن سعيد العدني أنه جاء إلى الشيخ مع مجموعة من الطلاب، فأخذ الشيخ إناء الماء يغسل للضيوف أيديهم، ورفض أن يُعطيه أحدًا، أو ينوبه أحد. أ هـ.

وكان الشيخ يصلح أحيانًا لضيوفه لقيمات ويُعطيها إلى يد الضيف جاهزة، وهذا خاص بأكلة معروفة في بلده يقال لها «الكواعيب»، وغالب الذين من غير صعده لا يستطيع أحد أن يصلحها، فيقوم الشيخ بإصلاحها وإعطائها الضيف، وهذا قد حصل لأناس كثيرين.

ويحدثني الشيخ الفاضل/ جميل الصلوي أنه رآه ذات مرة، أخرج من بيته قدرًا كبيرًا يحمله على رأسه، قد صنع فيه حُلبةً لطلابه، وذهب به إلى

المطبخ. أ هـ.

وأخبرني الأخ / محمد بن يحيى الحاشدي قائلًا: زرت الشيخ مرة في بداية طلبي للعلم. وعزمت بعد الزيارة على الذهاب. فعزم الشيخ على أن يوصلني على سيارته بنفسه، وأصر على ذلك، وركبت معه إلى منتصف الطريق، وأقسمت ألا يزيد على ذلك، فتوقف الشيخ وبقي معي حتى جاءت سيارةٌ وركبت فيها.

ويخبرني الشيخ / محمد الموصلي - حفظه الله تعالى - أنه جاء إلى الشيخ يريد أن يبقى عنده يطلب علمًا، ولكن يريد طالب علمٍ مستفيدًا، ينزل مكانه في مسجد الخير، قال: فأخبرت الشيخ بذلك بعد العشاء، فأشار عليَّ أن ينزل مكاني الشيخ / محمد بن عبد الوهاب الوصابي بذلك، قال: فطلبت من الشيخ أن يخبر الشيخُ/ محمد بن عبد الوهاب الوصابي، فذهب معي على ضوء القمر، والمسافة بين منزل الشيخ وسكن الطلاب يستغرق ربع ساعة أو عشرة دقائق تقريبًا.

وأخبرني الشيخ / عايض مسمار أنه مرة من المرات جاء زائرًا للشيخ مع مجموعة من الناس، وليس فيهم سائق، وهم محتاجون إلى سائق، قال الشيخ عايض: فخرج الشيخ وأوصلنا هو بنفسه.

٤- مداعبتُه وحبُّه للأطفال الصغار من أبناء طلبته:

كان الشيخ رحمه الله يعامل الأطفال من أبناء طلبته معاملة حسنة، قد لا تتوفر عند بعض آبائهم، يأتي إليه الطفل في سن السادسة، ويوقفه في الطريق، ويكون معه أناس كبار وذوو وجاهات، فيتوقف الشيخ وينظر في حاجته وما يريد، إن كان يريد أن يسأل سمع له، وإن كان أراد من الشيخ أن يقبِّله انحنى الشيخ وقبله، وضحك معه وأحيانًا يأتيه الطفل ويسلم عليه فيقبله الشيخ ويأخذه معه إلى بيته، وأحيانًا يحمله الشيخ ويدخل به البيت،

وأحيانًا يكون الشيخُ على كرسي التحديث، وبين يديه مئات الطلبة أحيانًا يبلغون فوق الألفين، ويأتيه الطفل الذي سنه لا يزيد على السابعة، بل يكون أصغر من ذلك، ويصعد على الكرسي يريد أن يقرأ على المكبِّر سورة قد حفظها، كسورة الإخلاص، أو حديثًا صغيرًا، فيقطع الشيخ درسه، ويمكِّن ذلك الطفل من المكبِّر وهو يضحك، ثم يقبِّل ذلك الطفل على رأسه ويدعو له، ثم يواصل درسه، ولهذا كله كان الأطفال يحبون الشيخ حبًا كثيرًا، وإذا غاب الشيخ سأل عنه الأطفالُ، حتى إن بعض الأطفال يسأل أتحب أباك أكثر أم الشيخ؟ فيقول: الشيخ.

٥- قبوله النقد من طلابه ومن غير طلابه:

إذا كان النقد صوابًا، فإن الشيخ يفرح بذلك، فكم من مرة يحدث الشيخ بحديث يكون ظاهر إسناده الصحة، ويأتيه بعض الطلاب ويخبره أنه وجد للحديث علة في بعض كتب العلل، فيفرح الشيخ بذلك، ويتراجع، ويعلن من فوق الكرسي أن فلانًا أفادنا بكذا وكذا، ويُثني عليه.

وأحيانًا الشيخ يسأل بعض الطلاب ببعض الأسئلة، فيجيب الطالب بالجواب الصحيح، ويهم الشيخ، ويقول له: **اجلس. لم تجب**. ثم يُنبه الشيخ على أن جواب الطالب هو الصحيح، فينتبه الشيخُ ويقول: **أصبت يا فلان وأخطأتُ**.

ويخبرني الشيخ / أحمد بن سعيد قائلًا: سألت الشيخ يومًا عن النور هل هو اسم من أسماء الله؟ فقال: **لا**، ثم سأل هل تعلم أحدًا من السلف قال أنه اسم من أسماء الله؟ فقلت له: نعم. شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن الوزير، فقال الشيخ بعد أن سمع هذا: **إذ هو اسمٌ من أسماء الله**. أ هـ.

وأخبرني أيضًا قائلًا: كنت أعطي الشيخ بعض الفوائد الحديثية في

أوراق فيقول: اكتب اسمك عليها، وأحيانًا يعطيني بعض مؤلفاته أُضيفُها فيها؛ كـ«أحاديث مُعلة»، و«الجامع الصحيح»، و«التفسير»، و«المستدرك»، و«أسباب النزول»، ويقول: اكتب اسمك عليها. أ هـ.

وذكر الشيخ في أحد دروسه أن فريدًا المالكي يقول بتحريق كتاب «فتح الباري»، فقال الشيخ: **بل هو الذي يُحرِّق**. فقام طالب من الحلقة صغيرًا فقال: يا شيخ الرسول يقول: **«لا يُعذب بالنار إلا رب النار»**، فقال الشيخ: أستغفر الله، وأتوب إليه لكن يُعزَّرُ.

ولطالما سمعنا شيخنا يردد: **نحن طلبة علم نصيب ونخطئ، ونجهل ونعلم.**

وقال أيضًا: **نصيحة تأتيني من نجد، أو من صنعاء، أو من الجزائر، أو من غيرها، أحب إلي من الدنيا وما فيها، أتقبلها؛ لأننا طلبة علم نُصيب ونُخطئ، ونجهل ونعلم.**

وقال أيضًا: **أنا أتحرى في كتاباتي وأشرطتي الصحة، ومن أتى بحديث ضعيف قد استدللت به، وهذا نادر فيشكر على ذلك**

٦- اتهام نفسه بالتقصير:

لقد كان الشيخ رحمه الله من خيرة من عرفت في تمسكه بالسنة، وفي إخلاصه في جميع أعماله، هكذا أحسبُه والله حسيبه، ومع هذا تجده دائمًا يتهم نفسه بالتقصير، ويعلن ذلك في كثير من كتبه وأشرطته، فقد قال: **الذي يقول نحن متشددون، فهو ما عرف الإسلام، فأي حرام أحللناه؟ وأي حلال حرمناه؟ وأي مندوب رفعناه إلى حد الوجوب؟ بل الواقع أننا متساهلون، ولسنا بمتشددين، ياليتنا نكون وسطًا.**

وقال: **الذي يتهمنا بأننا مقصرون متساهلون؛ أشهد لله أنه هو الصادق.**

وسمعته يقول في بعض دروسه: **أخشى على نفسي أن أكون كما قيل:**

وغيرُ تقي يأمرُ الناس بالتقى   طبيبٌ يداوي الناس وهو مريض

وأخبرني الأخ الفاضل / منصور الأديبي قال: «قرأ أحد الطلاب على الشيخ الأبيات التالية:

يـــا خـــيـــرة الأقـــوال   وضـــعـــوك فـــي الأغـــلال

لـــيـس الـــمـدرس مـــخـلـصًـــا   والـــطـــفـــل غـــيـــر مـــبـــال

هـــذا لـــنـــيـــل شـــهـــادةٍ   وذا لـــنـــيـــل الـــمـــال

فقال الشيخ لذلك الطالب: **إذا جئت على قوله ليس المدرس مخلصًا أشرت إلي، وإن جئت على قول والطفل غير مبال أشرت على نفسك**. أ هـ.

وأخبرني الأخ/ منصور الأديبي أنه سمع الشيخ يقول: **يا قومنا لسنا نغركم، ولا نمنيكم، والله إننا لسنا راضين عن أنفسنا**. أ هـ.

٧- إشراك غيره في الكلام في مجامع الناس الكبيرة وعدمُ تفرده بذلك:

كان رحمه الله إذا أُعلنت له محاضرةٌ في إحدى محافظات اليمن، يجتمع لمحاضراته آلاف السامعين، فيأبى أن ينفرد بالكلام ويقول: **إنه يحب أن يسمع من غيره**. فيقدم بعض الدعاة والعلماء من طلابه، أو يتكلم قليلًا، ويترك المجال لغيره، بل أكبر من هذا أنه ذات مرة صعد على المنبر وسلم، وبعد سلامه علم أن الشيخ عبد الله بن عثمان في المسجد، فنزل من على المنبر، وقدَّم الشيخ عبد الله بن عثمان، ولنترك الشيخ / عبد الله بن عثمان يقص لنا خبر هذه القصة الحادثة بنفسه قائلًا: «ذات مرة زرتُه يوم جمعةٍ، وعند وصولي، لم أعلمه بذلك، وما دخلت المسجد إلا قرب الأذان، ودخلت متخفيًا منه، حتى لا يأمرني بالخطبة، رغبة في الاستفادة من علمه، وحياء منه، فصعد المنبر فسلم، وأذن المؤذن، فرأى بعض

رفاقي، فعرفهم، وعلم أني موجود، قال: **أين عبد الله بن عثمان؟** فاستحييت وسكت، فقيل له: ها هو ذا، فقال: **إما أن يأتي، وإما أن أنزل فأقيمه أنا**، فنزل من المنبر، وأمرني أن أخطب، وقمت وأنا أشعر بخجل شديد منه، ومن الحاضرين، وتعجبت من تواضعه! حيث نزل من المنبر بعد أذان المؤذن، مع الفرق بيني وبينه فأنا طُويلب وهو إمامٌ في العلم». أ هـ.

٨- ومن تواضعه أنه كان لا يسألُ أحدًا شيئًا، وإن كان يحتاج إليه:

يقول الشيخ/ أحمد الوصابي: «ذات مرة اشتد البرد في الشتاء، والشيخ ليس عنده ثوب مناسب للبرد، ولا يعلم أحد أنه يحتاج لذلك إلا أهله، شعرت أنه يتأذى من البرد، فأرسلت إلي أن أفصِّل للشيخ ثوبًا مناسبًا للبرد، فذهبت وفصَّلت له ثوبين حسنين، وجئته بهما، فأعطيته، فقال: **جاء في الوقت المناسب إلا أني لم أطلبه**. أ هـ.

وكان الشيخ أحيانًا قبل مرضه يُخرج اسطوانة الغاز من البيت، فيأتي بعض الطلاب ليأخذها عنه، فيأبى أن يُعطيه، وإن أصر الطالب فإن الشيخ يأبى إلا أن يساعده، وفي هذا يقول الشيخ / أحمد الوصابي: «كان لا يرضى لأحد أن يأخذ معه حاجته إلا أن يساعده؛ مع ما هو عليه من التعب». أ هـ.

ويحدثني الأخ الفاضل / مقبل العويري، أن الشيخ يوم أن مرض وأُسعف إلى الحديدة، وبقي هناك في بيت جرمان، جاء الليل وكان الجو حارًا، وفي غرفته مروحة ومُكيف، والشيخ يتعب من ذلك، قال الأخ مقبل: «فخرج الشيخ إلى حجرة الطعام أو ما يُسمى بالصالة، ووجد فيها فراشًا ليس فيه غطاء والمروحة شغالة لمدافعة البعوض، قال الأخ مقبل:

فشعرت أنه يحتاج إلى غطاء، ولا يوجد عندنا فقلت: يا شيخ: تحتاج إلى غطاء؟ فقال: **إن تيسر**فقلت له: نذهب ونشتري لك؟ فقال: **انظر الأخ صالح الماوي -وكان معه المال- إن رضي**، قال الأخ مقبل: فذهبت وكلمت الأخ صالح، وأعطاني شيئًا من المال وذهبت واشتريت له غطاء حسنًا، فجئته به، ففرح بذلك، وقال: **جزاك الله خيرًا**.

وقالت زوجُهُ أم سلمة: «كان رَحِمَهُ اللهُ لا يحب أن يطلب من أحد شيئًا، ولو كان من أقرب الأقربين، بل يحب أن يأخذ مراده بنفسه» أ هـ.

٩- ومن تواضع مسابقته لطلابه:

ومن المواقف التي تدل على تواضعه أنه كان يخرج إلى الوادي قبل مرضه أحيانًا، ويخرج معه بعض الطلاب، فيبقى الشيخ معهم على الرمل، ويطلب منهم المسابقة في الوادي، فيضع عمامته، ويخلع نعليه، وينزع الجبة إن كانت عليه، ثم يبدأ بمسابقة الطلاب.

١٠- عملُه في مزرعته:

كانت للشيخ مزرعةٌ بجانب بيته، فكان يخرج بعد العصر يعمل فيها بالمسحاة، فيراه بعض الطلاب، فيهب ليعمل مكانه، فيأبى ويستمر في عمله، ويقول: **إن العمل يجعل الإنسان نشيطًا**.

١١- مشيهُ حافيًا أحيانًا:

كان الشيخ يخرج أحيانًا بعد العصر إلى خارج بيته نزهةً، فنراه يمشي ذاهبًا وآيبًا حافيًا.

١٢- تواضعه في مركبه:

كان رَحِمَهُ اللهُ يركب في رحلته إلى أحدى المحافظات في المركب الواسط

من السيارة، فيحرص الرفقاء على أن يتركوا له المكان واسعًا، ولا يزاحموه ليرتاح نظرًا لكبر سنه ومرضه، ويأتي طالب أو شخص يجب أن يصحب الشيخ والسيارة قد ملئت، فيفسح له الشيخ بجانبه، وإن أدَّى إلى مضايقته.

يخبرني الأخ/ محمد الحاشدي أن الشيخ كان في سفره لا يُتعب أحدًا من مرافقيه، ومتى طلب المشي وأخبر بذلك يقوم مسرعًا ولا يتأخر. أ هـ.

ومن ذلك أنه ربما يركب في صندوق السيارة وغيره في داخلها، أخبرني الشيخ/ عبد المصور حفظه الله أن الشيخ جاءه خبر تفجير الشيعة وتلغيمهم لمسجد جميدة، فقام مسرعًا، وخرج وكان عنده سيارةٌ ذات حوض، فركب بعض أهل البلاد في الداخل، والشيخ صعد على الحوض، قال الشيخ / عبد المصور: وأنا من الذين ركبوا معه، وحفظنا حديث: **غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**.

وأخبرني الشيخ / محمد بن علي بن مقبول المحمدي، أن الشيخ كان وهو في المدينة يركب في حوض السيارة أحيانًا وغيره في داخلها.

١٣- تواضعه في مطعمه:

أخبرني الأخ الفاضل/ أحمد الوصابي عن طعام الشيخ فقال: «كان لا يهتم بطعامه، وكان غالب ما يأكل شيئًا من اللبن مع الخبز الناشف، وكان طعامه لا يتعدَّد، إما أرز مع دجاج إن تيسر ذلك، وإلا مع البطاط، أو عصيدة مع مرقة».

وأخبرني الأخ الفاضل / أبو عبد الله صادق العبديني قائلًا: «ذات مرة زار الشيخ أحد التجار الكبار المحبين للشيخ، فلاحظ أن الشيخ لا يهتم بمطعمه، فقال للشيخ: لابد أن تتغذى يا شيخ غذاء طيبًا، فقال الشيخ: **الحمد لله، أنا آكل هذه الأيام يأتيني لبنٌ من بعض الجيران فأتناوله مع**

الخبز. أ هـ.

١٤- عدم تأمُّره في سفره:

ومن تواضعه أنه ما كان يحبُّ أن يتأمر في أسفاره ويُؤَمِّرُ على نفسه ورفقته بعض الطلاب.

يقول الأخ / محمد الحاشدي: «ما كان الشيخ يحب أن يتأمَّر ولا تأمَّر مرة فيما أعلم، ويقول أنا لا أصلح لها، ويختار أميرًا من المرافقين على الرحلة وهو من ضمنها». أ هـ.

ولقد خرج مرة رحلة وزار في رحلته العدين وإب وبعدان، وجاء إليه بعض المحبين لدعوة أهل السنة، يريدون منه أن يزورهم، وكان الشيخ يرغب في زيارتهم، ولم يكن هو الأمير على الرحلة، وكان الأمير الشيخ / عبد الله مقود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فذهب الشيخ إلى أمير الرحلة يستأذنه في زيارة الشَّعِر، فأخبره الأمير بأنه قد أعلنت المحاضرة في عدن اليوم الثاني، وأن تأخيرها بعد الإعلان عنها غير مرضي، فرجع الشيخ وسلم لأمر الأمير، وهذا موقف أنا شاهدته، وهو يدل على تواضع الشيخ الجم.

١٥- مساعدة أهل بيته ببعض الأعمال:

كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقوم بمساعدة أهله ببعض الأعمال، يخبرني الأخ الشيخ الفاضل/ أحمد بن سعيد الأشهبي قائلًا: «كان الشيخ يدرسنا ابن عقيل، بعد درس البخاري، قبل المغرب، وفي شهر رمضان كان يتخلفُ أحيانًا عن الدرس، فيأتي إلى طلابه يستأذنهم، ويقول لهم: **عندي اليوم خوض الحلبة** -أي أنه يساعد أهله بخلط الحُلبة-». أ هـ.

وأخبرتني أهلي أمُّ عبد الله -حفظها الله- أنها دخلت يومًا من الأيام بيت الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فرأت الشيخ يقطع الخشب بالفأس لأهل بيته. أ هـ.

وكان رَحِمَهُ اللهُ هو الذي يخرج قُمامة بيته أحيانًا إلى مكان القمامة.

١٦- عدم رضاه بالألقاب الضخمة وإن كان يستحقُها:

ومما يدل على ذلك أنه ذكر يومًا أنه أُهدى له ختمٌ فيه اسمه، وكُتب على الختم: الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، زعيم السلفيين، أو رئيس أهل السنة.

فقال الشيخ: أنه شطب لفظة رئيس، ولفظة شيخ، وقال: **أنا أعتبر نفسي طالب علم، حتى يتوفاني اله، وأعتبر نفسي أبا للطلاب، وهذا الذي سينفع الإسلام والمسلمين.** أ هـ.

١٧- ابتداءُ من قابله بالسلام:

ومن تواضعه الجمّ أنه كان هو الذي يبدأ طلابه بالسلام وغير طلابه، وقلما يبدأه الطلاب أو غيرهم بذلك، وهذا يدل على تواضعه.

١٨- قبوله الهدية اليسيرة:

أخبرني الشيخ / محمد بابحر أن خالته كان عندها علبةٌ صغيرة من السمن، فطلبت من الأخ / محمد أن يحملها إلى الشيخ هدية منها، والأخ محمد يخبرني أنه كان متحرِّجًا؛ لأن تلك الهدية ليس بذاك الشيء، قال: فحملتها وأعطيت الشيخ، فأخذها، وهذا الفعل من الشيخ تأسيًا منه بالنبي ﷺ حيث قال: «**لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدي إلي كراعٌ لقبلت**».

١٩- نزوله عند رغبة طلابه ومن جاء إليه:

أخبرني الشيخ/ أحمد بن عبد الله بن غالب الوصابي قال –حفظه الله– «ذات مرة ضقت من بعض الأشياء، من ذلك كثرة المشاغل، فكنت أحب أن أتفرغ لطلب العلم، وما جئت إلا لطلب العلم، وهي أمنيتي، وكان عند

الشيخ ضيوف، فدخلت مع بعض الإخوة بطعام العشاء للضيوف، ومكثت عند الباب، وقلت: يا شيخ أريد أن أتكلم معك في أمر ما، فشعر أني متضايق، وكان الشيخ عنده فراسة، فما أن انتهى العشاء إلا وخرج إلي، وأنا عند باب المخزن، فقال: **أين تحب أن نتكلم؟!**، قلت: أينما تريد، قال: **أينما تريد أنت!**، فدخلت المخزن ودخل معي؛ والمخزن فيه دقيق ورز وأكياس الفول، فاستحييت، وقلت في نفسي: الشيخ يأتي إلي وفي هذا المكان، وعليه جبته، فشكوت له حالي، وطلبت منه أن يعفيني من هذه المسئولية، فجلس الشيخ على أكياس الفول، وتكلم معي، وأشعرني أنَّا في مقام واحد، وأن أمر الدعوة لابد أن نتعاون فيه جميعًا، ومن أراد الخير لابد أن يصبر فخجلتُ منه، وخرج وهو يضحك رَحِمَهُ اللَّهُ». أ هـ.

١١- شجاعة الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ

ومما حبا الله به الشيخ من الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة خلق الشجاعة، فقد كان الشيخ شجاعًا في كثير من المواقف التي جَبُنَ فيها كثير من الناس، من هذه المواقف التي تدل على شجاعته:

١- صدعُهُ بالحق إذا عرفه وتبين له:

عُرف عن الشيخ أنه إذا تبين له الحق في مسألة من المسائل أو قضية من القضايا، فإنه يصدع بذلك ولا يخاف في الله لومة لائم، سواء كان الأمر يتعلق بشخص أو بدولة.

قال الشيخ / عبد الله بن عثمان -حفظه الله- وهو يحدثني عن الشيخ مقبل: «إنني ما رأيت أشجع من الشيخ في الحق إذا تبين له، فإنه يصدع به ولا يخشى في الله لومة لائم، وهذا أمرٌ غير خاف على من عرف الشيخ، ولقد قلت له يومًا عندما أراد أن يخرج كتابًا من كتبه؛ وقد تكلم فيه على

بعض الأشخاص، يا شيخ: أنا أخاف عليك من أن تُؤذى، فقال الشيخ: **أموت ويبقى الكتاب**، فعرفت أنه لا يتراجع في إظهار الحق بعد أن يعرفه، أو في نصح الحكام وغيرهم، إذا وقعوا في أخطاء، ومواقفه التي تُبدي شجاعته وقوته في الحق كثيرة». أ هـ.

وكم من كتاب يصدره الشيخ، ويكون قد أخبر الطلاب بمضمونه، وأن فيه كلامًا على كذا وكذا من الشخصيات، أو الجماعات، فيتخوف الطلاب والمحبون للشيخ من صدور ذلك الكتاب، ويأتون إلى الشيخ يترجونه أو يوفق الكتاب؛ خوفًا منهم على الشيخ، ويأبى الشيخ إلا إخراج الكتاب.

٢- ثباتُه في مواقف خاف فيها كثير من الناس:

من أمثلة ذلك:

أ- حادث مسجد الهادي.

ففي أول أمر الدعوة جاء الشيعة إلى أقرباء الشيخ، وأنذروهم أنهم إن لم يمنعوا الشيخ من الكلام في مسجد الهادي سيحصل أمور لا تحمد عقابها، وجاء أقرباء الشيخ إليه، وأخبروه أنه ممنوع من الكلام في مسجد الهادي، فسكت الشيخ، وفي إحدى الجمع من شهر رمضان أخذ الشيخ نفسه وانطلق إلى جامع الهادي، وبينما هو في المسجد، إذ يأتيه خطاب، فيه منع الشيخ من الكلام، والشيخ كأنه ما بلغه شيء، ولا سمع شيئًا، وما أن انتهى المصلون من صلاة الجمعة، وإذا الشيخ يأخذ عصاه ويقف بكل شجاعة وقوة جأش، ويبدأ الكلام والناس يملئون المسجد من قبائل شتى، فقام رجل شقي من الشيعة يقال له: صلاح فليته، وأثار الفتنة وحرض الناس على الشيخ، فانقلب المسجد كالسيل العرمرم على الشيخ، منهم المتفرج على الشيخ، ومنهم وهم الأكثر والأغلب الذين يريدون أن يفتكوا بالشيخ

ويقضوا عليه، والقليل الذين وقفوا مع الشيخ مناصرين له؛ لا قناعة بما يدعو إليه ولكن أخذتهم الحمية القبلية، وأخرج الشيخ إلى الباب، والغريب في هذا الحادث وهو دليل على شجاعة الشيخ، أنه بعد حصول ما حصل، وقد نجا، جاءه أحد رجال القبائل، من قبيلة سحار، وكذلك رجل آخر من رجال سحار أيضًا، وقالا للشيخ: إذا أردت أن ترجع وتخطب رجعت ونحن معك، ولم يخف الشيخ مما سبق، ولكنه رجع ورقى المنبر، وبدأ بالكلام وعادت الفوضى مرة أخرى، وأشد مما كان، وأُطلقت طلقات نارية بسلاح الكلاشنكوف في سقف المسجد، كان الغرض منها تفريق الناس عن الشيخ، وفر من يقال لهم السادة بعمائمهم هاربين عن طريق برك الماء، وبقيت تلك العمائم طافية على الماء، وأُخرج الشيخ من الجامع، وهدف الشيخ من هذا كله هو أن يعرف الناس أن هناك دعوة تناوئُ دعوة الرفض، ودعوة القبوريين، وحصل بالفعل بسبب هذا الموقف تساؤلات من الناس، وشاع أمرُ الشيخ بين القبائل في السهول والوديان، ما بين مؤيد وما بين ناقم؛ وهم الكثير، الشاهد من ذكر هذا الموقف شجاعة الشيخ وإقدامه.

ب- مواقفه من مسجد بن سليمان:

أخبرني به الشيخ/ مقبل المهذري -وهو ممن عاش مع الشيخ في بدأ الدعوة- قال: «دخلنا ذات مرة في بدأ الدعوة مسجد بن سلمان في صعدة، ومراد الشيخ من الدخول في هذا المسجد أن يحاضر فيه، فاجتمع الشيعة يريدون منعه من الكلام، فإذا برفاق الشيخ يتخوفون من تجمع الشيعة أن يُحدثوا شيئًا بالشيخ، فأشاروا على الشيخ بالخروج من المسجد، فأبى الشيخ الخروج. وقال: **مادام وقد دخلنا فلابد من الكلام**، وقام بين مغرب وعشاء وهو مطمئن البال، وكأن لم يكن هناك شيء، وتكلم وبفضل الله لم

يحصل شيء، وأخبرني بهذا أيضًا الشيخ أبو حاتم الفاضلي أن الشيخ أخبره بذلك في رحلته المرضية».

ج- موقفه في حادث مسجد جميدة:

كان الوالد أحمد جميدة رَحِمَهُ اللهُ وأولاده من المناصرين للشيخ من بدء الدعوة، فقام ببناء مسجد للسنة، وهو أكبر مسجد للسنة في مدينة «صعدة» الآن، ولما رأى الشيعة أن هذا المسجد ستنتشر منه سننٌ وتوحيدٌ وسيكون منبرًا لبيان الحق من الباطل، والسنة من البدعة، لم يهدأ لهم بال، ولم يقر لهم قرار، من أجل ذلك قاموا بوضع ما يقارب ثلاثة وخمسين لغمًا، قبل أن يتم المسجد، ووزعت تلك الألغام على جميع جوانبه، الهدف من ذلك إسقاط سقفه، والقضاء عليه، ولكن الله خيَّب أملهم، ولم يتفجر من تلك الألغام إلا لغمان، عند بوابة المسجد، وانقطعت الشبكة ولم تتفجر البقية.

بلغ هذا الخبر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، فحرك على إثره مباشرة؛ نصرة لإخوانه آل جميدة، وأبلغ أهل السنة في صنعاء وذمار بما حدث، وتحرك كثير من أهل السنة والمحبين للدعوة، وبالمقابل تحركت «الرافضة» ومعهم وكيل المحافظ الحرازي، وفي يوم الجمعة حضر جمع من الشيعة، وأراد وكيل المحافظ أن يمنع الشيخ من خطبة الجمعة في مسجد جميدة، فأخرج طقومًا عسكرية ونشر العساكر حول المسجد وفي الشوارع، وصار بين وكيل المحافظ والشيخ حسين فايد، أحد مشايخ سحار مشادة، فالشيخ حسين فايد يريد أن يخطب الشيخ مقبل في مسجد جميدة، ووكيل المحافظ لا يريد ذلك، وكان شيعيًا وأحتدم الأمر وحمي الوطيس بين الشيخ حسين فايد، وبين وكيل المحافظ، وكان يومًا عصيبًا، خاف فيه كثير من الناس، وخشوا من وقوع أمر عظيم، ومع هذا كله فإن الشيخ لم يبالِ بهذه الزوبعة، وما إن حضر وقت الخطبة؛ إلا ويقوم الشيخ خطيبًا، ولم يبالِ بما كان يدور، ثم حصل

بعد هذا اجتماع لأهل السنة في دماج، وقام الشيخ وتلكم ومن ضمن ما قاله في كلمته: **انتصرت السنة ورب الكعبة.**

د- موقفُهُ في حادث مسجد الرحمن بعدن:

هذا الموقف هو من المواقف العظيمة التي تدل على شجاعة الشيخ، وذلك أنْ الشيخ خرج دعوة إلى المحافظات الجنوبية من محافظات اليمن، وأُعلن له عن محاضرة في أحد مساجد مدينة «عدن» يقال له مسجد الرحمن، وألقى الشيخ محاضرته من أعلى المنبر في قبلة المسجد، وما أن انتهى الشيخ من المحاضرة إلا ويسمع انفجارًا عظيمًا ارتج له المسجد، وذعر منه الناس، وظن الحاضرون الذين في داخل المسجد أن سطح المسجد قد أُخذ، وكان الانفجار لغم وضع قريبًا من قبلة المسجد، الهدف منه القضاء على الشيخ والإطاحة به، قال الشيخ وهو يصف هذا الانفجار: **بينما المؤذن يؤذن لصلاة العشاء، وإذا بانفجار اللغم، وكنا في الداخل، فجعلت أنظر سقف المسجد أين أجد الفرجة، لأني كنت أظنه في المسجد، فقد اهتز المسجد أيما اهتزاز، فإذا بالانفجار خارج المسجد.** أ هـ.

قال الشيخ/ محمد الحاشدي، هو ممن كان مع الشيخ في هذا الموقف: «بينما نحن في مسجد الرحمن في عدن وقد انتهت المحاضرة، وقام المؤذن لأذان صلاة العشاء، ومن عادة الشيخ في محاضراته ازدحام الناس، وامتلاء المسجد بالسامعين، وإذا انتهت المحاضرة، يدخل الشيخ الغرفة التي في مقدمة المسجد؛ إن وجدت، فنزل الشيخ من المنبر متجهًا إلى الغرفة، وكنت أكلمه في أمره، وبينما أنا أكلمه سمعنا انفجارًا عظيمًا ارتجت له البلاد، وظن الحاضرون أن سطح المسجد قد ذهب، وأما الشيخ فلم يزد أن نظر إلى سطح المسجد، ثم نزل إلى الغرفة، وذهب إلى منزل بعيد من

المسجد قليلًا، فلما وصلنا إلى البيت سألني الشيخ عن الموضوع الذي كنت أكلمه فيه، فاستغربت حيث أن الشيخ لم ينسه ذلك الحادث؛ الذي أزعج الكثير من الحاضرين، وصار حديث الساعة، والناس ما بين محلل، ومستفسر، وسائل، وصامت».

يقول الشيخ / صالح بن أحمد الماوي -وهو أحد الحاضرين في هذا الحادث أيضًا-: «لما وقع الانفجار في مسجد الرحمن في عدن، وذهبنا إلى بعض بيوت الإخوة، جعل الشيخ يسأل عندك يا فلان: ما صحة حديث كذا؟ والكثير من الحاضرين وجهه مكفهر، ربما لا يتكلم». أ هـ.

هـ- موقفه في حادث حصل في مسجده:

ذات مرة قام الشيخ/ أحمد الوصابي في مركز الشيخ؛ على إثر انطفاء الكهرباء بتشغيل مصباح الغاز، وفي بداية تشغيله اشتعل نارًا، وكان في خارج المسجد عند الباب، والمسجد مليء بالطلاب في وقت درس المغرب، وكانت تلك الأيام أيام الحرب مع الحزب الإشتراكي، فالذين في مقدمة الباب رأوا النار مشتعلة، فخافوا من ذلك، فقاموا فزعين، متجهين إلى مقدمة المسجد، والذين في داخل المسجد لم يعرفوا السبب الذي من أجله فزع الذين عند الباب، فظن الكثير أن فاعل سوء أراد أن يُحدث أمرًا في المسجد، ففزعوا كما فزع الذين كانوا عند الباب، وفزع معهم من بقي في مقدمة المسجد، فصار يعلو بعضهم بعضًا، ومنهم الذي هو خائف على الشيخ، وأما الشيخ فلم يتحرك من كرسيه، وظل يهدأ الإخوة في طمأنينة وشجاعة وسكينة، وكأنه لم يحصل شيء.

و- موقفه من حادث حصل في أثناء محاضرة له في الحديدة:

زار الشيخ ذات مرة الحديدة وأُعلنت له محاضرةٌ، فحضرها الآلاف

من الناس، وفي أثناء المحاضرة أُلقي هر في أوساط الناس، ففزع الذي أُلقي عليه الهر، فألقاه من بين يديه، فوقع في أوساط أناس آخرين، ففزعوا، وقاموا من الفزع، وفزع لفزعهم من رآهم، وظن البعض أنه أُلقي بن الناس شيء من المتفجرات، فحصلت فوضى وهرب من هرب من الناس، حتى ترك بعضهم ولده، ولم ينتبه له، والشيخ مع هذا كله على الكرسي هادئ البال، يُطمئن الناس بكل شجاعة.

ز- حادثٌ حصل والشيخ يخطب جمعة في مسجده:

كان الشيخ في أحداث الخليج يخطب الجمعة في مسجده، وفي أثناء الخطبة حصلت ضجة عظيمة، وارتفعت الأصوات، واجتمع الناس في مكان من المسجد، وظن الذي كان بعيدًا من مكان تلك الضجة؛ أن رجلًا كان يريد أن يُؤذي الشيخ، ومع هذا كله؛ فإن الشيخ لم يضطرب في خطبته، ولم يتلعثم، ولم ينزل حذراً على نفسه، ولكنه بقى على المنبر، وجعل يُخفضُ أصوات الناس، ثم استمر في خطبته.

ح- موقفه في مسجد إب:

زار الشيخ محافظة إب، وأعلنت له محاضرة، وفي أثناء المحاضرة حصلت فوضى في المسجد عظيمة، مما أدى إلى قعقعة السلاح، فلما سمع الناس ذلك خرجوا مسرعين قد ذعروا، والشيخ واقف، وفي أثناء وقوفه جاءه رجل يسأله، والشيخ استعد لإجابته! إلا أن الحراس خشوا على الشيخ من أن تُستغل الفوضى التي حصلت، فيأتي بعض المغرضين ويُحدث أمرًا بالشيخ، فجعلوا يسرعون بإخراج الشيخ من المسجد، والشيخ كان يحب أن يجيب على ذلك السائل، مع أن الناس قد نفروا نفورًا شديدًا هاربين، أخبرني بهذا الأخ / صالح بن أحمد الماوي، وكان أحد الحاضرين في هذا الموقف.

٣- عدم خوفه من أهل الشر، وعدم مبالاته بهم:

ومما يدل على شجاعته أنه كان لا يخاف من أهل الشر، حدثني الشيخ/ أحمد الوصابي قائلًا: «كان الشيخ لا يخاف من أهل الشر، وكان يأتيه العدو ويرتعب من الشيخ، وهو لا يخافه». أ هـ.

٤- عدم اتخاذه الحراس:

ومما يدل أيضًا على شجاعته أنه كان لا يُحرس في بداية أمره، وكان يخرج وحده إلى أماكن تبعد عن بيته وطلابه، وأعداؤه في ذلك الوقت يتربصون به، ولم يطالب هو بحراسته، وإنما قام طلابه بحراسته خوفًا عليه ومحبَّةً له، ومع وجود الحراس فهو يخرج أحيانًا فلا يشعر به الحراس، إلا وقد ذهب إلى مكان كذا وكذا، فيلحقون به.

أخبرني الشيخ / أحمد الوصابي -حفظه الله- قائلًا: «كان الشيخ رحمه الله في غاية من الشجاعة، فإذا أحس بشيء في الليل يخرج بفانوسه، ومسدسه ولا يشعر به الحراس إلا وهو يدور بين السيارات، وربما يدركونه وهو عند المكتبة».

٥- إنكاره على المقلدين وهو طالب في الجامعة الإسلامية:

سمعته يومًا في أحد دروسه يقول: **كنت أكتب وأنا طالب في الجامعة الإسلامية على السبورة أتحدى من يقول بالمذهب الشافعي، أو الحنبلي، أو المالكي، أو الحنفي، أن يأتي بدليل من الكتاب والسنة**، قال الشيخ: فكان المتمذهبون يتألمون من ذلك. أ هـ.

قلت: هذا موقفٌ شجاعٌ، وإلا فالطالب يخاف على درجاته ومستواه في الجامعة، فربما يسكت عن كثير من الباطل، إن لم يعمل به ويقوله مجاملة للدكاترة، ومن لهم عليه سلطة.

٦- مواقفه عند الحكام:

مواقفه عند الحكام التي تدل على شجاعته كثيرة أذكر منها ما يلي:

أ- سمعت الشيخ في [٢٢] من ذي القعدة (١٤١٩هـ) ذكر أن الرئيس استدعاه، وحصل للشيخ معه لقاء، وقد استدعي الزنداني أيضًا في هذا اللقاء، وكان الشيخ يحمل جريدة فيها صورة الرئيس، وقط طُمست قبل دخوله، فرأى الزنداني تلك الجريدة بيد الشيخ، ولحظ أن صورة الرئيس قد طُمست، فأخذ الزنداني الجريدة من يد الشيخ وقال للرئيس: انظر الشيخ -أي ماذا صنع بصورتك- ولم يبال الشيخ بذلك، ولم يعتذر من ذلك الفعل.

قلت: كونه يدخل بالجريدة وصورة الرئيس قد شُطبت هذا يدل على الشجاعة.

ب- دفاعه عن الطلاب الغرباء:

كانت الحكومة الليبية تطالب الحكومة اليمنية بتسليم رعاياها الذين يدرسون عند الشيخ، ومن المعلوم أن الحكومة الليبية إذا أخذت رعاياها في ذلك الوقت فإنها ستسومهم سوء العذاب، فجاء إلى الشيخ مدير الأمن السياسي يطالب بالليبيين، ولندع الشيخ يذكر لنا هذا الموقف بنفسه.

قال رَحِمَهُ اللهُ: **جاءني مدير الأمن السياسي، وقال: تسلم الغرباء لنا. قلت: أما أننا نسلمهم فلو سقطت السماء على الأرض، لأنكم تعتبرون ظلمة، وهم مظلومون، وهم غرباء، ولكن أقول لك: لو أتيتم بالحرار وخربتم بيتي، أو خربتم مسجدي، فوالله لا تُرفع في وجوهكم بندقية.** أ هـ.

وقال: **أرسلت إلينا -أي الحكومة- وقالت: إن الحكومات ضيقت علينا بسبب الغرباء، فقلنا لهم: أنت الحكومة وتصرفي كما تريدين، وأما**

نحن فلسنا نشارك في الظلم، لأننا نعتقد أن هؤلاء طلبة علم، وتستطيعين أن تأخذيهم في الطريق وتمنعيهم من المطار. أ هـ.

ج- سمعته في ٢٣/٦/١٤١٩هـ. يوم الأربعاء في درس العصر يقول: ذات مرة قال لي علي عبد الله صالح: هل تدعو لي يا مقبل؟ قال شيخنا: **أحيانًا** فقال له الرئيس: ادعو لي بالصلاح.

قلت: لو كان الشيخ جبانًا لدعاه جبنه إلى الكذب، وقال مجيبًا على رئيس الدولة: نعم أدعو لك كثيرًا، ولكنه قال له بكل صراحة واطمئنان: أحيانًا، فتأمل.

د- موقفه من السفيرة الأمريكية:

فقد وصلت السفيرة الأمريكية إلى دماج التي فيها مركز الشيخ، وأرادت مقابلته، ولكن الشيخ رفض ذلك، وقال لمن جاء مع تلك المرأة: **أدخلوها عند النساء.** أ هـ.

وهذا الموقف موقف شجاعة، لو كان غير الشيخ لبادر في مقابلة السفيرة الأمريكية وتملق للأمريكان، ولكنه لم يبال بأمريكا ولا بغيرها.

هـ- في يوم من الأيام جاء أحدُ المسئولين الكبار، وأراد أن يلتقي بالشيخ من أجل بعض الأمور التي لا يريدها الشيخ، وكان للشيخ درس قبل الظهر في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين»، فشعر الشيخ أن ذلك المسئول سيأتي قبل الظهر، فخرج الشيخ قبل الدرس بوقت، وصعد على كرسيه، وبدأ بدرسه، وجاء ذلك المسئول والشيخ على كرسيه في درسه، فأُرسل إلى الشيخ أن المسئول الفلاني يريد أن يلتقي بك، فقال الشيخ: **قولوا له عندنا درس، فإذا أراد أن نلتقي معه فبعد الظهر**، واستمر في درسه، والشيخ يعلم أن المسئول لن يصبر إلى ذلك الوقت، وبعد ذلك ذهب

المسؤول.

و- دخل ذات مرة على رئيس الجمهورية، فسأله الرئيس عن مؤلفاته، فأخبره الشيخ أن عنده كتابًا تكلم فيه على بعض الأشخاص. فقال رئيس الجمهورية: أنا أطبعُه لك فقال الشيخ: **أنت لك فيه قسط !**. فقال رئيس الجمهورية: سننظر! -أي في طبعه-.

همَّة الشيخ العالية رحمه الله

كان الشيخ يتمتع بهمة عالية منذ صغره، فقد دفع نفسه إلى العلم ولم يدفعه أحد، وانصرف إلى طلب العلم مع معاناته لكثير من المصاعب والمتاعب التي واجهته، وكان الشيخ كما يقال رجل جلاه في الثرى وهامةُ همته في الثريا.

كان الشيخ لا ينظر إلى الدنيا ومغرياتها، ولكن يهمه العلم، يهمه تعليم الأمة، يهمه كيف تنتشر سنة رسول الله ﷺ، يهمه كيف يخدم هذا الدين؟ أخبرني الأخ الفاضل / خالد بن عبد الله بن غالب الوصابي قال: سمعت شيخنا يقول: **أول ما طلعت شعرة بيضاء في لحيتي وأنا في المدينة. قال: فقلت في نفسي ماذا قدمت للإسلام يا مقبل؟!!.**

وكان يهمه كيف يربى طلابه على العلم النافع، لا يريد منهم أن يكونوا وعاظًا فحسب، بل يريد منهم ما هو أرفع من ذلك، يريد أن يكونوا مؤلفين ومحققين، ورادين على أهل الباطل، فقد قال: **نحن نريد أن نهيأ أنفسنا للتأليف والتحقيق، فضلًا عن أن نكون واعظين ومرشدين**، وكان يأمل أن تتربى الشعوب تربية قريبة من الصحابة، فقد قال: **ينبغي أن نربي شعوبنا تربية قريبة من «تربية» الصحابة؛ وما أظننا نستطيع، لكن ولو قريبة من الصحابة**. أ هـ.

ولعلو همته فقد كان يأمل أن تكون اليمن مُصدرة لطلاب العلم، والعلماء، والدعاة إلى الله، بدلا من تصديرها العمال، فقد قال: **نحن حريصون على نهضة علمية في بلدنا، وعلى أن نُصدِّر علماء، نحن الآن نصدر شغالين إلى أمريكا، وإلى السعودية، وإلى، وإلى من البلاد التي تعرفونها، نحن نريد أن نصدر علماء ودعاة إلى الله.**

قلت: لقد حقق الله للشيخ هذه الأمنية، فقد صار الشيخ يصدر من مركزه المبارك طلاب العلم والدعاة والعلماء إلى كثير من البلاد اليمنية وغير اليمنية، وهذا الأمر غير خاف على أهله لشهرته.

فقد صدَّر من اليمن، وتحقق له قوله: **نحن نحدث أنفسنا على أن نصدر العلم من بلدنا اليمنية، نصدر العلم وليس الجهل.**

ومما يدل على علو همته عدم اهتمامه بالشهادات الدراسية؛ التي حصل عليها من كليتي أصول الدين والشريعة، وشهادة الماجستير التي حصل عليها من الدراسات العليا، بل سمعته مرة يقول: **لا أدري أين هي الشهائد**، ولقد شهد له بهذا أحد مشايخه والمشرف على رسالة الماجستير، حين وقف في جلسة المناقشة أمام الجمهور، وقال كلمته المباركة، الصادقة، أما الأعظمي والغمري، اللذين حاولا أن يغمطا حق الشيخ مقبل ظلمًا، فقال صارخًا في وجهيهما: «هو -يعني الشيخ مقبل- لا يقيم العالم بشهادته، وإنما ينظر إلى العلم بحد ذاته، فهو رجل يفي بوعده، رجل لا نملكه في هذا العصر، الطلبة معظمهم أو كثير منهم ينظر إلى العلم، حتى يأخذ الشهادة من الجامعة -يعني أن هذا الطالب نجح- لكن مقبلًا لا ينظر إلى هذا أبدًا، وقد صرح بذلك عدة مرات، وقال: **أنا لا أنظر إلى الشهادة**. وكان الشيخ يقول: **هذه الشهادات ستذوب**.

وكان يرى أن منافسة أهل الدنيا ليس بالدنيا، ولكن بالعلم.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **نريد أن نكون طلبة علم وحفظة قرآن ومبرزين في علم السنة، ونحن ننافس أهل المعارض في معارضهم، وأهل العمائر في عمائرهم، وأهل السيارات الضخمة في سياراتهم، إذا يسر الله لنا بطلب العلم سواء وجدت الكهرباء أم لم توجد، سواء وجد الماء وإلا ذهبنا نأتي بالماء كما كان الإمام أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذهب ويأتي بالماء، وهو عند عبد الرزاق من مسافة، فالذي يهمنا هو استمرارُنا في طلب العلم.

هذا شيء من جوانب همته العالية التي هي سبب لوصوله إلى ما وصل إليه بعد توفيق الله تعالى له وإخلاصه لله في عمله.

١٣- فراسة الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ

مما حبا الله به الشيخ، «الفراسة الصادقة»، فقد كان الشيخ يتفرَّس في بعض الطلاب، أن الله سينفع بهم، فيحرص عليهم حرصًا شديدًا، وتصدق فراستُه بعد فترة في ذلك الطالب، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا.

وكذلك كان يتفرَّس في بعض الأحداث فتكون كما توقَّع، فقد كنا نسمعه قبل أن يتوحد شمال اليمن وجنوبه، يقول: **سندخل عدن بدون جواز ولا بطاقة**، والسامعون يتعجبون من ذلك جدًا! ويتساءلون كيف سيكوْن ذلك وعدن حكومتها اشتراكية؟ وما هي إلا أيام وحصل ما تفرَّسه الشيخ، وكذلك أحيانًا ينظر في بعض الأشخاص، ويتفرَّس فيه أنه جاسوس، وبعد أيام يكون كما قال، فكان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب فراسةٍ صادقةٍ، عرف هذا من جالسه وبقي معه.

١٤- محافظة الشيخ على وقته رحمه الله

إن الوقت هو عمر الإنسان، وكلما مضى منه شيء مضى من عمره، وشيخنا رحمه الله كان حريصًا على وقته حرصًا شديدًا، فلم تقع عيني على أحد ممن أعرف من العلماء أحرص منه على وقته، فالشيخ رحمه الله أمضى وقته في تعليم العلم النافع ونشره، إما سائلًا، أو معلمًا، أو مجيبًا لمن سأله، فقد كان يأتيه الزائرون والمحبون؛ فيشغلهم بالعلم، يسألهم، ويناقشهم، ويجيب عليهم، وكان رحمه الله إذا كلمه شخص بكلام يشعر الشيخ أنه لا فائدة فيه، فإنه ما يشعر ذلك المتكلم إلا والشيخ يتمثل بهذا البيت:

فدع عنك نهبًا في حجراته وهات حديثًا ما حديثُ الرواحل

ثم يشرع بما عوَّد نفسه وغيره من نشر العلم ومذاكرته، حتى إن أهله تخبر أنه كان يأتيه الضيوف، ويقوم بأخذ الطعام من عند أهله لضيوفه، فإذا جاء إلى ضيوفه ألقى عليهم سؤالًا، وإذا ذهب إلى أهله يريد أن يأخذ طعامًا ألقى عليهن سؤالًا، إما أن ينتظر الجواب، أو يذهب ويجعلهن يفكرن بالجواب، وتخبر أهله أن الشيخ أخبرها أنه ذات مرة خرج بعد العصر مع بعض طلابه إلى خارج المسجد؛ يُروح عن نفسه، فرجع قبل المغرب، وقد انتهى مع من خرج معهم من مراجعة القطر ومذاكرته مع طلابه، وقد سُئل يومًا وكان شعر رأسه مقصرًا، لماذا لا تُربي شعرك؟ فقال: **يشغلني بتهذيبه ومشطه، وما عندي وقت لذلك!**.

فكان رحمه الله تعالى في بيته، ومسجده، ونزهته، ورحلته، وفي صحته وعافيته، وفي مرضه، لا يضيع شيئًا من وقته.

يخبرني الأخ/ محمد الحاشدي، أن الشيخ في مرضه بعد الحج، أُسعف إلى المستشفى وبقي ثلاثة أيام، قال محمد: بقيت عنده ليلة وهو

متعب في غاية التعب، فكان يصحو أحيانًا، وما أن يصحوا إلا ويسأل عن حديث، حتى إنه من شدة التعب لا يستطيع أن يكمل السؤال، ويأخذه النعاس أو الإغماء قبل أن يكمل سؤاله. أ هـ.

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لا يضيع وقته حتى في اتصاله، تخبر أهله أنه كان يتصل بهن ويسألهن، هل عندهن إشكالات، أو استفسارات؟ ليجيب عليهن وكنَّ يشفقن عليه من شدة تعبه.

وقبل وفاته وفي شدة مرضه قبل وفاته بأيام، انفجرت العملية التي عُملت له من أجل [الفتق]، وصار ماء الاستسقاء يخرج منها، ولكنه مع هذا كله يسأل من بجواره عن بعض الأحاديث، ويسأل من يتصل به عن بعض الأحاديث أو الشواهد اللغوية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وإليك شهادة شيخنا الشيخ/ أبي الحسن -حفظه الله تعالى- على حرص الشيخ على وقته، قال: «لو نظرنا إليه رَحِمَهُ اللَّهُ محافظًا على الوقت فنراه لا يدع شيئًا يضيع من الوقت، فإن جلس مجلس ضيافة يسأل الجالسين معه على قدر مستوياتهم، فيسال طالب العلم في حدود ما درس، ومن جهل حاله ماذا درست يا بُني في العقيدة، أو اللغة، أو علوم الحديث، أو غير ذلك، ثم يسأله بعد ذلك، وإن كان عاميًّا سأل عن مقولة مشهورة أو حكمةٍ دراجةٍ بين الناس، عن صحة معناها أو عدمه، بل ربما سأل من يسبح معه في البحر عن أسئلة في الحديث، أو العربية، وهم في داخل البحر لا تُرى إلا رؤوسهم، وكان يسأل من يركب معه في السيارة، أو يتصل به عبر الهاتف، حتى في زمن مرضه وآلامه، وإن جلس معه طالب علم قوي ذاكرته، واستثبت منه في بعض الأمور؛ التي طال عهده بها، وهذا من تواضعه رَحِمَهُ اللَّهُ مع طلاب العلم والعلماء» أ هـ.

ولقد أثمر هذا الحرص على الوقت ثمارًا طيبة، فخرج من معهد الشيخ

طلاب كثير، وانتشرت من بين يديه رسائل وبحوث عليمة نافعة، فرحمه الله تعالى.

١٥- اهتمامه بأمر المسلمين رحمه الله

إن الاهتمام بأمر المسلمين من الأمور التي جاء فيها الترغيب في شرعنا وديننا، وشيخُنا رحمه الله كان لا يحمل هم طلابه وأبنائه الذين بين يديه فحسب، بل كان يهمُّه شأن كثير من المسلمين سواء القريبين منه أم البعيدين، فقد شارك في الإصلاح بين كثير من القبائل اليمنية المتحاربة، فقد خرج مرة إلى الوادي -وادي آل أبي جبار في وائلة- للإصلاح بين بعض القبائل.

وفي ربيع الثاني عام (١٤١٦هـ) خرج للإصلاح بين قبيلتي قيس وخيار اللتان قامت بينهما الحرب سنين، فخرج للإصلاح بينهم، ورحبت القبيلتان بالشيخ حكمًا، وكتبت كل قبيلة على نفسها تحكيمًا للشيخ، وأنها راضية بما حكم به الشيخ على وفق الكتاب والسنة.

وكتب رحمه الله إلى الشيخ / عبد الله بن حسين الأحمر، والشيخ/ مجاهد أبي شوارب، رسالة يناشدهما أن يجعلا حلًا للحرب الدائرة بين القبيلتين المذكورتين آنفًا. وإليك نص رسالته:

بسم الله الرحمن الرحيم

من مقبل بن هادي الوادعي، إلى الأخ الشيخ / عبد الرحمن بن حسين الأحمر، والشيخ مجاهد أبي شوارب.

حفظكم الله ومن يليهما في هذا الشأن، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بعد التحية:

فغير خاف عليكم قضيةُ خيار وبني قيس، وأنها قد أصبحت أُحدوثه للناس، وكل الناس متألمون مما حدث بهم، وقد عزمنا على زيارتهم، ووجدنا الطرفين أيضًا متألمين مما هم فيه، وتوصلنا من الطرفين إلى أنهم مستعدون لتحكيم الكتاب والسنة، ونطلب منكم التعاون معنا، وأنتم المسئولون أمام الله، ونحن في انتظار جوابكم، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.

مقبل بن هادي الوادعي

٢١ ربيع الثاني (١٤١٦هـ)

والشيخ له مشاركات كثيرة في الإصلاح، فقد كان يحاول الإصلاح بين المختلفين في خارج اليمن؛ من له صلة بهم فيراسلهم وينصحهم ويشير عليهم بما يراه مقربًا له إلى ربه سبحانه وتعالى.

والشيخ حيث كان يقوم بمثل هذه الأعمال، فإنه لم يرد منها ما يريد المصلحون من أصحاب الحزبيات، حيث أن الغالب عليهم أنهم إن سعوا إلى مثل هذا، فإنهم يبتغون شهرة، وكسب القبائل المصلح بينهما، ليكونوا في صفهم أيام الانتخابات، وأما الشيخ فلم تكن همته ذلك الأمر.

مواقف أكرم الله بها الشيخ

إن من عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء الذين آمنوا وكانوا يتقون، وشيخُنا نحسبُه من أولياء الله، ولا نزكيه على الله، وقد حباه الله ببعض الأمور التي تدل على إكرام الله له، من ذلك:

١- وضع الله له القبول في قلوب كثير من العباد، فأحبه الناسُ من

عرفه وقرب منه ومن سمع بدعوته وما هو عليه من الخير وهو بعيد عنه.

٢- انتشارُ الدعوة عل يده في عموم البلاد اليمنية، وشارك في نشر الدعوة في كثير من البلاد الإسلامية، فقد أحيا الله على يده سُننًا قد أُميتت واندثرت.

٣- تسديد الله للشيخ في فتاويه، فقل أن تجد الشيخ قال قولًا في أمر حادث مستجد، أو تكلم في رجل إلا وكان السدادُ حليفهُ، حتى وثِقَ الناسُ في فتاويه، فصاروا متى حصل أمرٌ أ، قضية تستدعي أن يتكلم فيها العلماء، يترقبون ما هو موقفُ الشيخ من القضية الفلانية، وهذا من إكرام الله سبحانه وتعالى له، ومن هذا قبول شفاعته عند التجار، وفاعلي الخير، أو عند المسئولين.

٤- تيسير الله له الدخول إلى أرض الحرمين، وأداء فريضة الحج، واعتمر مررًا في عامه الذي تُوفي فيه.

٥- يقعُ الشيخُ في بعض المواقف والأزمات، وتضيق الحالُ به، وبينما الشيخ كذلك يأتيه الفرج من الله سبحانه وتعالى، ولهذا أمثلة كثيرةٌ منها:

أ- سمعته يومًا في أحد دروسه الماتعة يحكي موقفًا وأزمة حصلت له؛ فذكر أن الدعوة انقطعت فترة من المال، حتى أنه لم يبق معه شيء، قال: فدخلت بعد صلاة الفجر البيت؛ وأنا أفكر وما هي إلا لحظات؛ وإذا بي أسمع طارقًا يطرق الباب، قال الشيخ: فلم أجبه، وقلت: سأدعه يطرق ثلاثًا وسيذهب. قال: فطرق الباب وتجاوز الثلاث، فخرجت لأنظر. قال: فإذا برجل يحمل عشرين ألف ريال سعودي؛ مرسلة من بعض أهل الخير من نجران، فأخذها الشيخ وفرَّج الله بها الكرب.

ب- ومن الأمثلة أيضًا، أن الشيخ جلس يومًا من الأيام مع الشيخ/

أحمد الوصابي بعد صلاة الفجر، وقد جاءه يطلبه مالًا مصاريف ذلك اليوم، فبقي الشيخ مع الأخ أحمد يفكران؛ كيف يكون التصرف، وبينما هما على هذه الحال، إذ بأحد الطلاب يطرق الباب على الشيخ، ففتح الشيخ الباب فأعطاه الطالب مبلغًا من المال مُرسلًا من أحد فاعلي الخير، قال الأخ الذي جاء بالمال: فرأيت الشيخ أحمد الوصابي ومعه المال كله، قال: فسألته عن ذلك. فقال: «والله ما كان عندنا شيء، وأننا كنا نتكلم من أين نأتي بمال».

ج- ومن الأمثلة أيضًا، ما أخبرني به الأخ عبد الله بن ماطر، أن يومًا من الأيام أبلغ الشيخ أن مجموعة من أطباء مستشفى «السلام» سيزورونه، والشيخ إذا جاءه أحد فإنه يكرمه غاية الإكرام، فأرسل الشيخ أحد الإخوة ليشتري له رمانًا وعنبًا، فرجع الأخ المرسل وأخبر الشيخ أنه لا يستطيع أحد أن يقطف له؛ بسبب نزول مطر غزير في ليلة ذلك اليوم، وما هي إلا دقائق من بعد وصول ذلك الأخ ورجوعه بغير شيء، وإذا بطارق يطرق الباب على الشيخ، فخرج الشيخ فوجد مع هذا الطارق كيسًا من الرمان وكراتين عنب، أهديت للشيخ من بعض محبيه من بلاد غير بلده، فأخذ الشيخ تلك الهدية وضحك، وقال لحاملها: **كنا نبحثُ عن هذا في يومنا هذا.**

د- مثال آخر، في مرض الشيخ الذي أُسعف منه إلى مستشفى «الثورة»، قُرِّر أن الشيخ لابد من سفره إلى الخارج، وأُخبر الشيخ أن تكاليف علاجه ستكون أربعة مليون ريال سعودي فيسر الله بعد ذلك بكل ما يحتاج إليه الشيخ مكرمًا معززًا، والفضل في هذا لله عز وجل، ثم لحكام المملكة العربية السعودية زادهم الله خيرًا وحفظ بلادهم وبلاد المسلمين من كل سوء.

هـ- وأخبرني الشيخ أحمد الوصابي فقال: «ذات مرة انقطعت الدعوةُ

فترة ثلاثة أشهر، وكان على الدعوة ديونٌ، وتأزمت الأمورُ، وفجأة جاء رجل من فاعلي الخير من غير تنسيق معه مسبق، فوصل قبل الظهر، ومعه مساعدة مالية، فدفعها إلى الشيخ، فأرسل إلى الشيخ رسولًا؛ أن آتيه ولا أتأخر، فأتيته مباشرة، فأخرج إلي المال كاملًا، وقال: **اقض الدين، واعط الإخوان أصحاب العوائل**. قال الأخ أحمد: وجعل الشيخ يتذكر نعمة الله تعالى، ويقول لي: **انظر كم لنا منقطعون، ويأتي الفرج. هذه الدعوة آية من آيات الله**. أ هـ.

و- ومن الأمور أيضًا التي أكرم الله بها الشيخ، إنقاذه من مواقف أريد قتله فيها:

الموقف الأول:

إنقاذه في حادث جامع الهادي، الذي اجتمع عليه الناس يبغون قتله، ونجَّاه الله من بين أيديهم.

الموقف الثاني:

بعد أن بنى الشيخُ له مسجدًا من الطين، ولم يكن معه أحد، كان في أحد الأيام جالسًا في المسجد، وأتى إليه وهو في المسجد رجلان من الشيعة، ولمح الشيخ منهما سوءًا، فأوهمهما أنه سيخرج ليأتي لهما بقهوة، وبعد ذلك خرج الشيخ من المسجد وأغلق على الرجلين في المسجد، واستدعى بعض قومه، وأخبرهم الخبر، وأتوا إليهما، فحاولا أن يتخلصا مما وقع منهما، وذهبا إلى قبيلتهما، وجاءا بعد العصر من ذلك اليوم مع جماعة من قومهما، فاسترضوا الشيخ وجماعةَ الشيخ، وهذه الحادثةُ مشهورةٌ جدًا، أخبرني بها جماعة من أهل «دماج»، منهم ناجي بن علي اللوم، وعبد الله بن عرفج بن مناع الوادعي.

الموقف الثالث:

جاء رجل مصري، ومعه ما يقارب أربعة عشر رجلًا من قبيلة المقاش، أخذهم هذا المصريَّ، وأتى بهم من بلادهم إلى «دماج»، وأول ما وصلوا، وصلوا إلى أحد الرجلين المذكورين آنفًا، وطلبوا منه أن يعرفهم على الشيخ «مقبل» رَحِمَهُ اللهُ، فأبى ذلك أن يعرفهم خوفًا من تجدد التهمة السابقة، ولكنهم بحثوا عن مُعرِّف، حتى وصلوا إلى مسجد الشيخ، وتقدَّم المصري يطالب بخروج الشيخ، وكان منزعجًا جدًا، والشيخ في بدأ الدعوة لم يكن عنده إلا بعضُ الطلاب المصريين، وكان يوجد في هذه الحادثة ناجي اللوم من أهل «دماج»، فخاف على الشيخ من هؤلاء القوم، فأخذ الشيخ وأدخله المكتبة القديمة، وأغلق عليه، ثم اجتمع أهل البلاد وطردوا رجال المقاش، وأُخذ المصري وأُدِّبَ ثم طُرِدَ.

الموقف الرابع:

أن رجلًا أُرسل من قبل المكارمة لقتل الشيخ، فلما وصل على الشيخ سأله الشيخ عن بلده؟ فأخبره فاستدعاه الشيخ للغداء عنده، ودخل هذا الرجل إلى منزل الشيخ وتغدى، ثم قال للشيخ: أنا ما جئت إليك إلا لأقتلك، ولكني ما أدري لماذا ما استطعت، بعد هذا الخبر أخرجه الشيخ من منزله وطرده من بيته، وعلم بعض أهل البلاد، فاجتمعوا عليه وطردوه كسابقه، وهذه القصة أشار إليها الشيخ في كتاب «المصارعة» (ص٣٥٠) وتمثل بالبيت التالي:

زعم القريمطُ أن سيقتلُ مُقبلًا ... أبشر بطيب سلامة يا مُقبلُ

الموقف الخامس:

جاء رجلٌ من «نجران» على سيارة جمس، وبقوا ثلاثة أيام في «دماج»، كأنهم زوار، أو مسافرون، يتجسسون ويتعرفون على المنازل، حتى عرفوا

بيت الشيخ، ولكنهم لم يتمكنوا مما أرادوا بالشيخ، فذهبوا، وكنا في «نجران» أحد أقرباء الشيخ، وقد كانوا يسألونه من قبل عن الشيخ وبلد الشيخ، فكان يجعل نفسه أنه لا يعرف الشيخ؛ خشية أن يؤذوه، وبعد أن جاءوا إلى «دماج»، سألوا عن الشيخ وأقرباء الشيخ، وعرفوا بيت هذا الرجل، ووصفوها له بعد رجوعهم، وزجروه لكذبه عليهم وعدم أخبارهم من قبل:

الموقف السادس:

حادثةُ مسجد الرحمن «بعدن»، وذلك أن أحد أعداء الدعوة أراد القضاء على الشيخ بعبوةٍ ناسفةٍ، أراد أن يفجر بقبلة المسجد والشيخ يحاضر على المنبر، ولكن الله لطف بالشيخ، وقبل أن يصل ذلك الرجل إلى قبلة المسجد انفجر ذلك اللغم الذي كان يحمله عليه فقتله، وهذا أمر مشهور معروف، تداولته الصحفُ والجرائدُ العالمية، وذكره الشيخ في كتابه «شرح الحوادث».

ومن المواقف التي أكرم الله بها الشيخ أنه رحمه الله حين سافر إلى ألمانيا للعلاج، قرر الأطباء رجوعه بسرعة قبل أن تدركه الوفاة؛ لخطورة مرضه واستفحاله فيه، وبقي الشيخ ينتظر إجراءات سفره، وفي يوم من الأيام قبل سفره فقد وعيه، وجاء الطبيب الذي قد أخبر المرافقين أن يُسرعوا بإخراجه، ورأى حال الشيخ فغضب على مرافقيه، وأخبرهم أنه لا يستطيع أن يقرر خروجه وهو على هذه الحالة، وبقي الشيخ على حالته ساعات، ثم أكرمه الله وأفاق، وعادت له ذاكرته كما كان، وجاءه الطبيب وجعل يسأل الشيخ، والشيخ يتحدث معه، فعجب الطبيب من ذلك! وقاس له ضغط الدم، فوجده على أحسن ما يرام، ثم قرر الطبيب سرعة خروجه وعدم تأخيره، وأخرج الشيخ، وسافر به رفاقه إلى «جده»، وحين وصل «جده» لم يطل به العهد، حتى فقد

وعيه، وتوفي فيها، ودفن في مكة، وهذا إكرامًا من الله للشيخ فلله الحمدُ والمنَّةُ.

طريقة تدريسه رَحِمَهُ اللَّهُ

إن التدريس فنّ؛ قل من يُوفق لطرقه النافعة الناجحة الحسنة، وإلا فالمدرسون كثيرون، ولكن طرقهم مختلفة، منهم من يكون الطلاب في درسه كالعصفور في قفص؛ منتظر متى ينتهي الدرس، فهو في درس والطلاب ينظرون في ساعاتهم متى ينتهي من درسه، وكم بقي للدرس؟ ومنهم من يلقي درسه ولربما أطال والطلاب لا يشعرون بسآمة أبدًا، ويتمنون أن لا ينقطع من درسه، وشيخنا من هذا الصنف، فإنه يقيم في اليوم الواحد ثلاثة دروس، وأحيانًا أربعة، ولا تجد من الحاضرين مللًا من تلك الدروس، لتميز طريقة الشيخ وبراعة أسلوبه في التدريس، فهو يجعل الدرس قائمًا على حوار مفتوح بينه وبين الطلاب، فتارة يقرأ الحديث، وتارة يذكر ترجمة أحد رجال الإسناد، ويتطرق من خلالها إلى بعض المواقف التربوية والأخلاقية، التي يجب أن يتخلق بها الطلاب، وينتقل إلى سؤال مفاجئ يلقيه على بعض الطلاب، وتارة يخبر الطلاب أن عنده سؤالًا، ويريد من يجيب عليه منهم، ولا يخبر بالسؤال؛ حتى يتصدر أحد الطلاب للجواب، وهذا الأسلوب فيه تربية للطلاب على الإقدام والشجاعة، وعدم الخوف، وإذا لم يجب الطالب على السؤال إجابة صحيحة، قال له الشيخ: **اجلس**، وتارة يقول لمن استعد للإجابة على الأسئلة أو السؤال: **أنا متأكد أنك سترجع**، يقول له هذا وهو في طريقه إلى الشيخ، وكل هذا الفعل يريد الشيخ أمرًا تربويًا قد

أخبر عنه الشيخ.

قال ذات مرة: **أنا يا أولادي: يوم أن أقول لأحدكم اجلس، ارجع، أريد أن أعودكم على تحمل مثل هذه المواقف، فلربما خرجت دعوةً وقمت خطيبًا، وفجأة قام لك رجل وقال لك: اجلس، أو كلمة نحوها، فلا تؤثر عليك.** أ هـ.

وأحيانًا الشيخ يأتيه الطالب ويجيب على السؤال، وإذا بالشيخ يقول: **أحسنت أجبت**، فيظن الطالب أنه أصاب الجواب، فيتبع الشيخ قوله: **أحسنت أجبت، ويزيد ولم تُصب**، وهكذا ينزل الشيخ أحيانًا من كرسيه ويتخلل الطلاب في المسجد، يقيم هذا ويسأله، وينبه هذا من غفلته، وأحيانًا يقول الشيخ عند النعسان فليقم، ولا يكون يعرف أحدًا نعسان، وإذا بمجموعة من الطلاب يقفون وهم في حالة غير متزنة، لأنهم كانوا ناعسين، فيوقفهم قليلًا، ثم بعد ذلك يجلسهم، فيبقى ذلك الناعس بعد هذا الموقف منتبهًا، ويخلل الشيخ درسهُ ببعض نكت بعض المحدثين، وبعض الأشعار التي تحتوي على حكمٍ ومواعظ، وأحيانًا بقصائد لبعض طلابه، وأحيانًا يفتح المجال لمن عنده ملاحظات أو فائدة علمية مبحوثة، فتُقرأ على الشيخ والطلاب، وهكذا صفة درس الشيخ دائمًا، لم يكن فيه مللُ أبدًا، فاق الشيخ فيه من يزعم أن عنده تخصُّصًا، أو دكتوراه في طرق التدريس.

وكان يستخدم أحيانًا الضرب مع الطلاب الصغار، كوسيلة تأديب لهم، وتخويفهم حتى لا يضيعوا أوقاتهم، وهو يرى أن قول من يقول: إن الطالب لا يُضربُ، قول خاطئ، فقد قال: **الذين قالوا لا يضرب الطالب أناس ما درسوا التعليم العملي.**

❁ ❁ ❁

من طرائف الشيخ ومداعبته لطلابه

١- سمعت الشيخ في أحد دروسه الماتعة، يذكر أن مرة من المرات جاءه بعض الطلاب، وطلب من الشيخ أن يأتي معه ليقرأ على مريض أصيب بالمس، قال الشيخ: فذهبت معه، وأنا ما قد قرأت على أحد قبل هذه المرة، فلما وصلت وبدأت أقرأ على المريض، قلت مخاطبًا الجني: **أخرج يا عبد الله من عدو الله**، قال الشيخ: **كنت أريد أن أقول يا عدو الله من عبد الله فانقلبت عليَّ**.

٢- ذكر الشيخ أن خطيبًا كان يخطب خطبة العيد، وينصح الناس بأن يتصدقوا من الأضحية، فرجع ولده ووزع أضحيتهم، فجاءه والده وقال: أين اللحم؟ قال: وزعته. قال: كيف توزعه؟ قال: ألم تقل للناس يوزعون؟ فقال: «نحن قلنا يا أيها الناس أو يا أيها نحن»، قال هذه النكتة مستشهدًا بها على الذين لا يعملون بعملهم.

٣- ذكر لنا الشيخ أنه في بداية طلبه للعلم أراد أن يحترف، فأخذ له شيئًا يريد أن يبيعه، فما أحد اشتراه منه، قال: فأعطيته شخصًا بلا مقابل.

٤- جاء رجلٌ يزعم أنه يريد أن يطلب علمًا، وبقي أيامًا، وأظهر نشاطًا، فجعله موزعًا للطعام على الطلاب، ولما بدأ يظهر وكأنه مدفوعٌ من قِبَل بعض الجماعات الحزبية، أراد أن يدعو إلى فكره في أوساط الطلاب، وانتبه الطلابُ إلى خطره، وخشوا أن يُلبس على بعض الطلاب، فشكوه إلى الشيخ وكثر الشاكون به، وفي ذات يوم قام الشيخُ على درسه، وأول سؤال وجهه إلى ذلك الرجل، فقال الشيخ: **يا فلان: إعرب "كثر شاكوك وقل شاكروك؟"**. ففهم الرجل مراد الشيخ، فسافر على أثر إعراب هذا المثل في اليوم الثاني.

٥- قام في أحد الأيام طالبٌ من الطلاب، وألقى قصيدة شعرية، وكانت تلك القصيدة محاولة منه، ولم يعرف بالشعر قبل، فكانت قصيدة مهزوزة غير موازنة، فلما انتهى من قراءتها، قال له الشيخ: **لو نثرتها وقرأتها منثورة؛ لكانت خطبة طيبة أحسن منها شعرًا**، فضحك الشيخ وضحك الطلاب.

٦- ومن مداعبته للطلاب، كان يداعبهم بالكلام في الدرس، وفي الطريق، وعلى مائدة الطعام، ويذكر لهم بعض الأمور التي فيها مداعبة وتسليةٌ لهم.

٧- كان يداعبُ طلابه عن طريق الأسئلة العلمية، يخبرني الأخ / أحمد بن عبد الله بن سيف الوصابي العديني، أنه كان في أحد الأيام في المكتبة، وجلس في كرسي الشيخ الذي يجلس عليه في أثناء بحثه، وهو لا يعرف أنه كرسيَّه، فجاء الشيخ واستحيا أن يُقيمهُ من الكرسي بصريح العبارة، ولكنه قال له: **ما أسمك؟**. فقلت: أحمد. فقال: **متى ينصرف أحمد؟**. فقلت: إذا [أضيف أو دخل عليه أل]. فضحك الشيخ، ولم يشعر بمراده، ثم نبهني بعضُ الطلاب فقمت.

٨- ومن نكته أنه قال يومًا وهو على الكرسي يحدث الطلاب: اتصل بي شخص وكان بجانبي أهلي، وعرضه عليه أن يزوجه قال الشيخ: فقلت إذا كانت طالبة علم فحياها الله، قال الشيخ: فأمسك أهلي برقبتي وقالت: ماذا؟

٩- تسابق الشيخُ في يوم من الأيام مع أخينا الفاضل/ منصور الأديبي، فسبقه منصور، وفي أحد الدروس سأله الشيخ سؤالًا فلم يجب على ذلك السؤال، فقال الشيخ: **هذه بتلك**.

[وكل ما تقدم مستفاد من ترجمة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، والتي صنعها أحمد بن منصور العديني، وهو كتاب نفيس جدًا].

العلامة الشيخ محمود محمد شاكر

ترجمته في سطور

* محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر من أسرة أبي علياء، من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنه.

* ولد في الاسكندرية الساعة السادسة العربية من ليلة عاشوراء الاثنين عاشر المحرم سنة ١٣٢٧ هـ، الموافق الساعة الثانية عشرة الافرنجية أول فبراير سنة ١٩٠٩ م.

* انتقل إلى القاهرة في صيف عام ١٩٠٩ م بتعيين والده وكيلًا للجامع الأزهر (١٩٠٩- ١٩١٣ م) وكان قبل ذلك شيخًا لعلماء الاسكندرية.

* تلقى أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أمَّ عباس في القاهرة سنة ١٩١٦ .

* بعد ثورة ١٩١٩ م انتقل إلى مدرسة القربية بدرب الجماميز.

* في سنة ١٩٢١ دخل المدرسة الخديوية الثانوية.

* مع بداية عام ١٩٢٢ م قرأ على الشيخ سيد بن علي المرصفي، صاحب «رغبة الآمل»، فحضر دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه في بيته: «الكامل» للمبرِّد، «حماسة أبي تمام» وشيئًا من «الأمالي للقالي»، وبعض أشعار الهذليين. واستمرت صلته بالشيخ المرصفي إلى أن توفي رحمه الله في سنة ١٣٤٩ هـ ١٩٣١ م.

* حصل على شهادة البكالوريوس «القسم العلمي» عام ١٩٢٥ م.

* في سنة ١٩٢٦ التحق بكلية الآداب الجامعة المصرية «قسم اللغة العربية» واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب خلافٌ شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي، كما بيّنه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «المتنبي» وترتب على ذلك تركه الدارسات الجامعية.

* في سنة ١٣٤٧ هـ ١٩٢٨ م ترك الجامعة وسافر إلى الحجاز مهاجرًا، فأنشأ بناء على طلب من الملك عبد العزيز آل سعود مدرسة جدة السعودية الابتدائية وعمل مديرًا لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م.

* بعد عودته إلى القاهرة انصرف إلى الأدب والكتابة، فكتب في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» لصاحبهما الأستاذ محب الدين الخطيب، وأكثر ماله فيهما الشعر، وكان من كتابهما منذ كان طالبًا.

* بدأت صلته بالعلماء، منذ شبَّ في بيت أبيه، فعرف السياسيين والعلماء الذين كانوا يترددون على والده، كما اتصل مباشرة بعلماء العصر أمثال: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيِّش، ومحمد أمين الخانجي وغيرهم، كما تعرف إلى الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة التي كان الشاعر الكبير يتردد عليها.

* راسل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي منذ سنة ١٩٢١، وهو طالب في السنة الأولى الثانوية، طلبًا للعلم واتَّصلت المعرفة بينهما، وظلَّت هذه الصلة وثيقة إلى وفاة الرَّافعي، رحمه الله، في سنة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧ فحزن عليه حزنًا شديدًا صرفه عن استكمال ردوده على الدكتور طه حسين في موضوع

المتنبي التي كانت تنشر في جريدة البلاغ. ومكانة الرافعي عنده يوضحها تقديمه لكتاب سعيد العريان عن حياة الرافعي، وقد ظلت هذه الرابطة بينهما تحول سنين عديدة دون التواصل بينه وبين الأستاذ العقاد، ثم صارت بينه وبين الأستاذ العقاد صحبة وصداقة عميقة بعد ذلك.

* تعاطف مع الحزب الوطني القديم، فقد كان هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ علي محمد شاكر عضوًا عاملًا بالحزب الوطني، فصحب شباب الحزب الوطني واتصل برجاله ومنهم: حافظ رمضان، وعبد الرحمن الرافعي، وأحمد وفيق، والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبد العزيز جاويش.

* صاحب فكرة «جمعية الشبان المسلمين»، ولكنه تركها لاختلافه مع السيد محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا والدكتور عبد الحميد سعيد على الصورة التي صارت إليها.

* بدأ الكتابة في مجلة «المقتطف» منذ سنة ١٩٣٢ ثم في مجلتي «الرسالة» و«البلاغ»، ولكنه كان على صلة دائمة بالرسالة في كتابه متقطعة إلى أن توقفت عن الصدور.

* في سنة ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨ أخذ امتياز مجلة «العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية، وصدر منها عددان الأول في ٢٧ رمضان ١٣٥٧ هـ، نوفمبر ١٩٣٨ م، والثاني في ١٧ شوال ١٣٥٧ هـ، ٩ ديسمبر ثم توقفت عن الصدور بعد أن كان قد دفع بعددها الثالث إلى المطبعة، وكان مقرها: .. شارع الإسماعيلية «عمر بن الخطاب» بمصر الجديدة.

* في هذه الفترة قامت صداقة عميقة وعلاقة وطيدة بينه وبين كل من الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقي، والشاعر العظيم الراحل محمود حسن

إسماعيل، وكان كل منهما يعتبر الأستاذ شاكرًا إمامًا عليمًا بأسرار البيان العربي في شعره ونثره ومرجعًا حيًّا للثقافة العربية في مجموعها يأنسان إلى ذخيرته في إبداعهما الأدبي، وقد عبر كل منهما عن تلك الرابطة في أكثر من مقام من مقامات القول، منها: قصيدة الأستاذ محمود حسن إسماعيل في تقديم «القوس العذراء»، كما ذكر الأستاذ يحيى حقي في بعض أحاديثه الصحفية أنه قرأ أمهات كتب الأدب العربي على الأستاذ شاكر.

* بناء على دعوة من صديقه فؤاد صرّوف، صاحب المقتطف، ساهم في اختيار وترجمة مواد مجلة «المختار» بدءًا من عددها الثاني، ولكنه توقف بعد قليل.

* وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج «المختار» استطاع أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عددًا من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرة النفاثة». وما زال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجًا يحتذى في هذا الباب.

* في أوائل الأربعينيات تعرف على الأستاذ فتحي رضوان، وبدأت صلته بالحزب الوطني الجديد في سنة ١٩٥٠، وساهم بالكتابة في مجلة «اللواء الجديد».

* انقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات، بعد إغلاق الرسالة القديمة في سنة ١٩٥٢، وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» صدر منه «ستة عشر جزءًا» و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجُمحي، «وجمهرة نسب قريش» للزبير بن بكّار، وشارك في إخراج: «الوحشيات» لأبي تمّام، و«شرح أشعار الهذليين».

* ونشر في عام ١٩٥٢م قصيدته «القوس العذراء»، التي تعد مَعْلَمًا على طريق الشعر الحديث رغم التزامها بحرًا متساوي الشطرين ومحافظتها على وحدة القافية. ثم أعاد نشرها مرة ثانية في سنة ١٩٦٤ .

* كما ألف كتابه الشهير «أباطيل وأسمار»، وهو مجموعة مقالات (٢٥مقالة) كتبها في مجلة الرسالة الجديدة، ثم طبعت مرتين، المرة الأولى سنة ١٩٦٥ وصدر مجلد واحد (فيه قسم من المقالات) وصودر المجلد الثاني. والمرة الثالثة سنة ١٩٧٢ في مجلدين ضمًّا جميع المقالات. وكان سبب كتابة هذه المقالات التعليق على ما نشره الدكتور لويس عوض، المستشار الثقافي لجريدة الأهرام حينذاك، في جريدة الأهرام بعنوان «على هامش الغفران» وذهب فيما نشره إلى تأثر المعري بحديث الإسراء والمعراج، كما ألمح فيه إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها في الحديث النبوي، مما دفع الأستاذ محمود شاكر إلى بيان تهافت كلام لويس عوض وجهله وافترائه، ثم انتقل إلى الكلام عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وما طرأ عليهما من غزو فكري ولاسيما حركة التبشير التي غزت العالم العربي والإسلامي، وما تنطوي عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل، وقاده البحث إلى تناول قضايا هامة بحيث يعد «أباطيل وأسمار» من أهم كتبه، بل من أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في العشرين عامًا الأخيرة. وأعاد طبع كتابه «المتنبي» الذي نشر كعددٍ مستقل من المقتطف سنة ١٩٣٦، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة حين صدوره بمنهجه المبتكر وأسلوبه في البحث والإبداع، ومقدمته التي عنوانها: «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» التي تناولت بكل صراحة ما اعترى الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن من فساد، وما أصاب أجيال المثقفين من تفريغ، تولى كبره واضع

نظم التعليم في مصر المبشر «دنلوب» الذي سيطر سيطرة تامة على التعليم، والذي لا تزال آثاره باقية على أشنع صورة في نظمنا التعليمية.

* في الفترة التي صاحبت انتقاله إلى مسكنه في شارع السباق ثم إلى مسكنه الحالي في شارع حسين المرصفي بضاحية مصر الجديدة، بدأت أجيال من دارسي التراث العربي والمعنيين بالثقافة الإسلامية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي، يختلفون إلى بيته، ويترددون على مجالسه العلمية يأخذون عنه ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة التي يسَّرها للدارسين والباحثين ومنهم: الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شاكر الفحّام، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمد يوسف نجم.

* في سنة ١٩٥٧ أسس مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد مكتبة دار العروبة، لنشر كنوز النشر العربي ونوادر التراث وكتب بعض المفكرين. وباعتقاله هو وشريكه في ٣١ أغسطس ١٩٦٥ تم وضعها تحت الحراسة.

* شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات العربية فحضر «مؤتمر الأدباء العرب» في بغداد سنة ١٩٧٠، ودعي إلى حضور الدروس الرمضانية التي تعقد في ليالي رمضان في القصر الملكي بالرباط بالمملكة المغربية «رمضان ١٣٩٥ هـ». كذلك لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وألقى سلسلة من المحاضرات عن «الشعر الجاهلي» ستصدر في كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام الجمحي». وحالت ظروفه دون تلبية كثير من الدعوات لحضور مؤتمرات وملتقيات عربية وإسلامية كثيرة.

* انتخب عضوًا مراسلًا في «مجمع اللغة العربية بدمشق» في سنة

١٩٨٠م.

* اعتقل مرتين في زمن حكم الرئيس جمال عبد الناصر: الأولى لمدة تسعة أشهر بين ٩ فبراير ١٩٥٩ إلى أكتوبر ١٩٥٩ . والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرًا من ٣١ أغسطس ١٩٦٥ وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ (٣٠ رمضان ١٣٨٧) هـ.

كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام ١٩٨١ لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام، ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي. وتسلك الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٨ رمضان ١٤٠٢ هـ ٢٩يونية ١٩٨٢م.

الأسد في براثنه

لم يكن رحيل الأستاذ محمود شاكر عن هذه الدنيا رحيل كاتب أديب محقق له ثماره المختلفة في رياض الأدب والعلم فحسب، فكم رحل أناسٌ لهم هذه الأوصاف، ولم يبعثوا في النفوس مثل هذه اللهفة المريرة التي بعثها رحيل الأستاذ محمود محمد شاكر، لأن الرجل العظيم لم يكن أديبًا عالمًا محققًا فحسب، ولكنّه كان زعيم اتجاه أدبي علمي تتدافع حوله الأمواج الهائجة لتزيل أعمدته الراسخة، ولها القوة كل القوة فيما يمدّها بها العصر من نفوذ في المناصب والإعلام والوظائف التي تنفع الأشرار وتعصف بالأخيار، بل فيما يسيطرون عليه من أدوات الشر، إذ يعملون على ترويج كتب سيئة مغرضة تحاول أن تهدم تاريخ الأمة لا هدمًا بقاء لها بعده.

وقد كان الأستاذ محمود محمد شاكر بماضيه الحافل، وثقافته

الواسعة، وشجاعته العاصفة، ودراسته العميقة بأهواء المتربصين شجًا في حلوق هؤلاء يحاولون هدمه فلا يستطيعون، لأنهم يروْن من صلابة فكره، ونفاذ رأيه، والتفاف الشرفاء من حوله ما يجعله لواءً خفاقًا، وقد حاول بعض زعمائهم حين مُهدت له أسباب الذيوع الكاسح أن يفتري على العربية في سير أعلامها وأبطالها وقوادها مموهًا حديثه ببعض البراهين المصطنعة التي لا تثبت لتمحيص، حاول ذلك ووجد من أشياعه من يقعدونه في الصدارة، ويسبحون بحمده حتى لا يعلو صوت كاتب ما على صوته.

ثم فوجئ القراء بمحمود شاكر يزأر زئيره المرعب، في وجوه الطرائد المنتشرة في شتى البقاع دون أن تقدر على رد الهجوم الزائر، فيكشف عورات كثيرة ويرد الاعتبار لأعلام من القمم مثل أبي العلاء وابن خلدون، ويكشف عن المرض المعضل في نفوس يزعجها أن ينتشر فضلٌ لهذين العلمين في ربوع الغرب فتردده آفاق الشرق، ومحمود شاكر لا يعبأ برأي الغرب، ولكنه يرى من ضعاف النفوس طوائف تقرأ فتعتقد فتصفق، فبادر بكشف النقاب عن الأباطيل أولًا، وعن دوافعها ثانيًا، فإذا السر مكشوف مفضوح.

لم يكن محمود شاكر رجل ثقافة أدبية تقتصر على المتعالم المتعارف عند الأدباء المعاصرين وحده، ولكنه كان يجمع ثقافة الأمة الإسلامية جميعها كأحسن ما يكون الجمع الواعي، كان يعرف علوم الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والتاريخ والمنطق معرفة الدارس المتعمق كما يعلم علوم النحو والصرف والبيان والمعاني والبديع واللغة سواءً بسواء، وقد تكوّن له من ذلك كله منطق عرف به وحده، فهو رجل الثقافة الإسلامية في عصره بشعبيتها الدينية والعربية معًا، فإذا انضم إلى ذلك روايته المتسعة الممتدة لدواوين الشعر العربي في شتى عصوره. رواية الناقد المتذوق المتعمق، فهو بذلك كله صاحب

القول الفصل والمنطق المفحم الصريح.. في كل ما خاضه من جدال.

والحديث عن الأستاذ يتطلب كتابًا برأسه لا فصلًا أو فصلين في كتاب، لذلك سأكتفي بالإشارة إلى بعض مواقفه تاركًا الحديث عن تحقيقه العلمي، وأسلوبه الأدبي، وجدله المنطقي، ومقالاته الصاعقة التي واجهه بها ذوي الغرض إلى من يستطيع أن يخص كل ناحية بكتاب مستقل، ومما نحمد الله عليه أن تلاميذه المخلصين كثيرون، وفيهمْ من قام ببعض هذا العبء عن رضا وسماح، ومن يتهيأ لعمل أكثر قيمة، وأوفى بيانًا، لأن الله الذي ألهمه الجهاد في حياته، ألهم تلاميذه أن يوفوه حقه فلا يضيع.

والحديث عن هذا العلم الأشم صعب جد، فأينما اتجهت إلى جانب من جوانب شخصيته عسر عليك وصفه، وضاق عليك معجم مفرداتك أن يحيط بوسعه.

وأول معالم شخصية هذا الرجل المبرز هو نشأته العلمية، وتلك المرحلة التي قلبت حياته رأسا على عقب وخير من يقص علينا خبرها فارسها ومغوارها فيقول أبو فهر.

بين الثالثة عشرة من عمري والسابعة عشرة، كنت مولعًا أشد الولوع بالرياضيات فدخلت القسم العلمي في «المدرسة الخديوية الثانوية» بالقاهرة، ولكني مع ذلك كنت شغوفًا بالشعر، منهومًا بالأدب، كلفًا بالتاريخ. فلما أنشئت الجامعة المصرية لأول إنشائها، لم يستطع ولعي بالرياضيات أن يقوم لشغفي بالأدب والتاريخ، فتحوّلت مخالفًا سيرة زملائي في القسم العلمي، والتحقت بكلية الآداب، فكان هذا التحول هو أيضًا بدء تحول حياتي تحولًا تامًا. هجرت الرياضيات هجرًا مصمتًا، وأقبلت على الشعر والأدب والتاريخ بقلبي كله. ويوم

دخلت كلية الآداب، كنت قد فرغت منذ قليل من قراءة كتابين جليلين على شيخي، وشيخ الدكتور طه حسين أيضًا، وهو سيد بن علي المرصفي، رحمه الله أول الكتابين: كتاب «رغبة الآمل» وهو شرح الشيخ علي كتاب «الكامل» لأبي العباس المبرد وثانيهما: كتاب «أسرار الحماسة»، وهو شرح الشيخ أيضًا على كتاب «الحماسة» لأبي تمام الطائي الشاعر. وفي زمان هذه القراءة كان أثر الشيخ علي أثرًا شديدًا، فقد أثار اهتمامي وصرف قلبي كله إلى الشعر الجاهلي وبعض الشعر الأموي، وأخذني ما يأخذ الشباب في ريعان طلب المعرفة. فارت بي هذه النشوة الجديدة بالشعر الجاهلي، فجعلت تثبط همتي عن الشعر العباسي بعض التثبيط. وكان مما تثبطت عنه همتي أشد التثبيط ديوان أبي الطيب المتنبي، مع أنه كان أول ديوان من الشعر قرأته كله، وحفظته كله، وفتنت به كله، فأغفلته من يومئذ كله. لم يكن هذا التثبيط استخفافًا بالشعر العباسي وما بعده، بل لأن إيغالي في الحفاوة بالشعر الجاهلي وقراءته وتتبعه في دواوين شعرائه، وفي كتب الأدب، كان قد أوقفني على شيء مهم جدًا، شغلني واستولى على نفسي، حتى صار من ديدني يومئذ أن أحدث عنه أكثر من لقيت من الأساتذة الكبار الذين عرفتهم وخالطتهم وكنت أوي إليهم مستطلعًا ومستثيرًا وملتمسًا للإرشاد. فكنت أظفر أحيانًا بالتشجيع، وأحيانًا أخرى بالاستغراب وببعض الإعراض عما أقول.

كنت قبل ذلك أعرف «المعلقات العشر الجاهلية» وأحفظها، كما هو شأن أكثر من انصرف بهمته إلى الأدب. وهذه المعلقات، كما هو معروف، لعشرة شعراء مختلفين أولهم امرؤ القيس، ولكن حفظي إياها، ومعرفتي بها وبتاريخها وبتاريخ أصحابها، وبمعانيها وبمعاني غريب ألفاظها، لم يزد قطُّ على أن يكون زيادةً في ثروة معرفتي بالعربية، وبشعرائها، وبشعرها قديمه وحديثه. أما حين أخذني النهم بالشعر الجاهلي، وبدأت أقرأ ما بقي

لدينا من دووواين شعر الجاهلية شاعرًا شاعرًا، ثم أشعار مئات من أهل الجاهلية ممن لا دووواين لهم، أو كانت لهم دووواين ولم تقع لي بعد دووواينهم فعندئذ اختلف علي الأمر، ولم يعد مجرد ثروة أستزيدها في المعرفة بالعربية وبالشعر. بدأت أجد في هذا الشعر الجاهلي شيئًا مباينًا مباينة سافرة لما في الشعر العباسي كله، بل أكبر من ذلك: أني افتقدت هذا الشيء أيضًا في أكثر ما قرأت من الشعر الأموي، الذي لا يفصل بينه وبين الجاهلية إلا المئة الأولى من التاريخ الهجري، وهو زمنٌ قليل لا يعتد به. ثم لم يكن الأمر راجعًا إلى ألفاظ الشعر من حيث غرابتها عندي أو ألفتها، ولا إلى تغاير في أوزان الشعر وقوافيه، ولا إلى اختلاف في المعاني والأغراض أيضًا، فكل ذلك بلا شك قريب من قريب. ثم هو بلا ريب، غير راجع إلى الحداثة والقدم، كما توهم لحاجة عصرنا في شأن «القديم» و«الحديث» لأن الذي بيني وبين الجاهلية خمسة عشر قرنًا تقريبًا، والذي بيني وبين الشعر الأموي والعباسي جميعًا ثلاثة عشر قرنًا تقريبًا. والبعد بيني وبين جملة هذا الشعر، في الثلاثة عشر قرنًا والخمسة عشر قرنًا، بعدٌ واحدٌ أو شبيه بالواحد، فكل هذا عندي قديم معرق في القدم. وكان غير معقول عندي أن يكون هذا الفرق الساطع الذي وجدته في نفسي بين الشعر الجاهلي والشعر الأموي، مردودًا إلى فطرتي اللغوية أو إلى قريحتي، لأننا في زماننا هذا لا نحتكم إلى سليقة في العربية فاشية في مجتمعنا اللغوي، بل كل واحد منا يكتسب طرفًا من هذه السليقة بالتعلم والقراءة وطول الدربة والشقاء في المعاناة، معاناة كل فرد منا على حياله وفي خلوته.

وإذن فأنا لا أستطيع أن أجد هذا الفرق يلوح جهرة في نفسي وأنا يومئذ على رأس السابعة عشرة من عمري، وعلى حداثة عهدي بطلب الأدب إلا

إذا كان الشعر الجاهلي نفسه يتلفع على هذا الفرق المتوهج كامنًا في ثناياه، وإن كنت لا أستطيع عجزًا أن أضع يدي عليه وأقول: ههنا يكمن الفرق! وكان أكبر ما مهَّد لظهور هذا الفرق، فيما أرجّح، هو أني بدأت أقرأ دواوين شعراء الجاهلية شاعرًا شاعرًا، كلما فرغت من ديوان شعر بدأت صحبة شاعر آخر وكلما وجدت لشاعر جاهلي علاقة ما بشاعر جاهلي آخر، صحبت ديوانه بعده أو معه، أو بحثت عما بقي من شعره في دواوين الأدب، إذا لم يكن من أصحاب الدواوين. فلما أوغلت في القراءة وأكثرت، ملتزمًا بهذا النظام الذي هداني إليه ولوعي بالرياضيات فيما أظن وجدت في الشعر الجاهلي شيئًا لم أكن أجده من قبل وأنا أقرأ الشعر الجاهلي متفرقًا لشعراء مختلفين، أو وأنا أحفظ لعشرة من شعراء مختلفين هذه «المعلقات العشر الجاهلية»، وأدارسها وأتتبع معاني ألفاظها، مع اختلاف معانيها وأغراضها.

وجدت يومئذ في الشعر الجاهلي ترجيعًا خفيًا غامضًا، كأنه حفيف نسيم تسمع حسّه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف أو رنين صوت شجي ينتهي إليك من بعيد في سكون ليل داج، وأنت محفوف بفضاء متباعد الأطراف. وكان هذا الترجيع الذي آنسته مشتركًا بين شعراء الجاهلية الذين قرأت شعرهم، ثم يمتاز شاعر من شاعرٍ بجرس ونغمة وشمائل تتهادى فيها ألفاظه، ثم يختلف شعر كل شاعر منهم في قصيدة قصيدة من شعره، وبدندنة تعلو وتخفت تبعًا لحركة وجدانه مع كل غرض من أغراضه في هذا الشعر. ولا تظنن أني أزعم أن الشعر الأموي والشعر العباسي كليهما خال خلوًا تامًا من مثل هذه الظاهرة، كلا. ولكني بالمقارنة وجدت ترجيع الشعر الجاهلي ورنينه ودندنته، مباينةً كلها مباينة ظاهرة لما أجده في أكثر الشعر الأموي والشعر العباسي من الترجيع والرنين والدندنة. وهذا ليس مردودًا بلا ريب إلى ألفاظ اللغة من حيث هي ألفاظ، ولا إلى أوزان الشعر

من حيث هي أوزان. وكان بلوغي، يومئذ، إلى إدراك هذه الفروق أو تبيِّنها تبينًا يتيح لي التعبير عنها، أمرًا متعذرًا، فما هو إلا التذوُّق المحض والإحساس المجرد. وبهذا التذوق المتتابع الذي ألفته، صار لكل شعر عندي مذاقٌ وطعم وشذًا ورائحة، وصار مذاق الشعر الجاهلي وطعمه وشذاه ورائحته بينا عندي، بل صار تميز بعض من بعض دالًا يدلني على أصحابه.

بمثل هذا الحديث كنت أفاوض الشيوخ الكبار ممن عرفتهم ولقيتهم، وكان هذا الحديث هجيراي «أي دأبي وعادتي من فرط النشوة»، فكان يعرض عني من أعرض، ويربّت على خيلاء شبابي من ربت بيد لطيفة حانية. كان من هؤلاء شيخ ساكن الهيبة، رقيق الحاشية، ساحر الابتسامة، رفيق اليد واللسان، حلو المنطق، خفيض الصوت، ذكي العينين، هو أستاذنا أحمد تيمور باشا رحمه الله، فاستمع إلى نشوتي بالشعر الجاهلي استماع من طب لمن حب، كما يقال في المثل.

حدثته مرارًا، ثم جاء يوم فالتقينا، على عادتنا، يومئذ (سنة ١٩٢٥)، في المكتبة السلفية عند أستاذنا محب الدين الخطيب، فلم يكد يجلس حتى مد يده إلي بعدد من مجلة انجليزية، (عدد يوليه ١٩٢٥ من مجلة الجمعية الآسيوية)، وقال لي وهو يبتسم: اقرأ هذه! فإذا فيها مقالة للأعجمي المستشرق مرجليوث، تستغرق نحو اثنتين وثلاثين صفحة من هذه المجلة، بعنوان «نشأة الشعر العربي». كنت خبيرًا بهذا الأعجمي التكوين، التكوين البدني والعقلي، منذ قرأت كتابة عن محمد رسول الله ﷺ. أخذت المجلة وانصرفت، وقرأت المقالة، وزاد الأعجمي سقوطًا على سقوطه.

كان كلُّ ما أراد أن يقوله: إنه يشك في صحة الشعر الجاهلي لا، بل إن هذا الشعر الجاهلي الذي نعرفه، إنما هو في الحقيقة شعر إسلامي وضعه

الرواة المسلمون في الإسلام، ونسبوه إلى أهل الجاهلية، وسخفًا في خلال ذلك كثيرًا. ولأني عرفت حقيقة الاستشراق، لم ألق بالًا إلى هذا الذي قرأت، وعندي الذي عندي من هذا الفرق الواضح بين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي.

ثم بعد أيام لقيت أحمد تيمور باشا، وأعدت إليه المجلة، فسألني: ماذا رأيت؟ قلت: رأيت أعجميًا باردًا شديد البرودة، لا يستحي كعادته! فابتسم وتلألأت عيناه، فقلت له: أنا بلا شك أعرف من الانجليزية فوق ما يعرفه هذا الأعجم من العربية أضعافًا مضاعفة، بل فوق ما يمكن أن يعرفه منها إلى أن يبلغ أرذل العمر، وأستطيع أن أتلعّب بنشأة الشعر الانجليزي منذ شوسر إلى يومنا هذا تلعبا هو أفضل في العقل من كل ما يدخل في طاقته أن يكتبه عن الشعر العربي، ولكن ليس عندي من وقاحة التهجم وصفاقة الوجه، ما يسوِّل لي أن أخط حرفًا واحدًا عن نشأة الشعر الإنجليزي. ولكن صروف الدهر التي ترفع قومًا وتخفض آخرين، قد أنزلت بنا وبلغتنا وبأدبنا، ما يبيح لمثل هذا المسكين وأشباهه من المستشرقين أن يتكلَّموا في شعرنا وأدبنا وتاريخنا وديننا، وأن يجدوا فينا من يستمع إليهم، وأن يجدوا أيضًا من يختارهم أعضاءً في بعض مجامع اللغة العربية!! وأغضى أحمد تيمور وهو يبتسم

ومرت الأيام، وغاص كلام هذا الأعجمي في لجج النسيان، لأن هذا الأعجم وأشباهه يدرسون آدابنا وشعرنا وتاريخنا كأنه نقشة على مقبرة عادية قديمة، مكتوب بلغة ماتت ومات أهلها وطمرها تراب القرون!! والأسباب الداعية لهم إلى ركوب هذا المنهج كثيرة، أهونها شأنا الأهواء والضغائن المتوارثة، ولكن أوغلها أثرًا أن توجههم إلى هذا المسلك، مسلك الاستشراق، هو أن جمهرتهم غير قادرة أصلًا على تذوُّق الآداب تذوقًا يجعلها حية في نفوسهم قبل أن يكتبوا، وهم أيضًا مسلوبوا

القدرة على أن يبلغوا في لسانهم الذي ارتضعوه مع لبان أمهاتهم مبلغًا من التذوق، يعينهم على التعبير عنه تعبيرًا يتيح لأحدهم أن يكون له شأن يذكر في آداب لسانه. ولهذا العجز آثروا أن يكون لهم ذكرٌ بالكتابة في شأن لغات أخرى يجهلها أقوامهم، وهذا الجهل يستر عوراتهم عند من يقرأ ما يكتبون من بني جلدتهم. ولأني خبرت ذلك فيما يكتبون، وفيما يقولونه بألسنتهم، ما لم يكن لمثل هذه الآراء في الشعر الجاهلي وغيره وقعٌ في نفسي يثيرني، اللهم إلا ما يثير تقززي، فما أسرع ما أسقط ما أقرأ من كلامهم جملة واحدةً في يم النسيان.

كان ما كان، ودخلنا الجامعة، وبدأ الدكتور طه يلقي محاضراته التي عرفت بكتاب «في الشعر الجاهلي». ومحاضرة بعد محاضرة، ومع كل واحدة يرتدُّ إلى رجع من كلام هذا الأعجمي الذي غاص في يم النسيان! وثارت نفسي، وعندي الذي عندي من المعرفة بخبيئة هذا الذي يقول الدكتور طه وعند الذي عندي من هذا الإحساس المتوهج بمذاق الشعر الجاهلي، كما وصفته آنفًا، والذي استخرجته بالتذوق، وبالمقارنة بينه وبين الشعر الأموي والعباسي. وأخذني ما أخذني من الغيظ، وما هو أكبر وأشنع من الغيظ، ولكني بقيت زمنًا لا أستطيع أن أتكلم.

تتابعت المحاضرات، والغيظ يفور بي، والأدب الذي أدبنا به آباؤنا وأساتذتنا يمسكني، فكان أحدنا يهاب أن يكلم الأستاذ، والهيبة معجزة، وضاقت على المذاهب.

ولكن لم تخل أيامي يومئذ في الجامعة من إثارة بعض ما أجد في نفسي، في خفوت وتردد. وعرفت فيمن عرفت من زملائنا شابًا قليل الكلام، هادئ الطباع، جم التواضع، وعلى أنه من أترابنا، فقد جاء من الثانوية عارفًا بلغات كثيرة، وكان واسع الاطلاع، كثير القراءة، حسن الاستماع، جيد الفهم، ولكنه كان طالبًا في قسم الفلسفة، لا

في قسم اللغة العربية. كان يحضر معنا محاضرات الدكتور، وكان صغوه وميله وهواه مع الدكتور طه حسين، ذلك هو الأستاذ الجليل محمود محمد الخضري. نشأت بيني وبينه مودة، فصرت أحدثه بما عندي، فكان يدافع بلين ورفق وفهم، ولكن حدّتي وتوهجي وقسوتي كانت تجعله أحيانًا يستمع ويصمت فلا يتكلم. كما نقرأ معًا، وفي خلال ذلك كنت أقرأ له من دووواين شعر الجاهلية، وأكشف له عما أجد فيها، وعن الفروق التي تميز هذا الشعر الجاهلي من الشعر الأموي والعباسي. وجاء يوم ففاجأني الخضيري بأنه يحبُّ أن يصارحني بشيء. وعلى عادته من الهدوء والأناة في الحديث، ومن توضيح رأيه مقسمًا مفصلًا، قال لي: إنه أصبح يوافقني على أربعة أشياء:

الأول: أن إتكاء الدكتور على «ديكارت» في محاضراته، اتكاء فيه كثير من المغالطة، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف، وبما كتبه في كتاب «مقال عن المنهج» وأن تطبيق الدكتور لهذا المنهج في محاضراته، ليس من منهج ديكارت في شيء.

الثاني: أن كل ما قاله الدكتور في محاضراته، كما كنت أقول له يومئذ، ليس إلا سطوًا مجردًا على مقالة مرجليوث، بعد حذف الحجج السخيفة والأمثلة الدالة على الجهل بالعربية، التي كانت تتخلل كلام ذاك الأعجمي وأن ما يقوله الدكتور لا يزيد على أن يكون «حاشية» وتعليقًا على هذه المقالة.

الثالث: أنه، على حداثة عهده بالشعر وقلة معرفته به، قد كاد يتبين أن رأيي في الفروق الظاهرة بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام، أصبح واضحًا بعض الوضوح وأنه يكاد يحسُّ بما أحس به وأنا أقرأ له الشعر وأفاوضه فيه.

الرابع: أنه أصبح مقتنعًا معي أن الحديث عن صحة الشعر الجاهلي،

قبل قراءة نصوصه قراءة متذوقة مستوعبة، لغو باطل وأن دراسته كما تدرس نقوش الأمم البائدة واللغات الميتة، إنما هو عبث محض.

واتفق أن جاء حديثه هذا في يوم من أيامي العصيبة. فالدكتور طه أستاذي، وله علي حق الهيبة، هذا أدبنا. وللدكتور طه عليّ يد لا أنساها، كان مدير الجامعة يومئذ، «أحمد لطفي السيد» يرى أنه لا حق لحامل «بكالوريا» القسم العلمي في الالتحاق بالكليات الأدبية، ملتزمًا في ذلك بظاهر الألفاظ!! فاستطاع الدكتور طه أن يحطّم هذا العائق بشهادته لي، وبإصراره أيضًا. فدخلت يومئذ كلية الآداب قسم اللغة العربية وحفظ الجميل أدبٌ لا ينبغي التهاون فيه. وأيضًا فقد كنت في السابعة عشرة من عمري، والدكتور في السابعة والثلاثين، فهو بمنزلة أخي الأكبر، وتوقير السن أدب ارتضعناه مع لبان الطفولة. كانت هذه الآداب تفعل بي فعل هوى المتنبي بالمتنبي حيث يقول:

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوىً كاسر كفي وقوسي وأسهمي

فلذلك ظللت أتجرع الغيظ بحتًا، وأنا أصغي إلى الدكتور طه في محاضراته، ولكني لا أستطيع أن أتكلَّم. لا أستطيع أن أناظره كفاحًا، وجهًا لوجه، وكل ما أقوله، فإنما أقوله في غيبته لا في مشهده. تتابعت المحاضرات، وكل يوم يزداد وضوح هذا السطو العريان على مقالة مرجليوث، ويزداد في نفسي وضوح الفرق بين طريقتي في الإحساس بالشعر الجاهلي، وبين هذه الطريقة التي يسلكها الدكتور طه في تزييف هذا الشعر. وكان هذا «السطو» خاصة مما يهز قواعد الآداب التي نشأت عليها هزًا عنيفًا.

بدأت الهيبة مع الأيام تسقط شيئًا فشيئًا، وكدت ألقي حفظ الجميل ورائي غير مبال، ولم يبق لتوقير السن عندي معنى، فجاء حديث الخضيري، ومن حيث لا يريد أو يتوقع، لينسف في نفسي كل ما

التزمت به من هذه الآداب. وعجب الخضيري يومئذ، لأني استمعت لحديثه، ولم ألقه لا بالبشاشة ولا بالحفاوة التي يتواقعها، وبقيت ساكنًا، وانصرفت معه إلى حديث غيره.

وفي اليوم التالي جاءت اللحظة الفاصلة في حياتي. فبعد المحاضرة، طلبت من الدكتور طه أن يأذن لي في الحديث، فأذن لي مبتهجًا، أو هكذا ظننت، وبدأت حديثي عن هذا الأسلوب الذي سماه «منهجًا» وعن تطبيقه لهذا «المنهج» في محاضراته، وعن هذا «الشك» الذي اصطنعه، ما هو، وكيف هو؟ وبدأت أدلل على أن الذي يقوله عن «المنهج» وعن «الشك» غامض، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت، وأن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليمًا لم يداخله الشك بروايات في الكتب هي في ذاتها محفوفة بالشك! وفوجئ طلبة قسم اللغة العربية، وفوجئ الخضيري خاصة. ولما كدت أفرغ من كلامي، انتهرني الدكتور طه وأسكتني، وقام وقمنا لنخرج.

وانصرف عني كل زملائي الذين استنكروا غضابًا ما واجهت به الدكتور طه، ولم يبق معي إلا محمود محمد الخضيري، «من قسم الفلسفة كما قلت». وبعد قليل أرسل الدكتور طه يناديني، فدخلت عليه، وجعل يعاتبني، يقسو حينًا ويرفق أحيانًا، وأنا صامت لا أستطيع الرد. لم أستطع أن أكاشفه بأن محاضراته التي نسمعها كلها منسوخة من مقالة مرجليوث، لأنها مكاشفة جارحة من صغير إلى كبير، ولكني كنت على يقين من أنه يعلم أني أعلم، من خلال ما أسمع من حديثه، ومن صوته، ومن كلماته، ومن حركاته أيضًا!! وكتمان هذه الحقيقة في نفسي كان يزيدني عجزًا عن الرد، وعن الاعتذار إليه أيضًا، وهو ما كان يرمي إليه. ولم أزل صامتًا مطرقًا حتى وجدت في نفسي كأني أبكي من ذل العجز، فقمت فجأة وخرجت غير مودع ولا مبال بشيء. وقضي الأمر! ويبس الثَّرى بيني

وبين الدكتور طه إلى غير رجعة!

ومن يومئذ لم أكفَّ عن مناقشة الدكتور في المحاضرات أحيانًا بغير هيبة، ولم يكف هو عن استدعائي بعض المحاضرات، فيأخذني يمينًا وشمالًا، في المحاورة، وأنا ملتزم في كل ذلك بالإعراض عن ذكر سطوه على مقاله مرجليوث، صارفًا همي كله إلى موضوع «المنهج» و«الشك»، وإلى ضرورة قراءة الشعر الجاهلي والأموي والعباسي قراءة متذوقة مستوعبة، ليستيقن الفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية، أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة، وأنه موضوع في الإسلام، من خلال روايات في الكتب هي في ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير. ولكني من يومئذ لم أكف عن إذاعة هذه الحقيقة التي أكتمها في حديثي مع الدكتور طه، وهي أنه سطا سطوًا كريها على مقالة المستشرق الأعجمي، فكان بلا شك، يبلغه ما أذيعه بين زملائي. وكثر كلامي عن الدكتور طه نفسه، وعن القدر الذي يعرفه من الشعر الجاهلي، وعن أسلوبه الدال على ما أقول. واشتد الأمر، حتى تدخَّل في ذلك، وفي مناقشتي بعض الأساتذة، كالأستاذ نلينو، والأستاذ جويدي من المستشرقين، وكنت أصارحهما بالسطو، وكانا يعرفان ولكنهما يداوران. وطال الصراع غير المتكافئ بيني وبين الدكتور طه زمانًا، إلى أن جاء اليوم الذي عزمت فيه على أن أفارق مصر كلها، لا الجامعة وحدها، غير مبال بإتمام دراستي الجامعية، طالبًا للعزلة، حتى أستبين لنفسي وجه الحق في «قضية الشعر الجاهلي»، بعد أن صارت عندي قضية متشعبة كل التشعب.

هذا مطلع قصتي مع «قضية الشعر الجاهلي»، ومع الدكتور طه خاصة، على وجه الإيجاز. عزمت يومئذ على مفارقة مصر، ثم

الجامعة ومعي ذل العجز عن مواجهة الدكتور طه برأيي في تفاصيل هذا «السطو» جهارًا نهارًا بلا قناع، وبالذي أجده في نفسي من البشاعة، بشاعة ادعاء المرء امتلاك ما يسطو عليه، كأنه مما اهتدي إليه، واستحق نسبته إلى نفسه بعد طول معاناة في البحث وشقاء في الدَّرس! ومع أن كل من كتب بعد ذلك في نقد كتاب «في الشعر الجاهلي» قد واجه الدكتور بهذا «السطو» مواجهة مكشوفة علانية، إلا أن عجزي عن مواجهته بلساني، غير متهيب ولا متأدب، كان يهدم نفسي هدمًا، وينسف آدابي نسفًا، ويترك في ضميري غصَّة تأبى أن تزول. كان شيئًا بشعًا لا أطيقه، ثم زاد الأمر عندي بشاعة فظعت بها، حين نشر كتابه «في الأدب الجاهلي» سنة ١٩٢٧ وهو نفس كتاب «في الشعر الجاهلي»: «حذف منه فصل، وأضيف إليه فصول وغير عنوانه بعض التغيير»!! كما وصفه الدكتور بعنوان «الكتاب الأول الأدب وتاريخه»، لأنه جاء تسويغًا لهذا «السطو»، وزيادة في الادعاء بأنه قد امتلك ما سطا عليه امتلاكه لا ريبة فيه!! واستعلاء أيضًا ودلالة صريحة على أنه لا يبالي أقل مبالاة بكل ما سمعه من أنه «سطا» على مقالة مرجليوث، بين أسوار الجامعة ولا بجميع الكتب التي ألفت وطبعت في نقد كتابه، والتي كشفت هذا «السطو» بالدليل والبرهان، ومع أن الأمر لا يحتاج إلى برهان أو دليل! وجميعها كتب يقرؤها الناس! كيف يكون حال هذا؟ وبأي جراءة يستطيع الدكتور طه أن يلقى الناس! أي احتقار هذا للناس! وأي استهزاء بهم وبعقولهم هو أبشع من هذا! لا أدري.

ثم كان معي ما هو أفحش من هذا أيضًا. كنت يومئذ غرًا في الثامنة عشرة من عمر أو أشف، وكان من أساتذتنا مستشرقان أتى بهما الدكتور طه من إيطالية، أولهما «الأستاذ نلِّينو»، وهو شيخ مهيب الطلعة، كث اللحية، واسع العلم، فصيح اللسان بالعربية، ثم الأستاذ «جويدي الصغير» وكان شابًا وسيمًا متوقدًا، لعل مكانة أبيه الشيخ المستشرق الكبير جويدي، هي

التي رشحته للأستاذية في مصر!! فقد دخلا بيني وبين الدكتور طه، أو على الأصح: بين وبين ما أقوله في غيبة الدكتور طه. كان أمرهما معي عجبًا من العجب! فهما يعلمان علمًا يقينًا لا شك فيه أن محصَّل ما يقوله الدكتور طه، إنما هو «سطو» عريان على ما كتبه مرجليوث، ولكنهما كانا معي شديدي المراوغة: لا يملكان مصارحتي بأن هذا ليس «سطوًا»، ويمتنعان أن يقولا صراحةً أنه «سطو»! وكل ما كنت أظفر به منهما هو مطالبتي بتعظيم الدكتور طه وتوقيره بحق الأستاذية، ثم استدراجي إلى تيه الألفاظ الغامضة: «البحث العلمي والأدبي» و«عالمية الثقافة» وما شابه هذين من ألفاظ التغرير. فكنت أمتنع عن التسليم لهما بما يقولان عن «البحث العلمي والأدبي وعالمية الثقافة»، حتى يطالبا الدكتور طه بالإقرار، وبأن يقرهما أيضًا، بأن ما يقوله مسلوخٌ كله مما قاله مرجليوث، أو هو على الأقل متابعة لمرجليوث في رأيه الذي كتبه ونشره وقرأناه جميعًا. فلما لم يفعلا، ولم يفعل الدكتور طه أيضًا، زاد الأمر بشاعة في نفسي، وسقطت هيبة الأستاذية وهيبة الجامعة أيضًا سقوطًا منكرًا، وأطبق عليَّ الارتياب والشك في هذه الأمور كلها غير مبال أيضًا بما أنا مقدم عليه من مفارقة بلادي وأهلي، ومن هجر الدراسة الجامعية أيضًا غير باك ولا آسف. وانطلقت، ومعي صاحبان يؤرقان ليلي ويلهبان نهاري: بشاعة «السطو» وبشاعة التستر عليه من عارف خبير، لا يكتفي بالتستر، بل يطالب بالتغاضي عنه، وبتوقير الساطي وتعظيمه بحق الأستاذية لا غير!!.

ومرت الأيام والليالي والسنون ما بين سنة ١٩٢٨، وسنة ١٩٣٦، وهي السنة التي كتبت فيها هذا الكتاب «المتنبي»، وهمي مصروف أكثره إلى «قضية الشعر الجاهلي»، وإلى طلب اليقين فيها لنفسي، لا معارضة لأحد من الناس، ومشت بي هذه القضية في رحلة طويلة شاقة، ودخلت بي في

دروب وعرة شائكة وكلما أوغلت انكشفت لي غشاوة من العمى، وأحسست أني أنا والجيل الذي أنا منه، وهو جيل المدارس المصرية، قد تم تفريغنا تفريغًا يكاد يكون كاملًا من ماضينا كله، من علومه وآدابه وفنونه. وتم أيضًا هتك العلائق بيننا وبينه. وصار ما كان في الماضي متكاملًا متماسكًا، مزقًا متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة. ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغًا أبدًا، فقد تم ملء هذا الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون، لا تمت إلى هذا الماضي بسبب، وإننا لنستقبله استقبال الظامئ المحترق قطرات من ماء النمير المثلج».

غرض واحد

ويقول الشيخ واصفًا فصول كتابه: «أباطيل وأسمار» في كلمات عذبة رائقة تصلح لتكون وصفًا لفصول حياة الرجل كلها:

ولهذه الفصول غرض واحد، وإن تشعبت إليه الطرق، وهذا الغرض هو ما قلت للأخ الصديق الأستاذ «محمد عودة» [ص: ٥٠٠]: «هو الدفاع عن أمة برمتها، هي أمتي العربية الإسلامية. وجعلت طريقي أن أهتك الأستار المسدلة التي عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان، ورجال آخرون قد ورثوهم في زماننا وهمهم جميعًا كان: أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا، وعلى حياتنا، وعلى ثقافتنا، وبهذه الغلبة يتم انهيار الكيان العظيم الذي بناه آباؤنا في قرون متطاولة، وصححوا به فساد الحياة البشرية في نواحيها الإنسانية، والأدبية، والأخلاقية، والعلمية، والعملية، والفكرية، وردُّوها إلى طريق مستقيم. علم ذلك من علمه وجهله من جهله.

وكان مما قدّر الله أن أفتح عيني على ثور مصر سنة ١٩١٩، وعلى دار تموج بالثوار، فعقلت من الأمر يومئذ ما عقلت و ورأيت بعيني رجالًا، وسمعت بآذاني آراء، ورضيت بقلبي أو سخطت، وأعانتني فطرتي بضرب من التمييز، كان يرج نفسي رجًا شديدًا. وأنا بعد في غضارة الصبا.

ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعًا يفور بالمتناقضات، ويتشقق بالصراع المر في ميادين مختلفة: من الدين، إلى العلم، إلى الأدب، إلى الفن، إلى السياسة، إلى السنن الموروثة = فخضت محنة زماني، في أول نشأتي، بنفس غضة مجرَّحة بالتجارب ومضت بي الأيام، وأثخنتني التجارب، وهلك رجال، ونشأت رجال فرأيت وسمعت، ورضيت وسخطت، وعلمت من أسرار الصِّراع ما لم أكن أعلم.

فصار حقًّا عليَّ واجبًا أن لا أتلجلج، أو أحجم، أو أجمجم، أو أداري، ما دمت قد نصبت للدفاع عن أمتي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وصار حقًّا عليَّ واجبًا أن أستخلص تجارب خمسين سنة من عمري، قضيتها قلقًا حائرًا، أصارع في نفسي آثار عدو خفي شديد النكاية، لم يلفتني عن هول صراعه شيء، منذ استحكمت قوتي، واستنارت بصيرتي، ومنذ استطعت أن أهتك الستر عن هذا العدو الماكر الخبيث = ثم صار حقًّا عليَّ واجبًا أن لا أعرج على بنيَّات الطريق، إلا بعد أن أجعل الطريق الأعظم الذي تشعبت منه، واضحًا لاحبا مستبينًا = ثم صار عليَّ واجبًا أن لا آلو جهدًا في الكشف عن حقيقة هذا العدو، وعن حقيقة الصراع الذي عانيته وحدي على وجه من الوجوه، والذي عانيته مع أمتي العربية والإسلامية على وجوهٍ أخر.

وقد سرت في هذه الفصول المتشعبة سيرة واحدة، فضمنت جميعها بابًا أو أبوابًا من النظر إلى حقيقة الصراع الذي دار، ولم يزل يدور على أرضنا، وفي عقولنا، وفي ضمير أنفسنا. وأشرت في مواضع كثيرة إلى أن

هذا الصراع صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد اختلاف: حضارة طال عليها الزَّمن فغفت غفوة آمن مستريح لا يفزِّعه شيء وحضارة واتاها الزمن فهبت يقظة متلفتة جريئة، لا تأمن أحدًا ولا تطمئن إليه، فلما بدرت بوادر الصراع، قامت «الغافية» تتمطَّى، وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها، وتمسح النعاس اللذيذ عن وجهها، غافلة لا يفارقها شعورها القديم بالأمن والاطمئنان أما «اليقظة» فهبت حذرة، تراقب، وتتحسس، وتطوف، وتتأهب للسطو على هذه «الغافية»، باغية لا يفارقها شعورها الجديد اللذيذ بالقوة والبطش والضراوة، وبحب الغلبة وبسط السلطان، وبدأ الصراع جسًا بأطراف الأسنة، ودسًا بأسباب التجارة، وشيئًا فشيئًا، جاءت «الجيوش» واستفحلت «التجارة»، وجاء معهما أو سبقهما طوائف «المبشرين». لم يكونوا طائفة من الدعاة إلى الديانة فحسب، بل كانوا طوائف لكل منها صفة ورسم تمشي به في الناس، تأخذهم من غفلاتهم قبل أن يفيقوا. وأطبقت على رقعة العالم العربي والإسلامي ضبابة كثيفة، ووطئ عليها تاريخ طويل يسحق القوى وينسفها نسفًا . . . وكانت قصة طويلة متمادية، تقطر دمًا وغدرًا وخيانة، وترشح مكرًا وخبثًا وخسة وفظاظة . . .

❊ ❊ ❊

فهذه الفصول التي كتبتها، ترفع اللثام عن شيء من هذه القصة التي تجري أحداثها في أخطر ميدان من ميادين هذا الصراع، وهو ميدان «الثقافة» و«الأدب» و«الفكر» جميعًا. ويزيده خطرًا: أن الذين تولوا كبر هذا الصراع، والذين ورثوهم من خلفهم، إنما هم رجال منا، من بني جلدتنا، من أنفسنا، ينطقون بلساننا، وينظرون بأعيننا، ويسيرون بيننا آمنين، بميثاق الأخوة في الأرض، أو في الدِّين، أو

في اللغة، أو في الجنس.

ويزيد الأمر بشاعة: أن الذين هم هدف للتدمير والتمزيق والنَّسف، لا يكادون يتوهَّمون أن ميدان «الثقافة» و«الأدب» و«الفكر» هو أخطر ميادين هذه الحرب الخسيسة الدائرة على أرضنا من مشرق الشمس إلى مغربها = ولا أن معارك «الثقافة» و«الأدب» و«الفكر» متراحبة لا تحد بحدودها = ولا أن أكثرها يأتي موقتًا توقيتًا دقيقًا: إما قبيل حركات النهضة والإحياء، وإما معها، وإما في أعقابها ولا أنَّ الأمر صار أخطر مما كان منذ سبعين سنة ولا أن هذه «المعارك» ليست في حقيقتها «أدبية» أو «ثقافية» أو «فكرية»، بل هي معارك «سياسية»، تتخذ «الثقافة» و«الأدب» و«الفكر» سلاحًا ناسفًا لقوى متجمِّعة، أو لقوىً هي في طريقها إلى التجمُّع ولا أن أمضى سلاح في يد عدونا هو «سلاح الكلمة» الذي يحمله رجال من أنفسنا، ينبثون في كل ناحية، ويعملون في كل ميدان، وينفثون سمومهم بكل سبيل ولا أن بعض هؤلاء الرجال يأتون ما يأتون عن علم، وبعضهم قد أخذ من غفلته، فهو ماض في طريقه على غير بينة.

أعتذر إليك

قد يعجب المرء حين يعلم أن نفسية الأستاذ محمود شاكر الهادرة القوية، هي من أقدر الشخصيات على الاعتراف بالخطأ والرجوع إلى الحق ودونك بعض ذلك:

١- كتب أبو فهر عدة مقالات هادرة في الرد على طعون سيد قطب في صحابة النبي ﷺ وفي غضون هذه المقالات وصلته رسالة مدافعة عن رأي سيد قطب كتبها الدكتور محمد رجب البيومي، فرد عليه أبو فهر ردًّا عنيفًا أصاب فيه بعضًا وأخطأ بعضًا، وتألم البيومي ورد على شاكر ردًّا أعنف،

وشعر أبو فهر ببعض خطأه في رده على البيومي فكتب هذه المقالة التي أجتزأ بموضع الشاهد منها يقول أبو فهر:

أكتب هذه الكلمة محزون لشيء اجترمته، كان أولى بي أن أصبر حتى لا أزل عليه وذلك أني قرأت كلمة في بعض المجلات يقول فيها كاتبها: «فإذا منع الفقير حقه، فله أن يقاتل عليه، لأن الله يأمر بقتال الباغين ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾، ولاشك أن مانع الحق باغ. فاحتملتني وسوء الظن، أن أرى الكاتب قد استدل بالآية في غير مكان الاستدلال بها. فساء قولي في الرجل بين جماعات من الناس، إذ لم يقع لي إلا أن الآية في اقتتال طائفتين من المؤمنين ثم بغي إحدى الطائفتين على الأخرى. ولما سكن بي الليل أمس «السبت ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣١٧) حاك في قلبي شيء لم أدر ما هو، وألح علي أني اكتسبت في أيامي هذه إثمًا أخشى أن لا أفلت من عقابه.

وارتفعت لعيني هذه الآية بختامها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فرأيت من العدل والقسط أن أرجع إلى تفسيرها، وإلى أقوال الأئمة في قتال أهل البغي، فعرفت ما لم أكن أعرف، أن بعضهم قد استدل بها في مثل ما استدل عليه الكاتب الفاضل، وإن كان لطريقة الاستدلال عندهم نهج غير نهجه، وقيد فيما أطلقه.

وإذا أنا قد ظلمته ظلمًا لا ينبغي. فلم أزل تلك الساعة أستغفر الله لما فرط مني وما جرى من لساني من الكلم السيء، واستغفرت له بما أسأت إليه بظهر الغيب.

بيد أني أعود فأسأله أن يتغمد سوء أدبي بفضله، وإذا كان قد استخرج من كلامي سبابا وشتائم، فأنا أعيذه أن يكون غرضًا لها، وأعتذر إليه،

وأستغفر الله مما أزلفت إليه من إساءة، وله أحسن الأسوة غرضًا لها، وأعتذر إليه، وأستغفر الله مما أزلفت إليه من إساءة وله أحسن الأسوة في أصحاب رسول الله ﷺ، فإن بعض السفهاء لم يتورعوا قط عن سبهم والطعن فيهم، بأقبح اللفظ. فأين يقع مثلي من هؤلاء! فإني مهما ملكت من السباب والشتائم والبذاءة وسوء الأدب، فلن أبلغ بعض ما بلغوا من هؤلاء الصحابة، فلا عليه مني ومن سبابي وشتائمي. وليعلم الأستاذ الفاضل، إن كان لا يعلم، أن هؤلاء السفهاء في الدنيا كثير، فإذا كان يغضب لكل سفاهة من سفيه، فإن شقاءه سيطول بغضبه، فدع السفهاء وليقولوا ماء شاءوا، وكن أنت ضنينًا بكرامتك، فإنها أعز وأغلى من أن تبذل على الألسنة. وتقبل إن تفضَّلت عذري وشكري واحترامي وتقديري، وعجزي عن مخالفتك، وحبي لرضاك وقد بلغت مني في مقالك ما شئت، وناصيتي بيدك، وفي المثل «ملكت فأسجح». فافعل مؤيدًا منصورًا، والسلام.

٢- ومن نفس الباب ما ذكره الدكتور محمود الطناحي قائلًا عن أبي فهر: «بل رأيناه هو يقسو على نفسه كثيرًا إذا زلَّ في فهم، أو غاب عنه وجه الصواب، ومن أمثلة ذلك استدراكاته على تحقيقاته التي يثبتها في آخر الكتاب، أو في الطبعة التالية، وهذه نماذج من تلك الاستدراكات التي شدد فيها على نفسه هو، وقد اخترتها من تحقيقه لكتاب جمهرة نسب قريش، للزبير بن بكار.

● يقول: «وقد أسأت أشدّ الإساءة في الحاشية رقم [٣] وينبغي طمس هذه الحاشية».

● ويقول عن شيء من تفسيره، وظهر له خطأه: «وفسَّرتُه متعجِّلًا»، ويقول في موضع ثالث: «وهو سهوٌ مني شديد».

• ويقول في مستدركات تحقيق طبقات فحول الشعراء: «عجلتُ فتلك ما قاله ياقوت، فأخطأت خطأ لا شك فيه، فلا أدري كيف تهاوى فيه ياقوت؟».

نحن إذن أمام رجل يتحرّى الصواب، ويروم الصدق، وقد التزم جانب المكاشفة والمصارحة، وترك التجمُّل والتكلف والمصانعة، ويعلم الله أننا لو رُزقنا بضعة رجال من طراز محمود شاكر لكان الحال غير الحال!».

❊ ❊ ❊

[انظر: «شيخ العربية أبو فهر محمود محمد شاكر - بحوث مهداة إليه بمناسبة بلوغه السبعين» ط. دار المدني، و«أباطيل وأسمار» (ص٦ - ١٥)، و«المتنبي» (ص٨-٢٠)].

❊ ❊ ❊

الشيخ الدكتور محمود محمد الطناحي

ترجمته في سطور

١- ولد عام ١٩٣٥ بمحافظة المنوفية جمهورية مصر العربية.

٢- انتقل إلى القاهرة في الثامنة من عمره.

٣- أتم حفظ القرآن الكريم برواية حفص في الثالثة عشرة من عمره.

٤- التحق بمعهد القاهرة الديني بالأزهر الشريف، وحصل على الشهادة الابتدائية عام ١٩٥٣م، والشهادة الثانوية عام ١٩٥٨م.

٥- التحق بكلية دار العلوم جامعة القاهرة- وحصل على شهادة الليسانس في علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية عام ١٩٦٢م.

٦- حصل من الكلية نفسها على شهادة الماجستير (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٢م، بتقدير «ممتاز»، وكان موضع أطروحته [ابن معطي وآراؤه النحوية، مع تحقيق كتابه «الفصول الخمسون»].

٧- ومن كلية دار العلوم أيضًا حصل على شهادة الدكتوراه (قسم النحو والصرف والعروض) عام ١٩٧٨م، بمرتبة الشرف الأولى. وكان موضوع أطروحته [ابن الشجري وآراؤه النحوية، مع تحقيق الجزء الأول من كتابه «الأمالي النحوية»].

٨- عمل عقب تخريجه عام ١٩٦٣م معيدًا بمعهد الدراسات العربية

بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وفي عام ١٩٦٥م ترك الجامعة الأمريكية، وعين خبيرًا بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اليونسكو العربية).

٩- وظل بمعهد المخطوطات إلى أواخر عام ١٩٧٨م، حيث انتدب أستاذا مشاركًا بقسم الدراسات العليا العربية بكلية الشريعة جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة- كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى الآن. ثم استقال منها بنهاية العام الدراسي ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

١٠- عُين أستاذا مساعدًا بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة فرع الفيوم في ٢٧/ ٣/ ١٩٩١م، ثم رقى أستاذًا بتاريخ ٣١/ ٥/ ١٩٩٥/ ، ثم انتقل للعمل أستاذا ورئيسًا لقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب جامعة حلوان بتاريخ ١/ ٨/ ١٩٩٦م.

١١- عمل خبيرًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، وعضوًا بالهيئة المشركة لخدمة التراث العربي (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معهد إحياء المخطوطات العربية).

١٢- له أكثر من خمسة وثلاثين عنوانًا ما بين مؤلف ومحقق.

١٣- نشر عدة مقالات بمجلات الرسالة والهلال والكتاب العربي والمجلة والثقافة والشعر بالقاهرة. ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ودمشق، والعربي بالكويت، ودعوة الحق بالمغرب، وكلية اللغة بمكة المكرمة.

١٤- انتقل إلى جوار ربه صباح الثلاثاء ٦ من ذي الحجة ١٤١٩هـ الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٩م.

جواهر ودرر

للشيخ الدكتور محمود الطناحي، كلمات جوامع، ودرر لوامع، كان يرسلها في مجالسه، ويتحف بها من يؤنسه، ولقد وجدت فيها حكمة بالغة، وخبرة بالتراث قد استوت على سوقها يانعة، فحرصت على جمعها، وها أنا ذا أتحفكم بها:

* إنما يُشْكَل ما يُشْكِل، وذلك بالنسبة لضبط الحروف بالحركات.

* الكتب بلا فهارس كنز بلا مفتاح.

* القراءة صيد والكتابة قيد.

* الصادق يعطى ثلاث خصال: الملحة، والمحبة، والمهابة.

* الملل من كواذب الأخلاق.

* إياك وحسو الطائر أي القراءة بلا تأني، والطلب بلا تدرج فالنظرة العجلى هي سلم الخطأ في الفهم.

* من حفظ المتون فقد حاز الفنون.

* من طلب العلم صفوًا طلب وهمًا.

* باب حضارتنا اللغة.

* المكتبة العربية كتاب واحد.

* لا يغني كتاب عن كتاب.

* اقرأ الكتاب دفعة واحدة.

* اعرف فرق ما بين الطبعات كما تعرف فرق ما بين المخطوطات.

* الزم باب خير فمن لزم بابًا من الخير فتح عليه غالب منه.

* إن الاشتغال بالتراث موقف حضاري، وليس نبشًا في القبور واهتمامًا بالرسم والبلى:

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها

* حظوظ الكتب كحظوظ الناس يصيبها ما يصيبهم من الذيوع أو الخمول.

تواضع عجيب

حديث التواضع حديث معجب آسر، وقد جبلت النفوس على بغض الكبر ولو كانت صاحبته، وعلى حب التواضع ولو كانت عارية عنه، ومما لا يقبل الشك أو المزايدة ما تسنمه الدكتور الطناحي من ذرى العلم والبيان، ومع ذلك فلسوف أنقل إلى القارئ الكريم درة يتيمة ومقالة كريمة، سطرها يراع هذا الرجل الرائع، تعكس تواضعه وتظهر هضمه لنفسه، ولتكن على ذكر من أنه ذكر هذا الكلام في تقديمه لتحقيق من أروع تحقيقاته والناظر فيه يجده قد ملئ علمًا من شرقيه إلى غربيه، غير أن النفوس الكريمة تأبى أن تفوتها خصلة من خصال الخير فلا تدركها، أو مكرمة من مكارم الأخلاق فلا تتخلى بها، فإلى حديث الطناحي وآية تواضعه لنكحل العيون ونُجِمَ النفوس:

يقول أستاذنا في مقدمة تحقيقه لكتاب «الشعر» لأبي علي الفارسي:

وبعد فإن الأمثلة التي ذكرتها في إغماض أبي علي وطيه الكلام طيًا، أردت بها أيضًا - فوق الدلالة على أسلوبه ومنهجه في الأداء -، أن أمهِّد

عذْري فيما تراه من توسع في الشرح والإحالة، وإكثار من التخريج والبسط. وتحقيق النصوص ينبغي أن يظل في دائرة النص، وبذل أقصى الوسع في «**أن يؤدَّى الكتاب أداءً صادقًا كما وضعه مؤلفه كمًا وكيفًا بقدر الإمكان**».

ثم ما يكون بعد ذلك من شرح موجز للغريب، وتخريج للنصوص، وتوثيق للنقول، وإضاءة النص ببعض التعليقات، ويكون ذلك كله في خدمة النص وتجليته. أما الركض هنا وهناك، وجمع الشاذة والفاذة، واستدعاء الداني والقاصي، وملء العيبة بما ينبغي أن يظلَّ في موضعه، يرجع إليه ويفيد منه من يريد التوسُّع والاستزادة: فليس ذلك من التحقيق في شيء وهو تضخيمٌ للنص، وإثقال عليه، وحجبٌ لضيائه وسناه، والسالك هذا الطريق لا يأمن العثرة بعد العثرة، والزلة إثر الزلة.

ولا تحتَجَّنَّ علينا بما تراه في حواشي تفسير أبي جعفر الطبري، وطبقات ابن سلَّام، لشيخنا محمود محمد شاكر، حرس الله مهجته، وبما تراه في حواشي مقتضب المبرِّد للشيخ الجليل محمد عبد الخالق عضيمة رحمه الله، فذلك من بابةٍ أخرى؛ **لأن الذي تراه من كلام هذين الإمامين موصولٌ بكلام الأوائل، منتزعٌ منه، ودالٌّ عليه، ومكمِّلٌ له، والشيخان الجليلان يسيران في طريق الفحول، لا تخرم مشية أحدهما مشية واحدة من علماء الصدر الأول. أمّا أنا وأنت من حملة الدكتوراة فدعْنا نرتزق، وصل على النبي!**

طرفة

كان الطناحي مرحًا من غير خفة، ظريفًا من غير نزق، يحفظ النادرة ويرويها ووما يذكر من شأنه:

ذكر الطناحي خبرًا طريفًا فحواه: أن طلاب معهد القراءات خرجوا يهتفون لمصطفى النحاس باشا، فغلبتهم طبيعة الإمالة، فإذا بهم يطبقونها في مثل هذه المناسبة فيهتفون: «**يحيا النحاس بيشا**» ثم يعقبونها بقولهم: «قراء، ورش يؤيدون أبا درش [كنية عامية تلزم من اسمه مصطفى].

أدب عال

من روائع ما يذكر عن هذا الشيخ الكريم ما حدثني به أحد إخواني وكان يعمل محققًا بدار هجر لتحقيق النصوص، وكان المشرف عليها صفي الطناحي ورفيق دربه الدكتور عبد الفتاح الحلو، فيخبرني صاحبي أن الطناحي كان في زيارتهم يومًا ما، فأراد قضاء حاجته فلم ذهب إلى دار الخلاء وجدها مشغولة، فانتظر وطال انتظاره.

يقول صاحبي: فقمت من مكاني خجلًا من وقفة هذا العلم بهذه الصورة فطرقت الباب على من بداخله، فإذا بهذا الرجل الصالح يقول لي: **اتق الله ولا تقطع عليه حاجته.**

قال صاحبي: فتذكرت أخلاق أهل زماننا، وتمعنت في وجه الرجل وأطلقت زفرات حسرة وآهات إعجاب.

❀ ❀ ❀

وفاء يخلب

تحدثنا عن هذا العلم الأشم فبقي ذكر خبر وفاءه وإنه لخبر يخلب الألباب:

أما وفاءه فأنت تراه في مواضع كثيرة مما كتب، وهي طبيعة صاحب النفس الصافية التي لا تحمل حقدًا ولا حسدًا ولا تنسى فضلًا.

ويذكر الطناحي بلسان الوفاء من هؤلاء الذين أحسنوا إليه «الشيخ الأصولي الفقيه عبد الخالق الأستاذ في كلية الشريعة، محقق آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم الرازي، وكان صاحب غرائب وعجائب. . وكان كثير البر بتلاميذه وأبنائه، وقد تخرج على يديه عدة من أبناء الجزيرة العربية، وبخاصة طلبة العراق، والمملكة العربية السعودية، وقد أحسن إلي كثيرًا وقربني من مجلسه في أول اشتغالي بالعلم، توفي عام ١٤٠٣ هـ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة» «المدخل ص ١٤٢- ١٤٣».

● وقال عن المرحوم محمد رشاد عبد المطلب: إنه قد «تعلم منه كثيرًا».

● وعند حديثه عن الشاعر المحقق حسن كامل الصيرفي يقول: «ولهذا الرجل فضلًا عليَّ سابغ» «مستقبل الثقافة العربية كتاب الهلال (مايو ٩٩ ص ٥٦)».

● ويقول عن فترة عمله في جامعه في جامعة أم القرى «إنهم أنزلوه آنذاك منزلًا كريمًا «منال الطالب في شرح طوال الغرائب ج ١ ص ٧، ٨، ٩) وشرح هذا في الهامش فقال: «حيث عوملت وظيفيًا تحت بند هناك يسمى «كفاءة نادرة» يعامل به الإنسان الذي أكرمه الله بشيء من العلم

معاملة «العالم» لا معاملة «حامل الشهادة العليا» [لاحظ تواضعه رحمه الله] وفي ظل هذا البند كان يعامل الأساتذة: محمد متولي الشعراوي ومحمد الغزالي والسيد أحمد صقر والسيد سابق ومحمد قطب».

● ثم يفيض وفاء وشهامة فيقول:

«ومن أمانة التاريخ، ومعرفة أقدار الناس أن أذكر هنا أصحاب الفضل في إرساء المبادئ العلمية الرفيعة: الشريف راشد الراجح، ومحمد بن سعد الرشيد...» ثم يذكر مجموعة من القياديين الذين أرسوا هذه المبادئ.

● وهو لا ينسى أن يذكر مذاكرته العلم مع زملائه له وطلاب كانوا يدرسون على يديه، ويرى في هذه المدارسة والمذاكرة فائدة للعالم قبل المتعلم.

يقول: «وكانت أيامًا زاكية مباركة قرأت فيها مع إخوتي الشباب هناك شيئًا من علوم العربية وقد أعطيتهم وأعطوني، أعطيتهم خبرة الأيام، وثمار مجالسة أهل العلم ومشافهتهم والرواية عنهم، وأعطوني حماسة الشباب وتوقده، بل إنهم فتحوا لي أبوابًا من النظر، ودلوني على فوائد من الكتب لم أكن أقف عليها لولا نظرهم ومناقشتهم، ولا زلت أقول: إننا حين نعلم ونخرج أبناءنا الطلبة إنما نقرأ معهم العلم مرة أخرى، بل ربما استفدنا منهم مثل الذي استفادوه منا، ولأمر ما كان التلميذ قديمًا يسمى «صاحبًا» لشيخه: فأبو يوسف ومحمد صاحبا أبي حنيفة، والربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، وابن جنى صاحب أبي علي الفارسي... وهلم جرا».

● ثم لا يترك هذا الموضع حتى يذكر في هامش الصفحة أسماء هؤلاء الشباب الذين أفادهم واستفاد منهم، ومنهم: عياد بن عيد الثبيتي، سليمان

بن إبراهيم العايد، عثمان بن حسين الصيني، عبد الرحمن بن سليمان العثيمين وغيرهم.

● ويحدثنا عن شيخه محمود شاكر فيقول: «كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل؟ ومن أين أبدأ، وكيف أمضي؟ والحديث عنك إنما هو عن تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة: عقيدة ولغة وفكرًا ورجالًا، وآمادًا رحبة متطاولة، لا يقدرها إلا أنت، ولا يعرف كنهها إلا أنت، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك، ماثل أمام عينيك، لم يغب عنك لحظة، فماذا أنا قائل فيك؟ وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك؟ ومعذرة ثم معذرة شيخي أبا فهر إذا أكتب عندك بهذه الوجازة التي تراها أراك الله الخير كله، ودلك عليه، ورغبك فيه.

ثم معذرة من بابة أخرى: وهو أن كثيرًا مما ستقرأه، إن شاء الله منتزع من كلامك، مدلول عليه بفكرك، فأنا إنما أكتب عنك بك، وأتقدم إليك بسابق فضلك وموصول علمك، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يعتذر منه إليك، وأيضًا فإنك كنت قد شجعتني على الكتابة عنك، حين أنبأتك ما أصابني من دوار أرضاني وأسخطني يوم خرجت إلى الناس بطبعتك الجديدة من كتابك الفذ «المتنبي» وحدثتنا في الجزء الأول منه، حديثًا غريبًا عجيبًا، عن فساد حياتنا الأدبية، وعن تفريغ عقولنا من كل ما يردنا إلى تاريخنا وأيامنا، وقلت لك يومها:

إني أريد أن أدل على ما ذكرت بما شاع في كتاباتك الأخرى، ما دق منها وما جل، وقد أذنت لي في الكتابة عنك، ويومها ما رأيت نفسي وأنا من أصغر تلاميذك، قد ظفرت بما فوق المنى» «مدخل إلى تاريخ نشر التراث ص ١٠٣».

● ومن العلماء الذين كان يحرص على الدعاء لهم الأستاذ عبد السلام

هارون وهو أستاذنا أيضًا تتلمذنا على يديه يَخْلَللهُ في كلية دار العلوم في الفترة من ١٩٦٥- ١٩٦٩ فيتحدث في معرض انتقاده لشيوع ظاهرة المختصرات لأمهات الكتب في أيامنا هذه والتي قام بها البعض فأساءوا بسبب ضعفهم العلمي إلى الأصول.

ويقول عنه وبعد أن قدم بحديث عن جهود الأساتذة عبد السلام هارون في خدمة التراث: «وخلاصة ما يقال في الأستاذ عبد السلام محمد هارون: أنه لم يخط أحد في التراث سطرًا إلا ولهذا الرجل عليه منة، وذلك أنك لا تكاد تجد قائمة مراجع تراثية إلا وفيها كتاب من تحقيقات شيخنا، حفظه الله».

معاناة عالم

سمها إن شئت ضريبة النجاح، أو قل: هي الابتلاء الواجب على كل عبقري فذ شهدته دنيا الناس، أتدري ما هي؟ إنها سهام المغرضين ورماح الطاعنين، وشنآن الحاسدين، يسوؤهم نجاحك وإن لم يفشلوا، ويسرهم فشلك وإن نجحوا، ولقد نال صاحبنا نصيبه الأوفي ونصابه المفروض من كل ذلك حين حيل بينه وبين ما يشتهي من التدريس في داره الأولى، ومنزلة القديم فيقول منفثًا لأحد أصحابه: «يا أخي العزيز لا تقلق علي ولا تنزعج فأنا بخير والحمد لله، والمرء حيث يرضى ويقنع، وأنا لم أفاجأ كثيرًا بصورة الإعراض والتنكر للجميل التي لقيتها في مصر. وأظنك لا زلت تذكر حين قلت لي إن مكانك رحب واسع في كل الجامعات المصرية. وكنت أرد عليك: «لا يا أبا الفتوح، لا تسرف في حسن الظن، فإنهم يقولون هنا ما لا يفعلون هناك، وإن الجيل الذي كان يعرفني قد مضى إما بالموت!!! وإما في زوايا النسيان وعدم القدرة على اتخاذ القرار.» ومع

كل فأنا في خير حال والحمد لله، وقراءة الكتاب، والتضلع بعلوم الأوائل هو شغلي الشاغل الآن، **وقد اكتشفت أني كنت في جهل عظيم جدًّا**، وقد فاتنا أشياء كثيرة يا شيخ فتحي، وأضعنا أوقاتًا كثيرة والله المستعان».

والرسالة طويلة يحكي فيها رحمه الله ما لقيه حين أراد أن يعيّن في كليته التي تخرج منها من حرب ضروس شرسة للحيلولة بينه وبين ما أراد. وكان أحد محبيه من حسني الظن بالناس هو الذي أغراه بذلك، وكان معنا في جامعة أم القرى معارًا من كليتهما التي تخرجا منها.. وهو زميل عزيز فاضل من أهل العلم الواسع والخلق الحسن، وقد بذل زملاء الفقيد حينئذ جهدهم المشكور، وسعيهم الدؤوب حتى صدر القرار من الكلية، ولكن يشاء ربك شيئًا، فقد تصدى للقرار عند مدير الجامعة نفر قليل وأشعلوها حربًا هوجاء وهم بحمد الله لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وللطناحي على بعضهم أيادٍ، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فكان لهم ما أرادوا، غفر الله لهم، وربك يفعل ما يشاء ويختار. تغمدك الله بواسع رحمته وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقبل أن أغادر مقام الحديث عن هذا العلم الأشم أثبت لك مقالة من مقالاته، يدافع فيها عن شيخه وأستاذه أبي فهر محمود محمد شاكر، وأنت إذا تاملتها جيدًا أدركت أنها تصور شخصية هذا الرجل الفذ تصويرًا دقيقًا للغاية يقول الطناحي تحت عنوان:

محمود محمد شاكر.. والسهام الطائشة

ما ترددت في اختيار عنوان لمقالة ما ترددت في عنوان هذه المقالة، فأنا حريص دائمًا أن يكون عنوان ما أكتب صريحًا في الدلالة على ما أريد، كاشفًا لما هو مطوي تحت لساني وما يدور في فكري. والذي أكتب فيه

اليوم مما زلزل نفسي وملأني غضبًا وغيظًا، فكان حقًا أن يكون عنوان المقالة دالًا على هذه الحالة النفسية الغاضبة وممهدًا لها.

وقد ترددت بين عدة عنوانات، منها: محمود شاكر والسيوف الكهام، وهي «السيوف الكليلة التي لا تقطع ولا تؤثر - ليس هذا بعشك فادرجي - إن بني عمك فيهم رماح - كناطح صخرة يومًا ليوهنها، ونحو ذلك من العنوانات التي يحمل عليها الغضب. والغضب - ونعوذ بالله منه - نار تأجج في الصدر، وإذا استبد بالمرء أعمى بصره وأكل قلبه وفرى كبده وأطلق لسانه، وقديما ما تعوذ الناس منه.

أما الذي أغضبني أيها القارئ الكريم فهو ما جاء في العدد الثاني من مجلة الجيل - نوفمبر ١٩٩٨م - من هجوم كاسح أكول على شيخ العربية وحارسها أبي فهر محمود محمد شاكر، برد الله مضجعه، والذي تولى كبر هذا الهجوم هو الأستاذ حسين أحمد أمين.

والأستاذ حسين هو ابن العلامة أحمد أمين، الذي يعد من أعلام النهضة الحديثة في الفكر العربي الإسلامي، وكانت مؤلفاته عن فجر الإسلام وضحاه وظهره منارات وصوى على طريق العلم والمعرفة، ورصدًا عظيمًا لمسيرتنا الفكرية، ثم كانت لجنة التأليف والترجمة والنشر التي أنشأها سنة ١٩١٤ م مع مجموعة من الشباب النابهين في ذلك الوقت: أمين مرسي قنديل، وعبد الحميد العبادي، ومحمد صبري أبو علم باشا، ومحمد عوض محمد، ومحمد بدران = كانت هذه اللجنة منارة علم ضخمة. فكان من حقه علينا أن نوقر تاريخه ونرعاه في احترام أولاده وأحفاده، وأيضًا فإن الأستاذ حسين من كتاب الهلال، فبهذه المنزلة يكون عتابنا وحديثنا للأستاذ حسين أحمد أمين. ونسأل الله العصمة من الخطأ والزلل.

والهجوم على محمود محمد شاكر بدأ غداة وفاته، وكان أول من نقب هذا النَّقب السيدة صافيناز كاظم، في كلمة لها بجريدة الدستور ٢٠/٨/ ١٩٩٧م أي بعد وفاة الشيخ بثلاثة عشر يومًا، وهي كلمة تقطر غضبًا، وتوشك أن تكون شماتة بالموت الذي هو غاية كل حي، وما أصدق الفرزدق:

وما نحن إلا مثلهم غير أننا أقمنا قليلًا بعدهم وتقدموا

وكنت حقيقًا أن أرد على الأستاذة صافيناز لولا أني رأيت ثورتها ترجع إلى مقابلة جافة من الشيخ لها، في يوم من أيام سنة ١٩٨٢، وبعض الكتاب الذين تتردد أسماؤهم كثيرًا في الصحف ووسائل الإعلام، يرون لأنفسهم حقًا على الناس، كل الناس أن يهشوا لهم وأن يستقبلوهم بكل ما وسعهم من أسباب الترحيب والبشاشة، وما أريد أن أستطرد في مناقشة الأستاذة صافيناز؛ لأني أرى في كتاباتها في السنوات الأخيرة وجوهًا من الخير ينبغي أن نستبقيها وأن نستزيد منها «إحنا ما صدقنا!»، لكني أحب أن أنشدها قول أبي العلاء:

لا تظلموا الموتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تلتقوا

ثم قول أبي العتاهية:

إلى الديَّان يوم العرض نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ونترك السيدة صافيناز لنأتي إلى صديقنا الأستاذ نسيم مجلى، فقد كتب بعد وفاة الشيخ كتابًا نشره بالأهالي، سمَّاه: **صدام الأصالة والمعاصرة محمود شاكر ولويس عوض**. وكان قد كتابًا كبيرًا في القضية نفسها، سمَّاه: «لويس عوض ومعاركه الأدبية»، وأهداه إلى الشيخ محمود في حياته، وكتب بخطه: «إلى الصديق الكبير الذي أحببته كثيرًا، واختلفت معه كثيرًا، وتعلمت منه الكثير، إلى الأستاذ محمود شاكر بطل هذه المعارك ومفجرها مع أجمل أمنياتي. نسيم مجلى ٦/١/١٩٩٥م».

فلمَّا غاب وجه محمود شاكر بالموت، رَتَعَ نسيم مجلي في لحمه، وإذا الذي كان همسًا صار صراخًا، والذي كان تلميحًا أضحى تصريحًا، وإذا الذي كان كلامًا في الحواشي بالبنط الصغير، قفز إلى المتن بالبنط الكبير، فكان هذا الكتاب الذي صدر عن الأهالي، وسأعود إليه في آخر المقالة.

لكني أعجب كل العجب من الأستاذ نسيم مجلي، فقد كنت أشهد استقبال الشيخ محمود له وحفاوته به وتوديعه له على باب المصعد، وقوله له: «ابقى تعال يا نسيم»، وهي كلمة حانية من الشيخ، لا يقولها إلا لمن يحبه ويوده، وياليته كان قد قالها للأستاذة صافيناز «وكنا خلصنا».

فها أنذا يا نسيم أنشدك قول أبي العلاء:

فيمنع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

ثم أترك الأستاذ نسيم لأصل إلى الأستاذ سمير غريب في كتابه الذي صدر أخيرًا عن دار الشروق بعنوان في «تاريخ الفنون الجميلة»، وفي (ص٧٩) منه ينقد مقالًا للأستاذ محمود شاكر، نشره في مجلة الرسالة، بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٠ م، وكان محمود شاكر يرد على الدكتور طه حسين كلمة له عن «الفن الفرعوني»، والأستاذ سمير غريب لم يشهد تلك الأيام، فكأن هذه المقالة الشاكرية التي قضى عليها (٥٨) عامًا قد دسَّت إليه دسًا للهجوم على الرجل. «لاحظ أن ما ذكره سمير غريب في كتابه ص ٨١، عن رأي محمود شاكر في الفن الفرعوني، هو نفس ما ذكره نسيم مجلي في ٥١ من كتابه. فنقول إذن ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن امرأة قالت ما لا يظن أن يكون منها: «أما والله ما قالته ولكن قُوِّلَتْه».

ثم إن الأستاذ سمير غريب لا يعرف فكر محمود شاكر وتوجهاته ورأيه

في الحضارات السابقة على الإسلام، بل هو لا يعرف لغته، والدليل على ذلك أنه وقف عند كلمة له واعتبرها غامضة، وهي قول الشيخ: «من أعظم الآثار الفنية التي يعدها الجيل الأوروبي» يقول الأستاذ سمير: «وتعبير الجيل الأوروبي هذا غامض». وأقول: ليس غامضًا، فالجيل في كلام العرب: هو الصنف من الناس، وقيل: الأمة، وقيل: كل قوم يختصون بلغةٍ: جيل. فبأي هذه المعاني أخذت يكون تأويل كلام الشيخ!

وما أريد أيضًا أن أستطرد في مناقشة الأستاذ سمير غريب، لكني ما كنت أحب له أن يتورط في تلك الظاهرة التي شاعت في زماننا الردئ، وهي ظاهرة التحرش بالناس وإغراء السفهاء بهم، وذلك قوله: «وخطورة كلام محمود شاكر هنا أنه يمكن أن يستند إليها المتطرفون دينيًا بغير تأمل ولا تفكير سليمين، وقد نادت به بالفعل جماعات الإرهاب باسم الدين في مصر بعد نشر كلام شاكر بحوالي خمسين عامًا».

والذي لا نعرفه يا أستاذ سمير أن محمود شاكر كان من أكثر الناس بغضًا لهذه الجماعات التي أشرت إليها، بل إن مواقفه ضد الإخوان المسلمين وكل الجماعات الإسلامية، مواقف معروفة غاضبة ومستنكرة، وكان يجهر بمواقفه هذه ولا يكتمها، وكذلك كان أخوه الأكبر محدث العصر الشيخ أحمد شاكر، ومقالته عقيب اغتيال محمود فهمي النقراشي مشهورة، وكان قد سمَّاها: «**قيد الإيمان الفتك**»، ونشرها على الناس، بجريدة الأساس، فاقرأوا التاريخ يا ناس! «وانتظروا آخر كلمة لي في هذا المقال، ففيها رفع لهذا الالتباس».

ثم أطوي الكلام لأفرغ إلى ما قاله الأستاذ حسين أحمد أمين، وقبل ذلك أحب أن أسأل: ما هذا يا قوم؟ أتهاجمون الرجل بعد أن غيَّبه القبر؟ لماذا لم تردُّوا على الشيخ كلامه في حياته؟ ما أظن إلا أنكم خفتم أن يأخذ بأكظامكم، ويأتيكم من فوقكم ومن أسفل منكم، فتزيغ أبصاركم كالذي

يغشى عليه من الموت، ثم يترككم فإذا أنتم ضحكة الضاحك وهزءة المستهزئ، فننشدكم قول طرفة بن العبد:

يالك من قُبَّرة بمعمر

خلا لك الجو فبيضي واصفري ... ونقِّري ما شئت أن تنقري
قد رحل الصياد عنك فأبشري ... ورفع الفخ فماذا تحذري

ثم ننشدكم أيضًا قول المهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليبًا الذي كان يضرب به المثل في العزة المتناهية، وكان من خبره أنه إذا حضر مجلسه الناس لا يجسر أحد أن يفخر أو يجاذب، إعظامًا لقدره وإجلالًا لشأنه، فلما مات قال المهلهل:

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستبَّ بعدك يا كليب المجلس
وتكلَّموا في أمر كل عظيمة ... لو كنت حاضرًا أمرهم لم ينبسوا

ومن وراء ذلك كله: فليس من النَّبالة والإنصاف أن تهاجم من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ويرد عليك قولك، وقد أمرنا ديننا في مثل هذه المواطن بالمكاشفة والمواجهة، يقول ربنا عز وجل يخاطب نبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قال أبو جعفر الطبري: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور أمار الغدر والخيانة منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر.

وجاء في حديث سلمان الفارسي الذي أخرجه الترمذي وأحمد: «**وإن أبيتم نابذناكم على سواء**» قال ابن الأثير: أي كاشفناكم وقاتلناكم على طريق مستقيم مستوٍ في العلم والمنابذة، منا ومنكم.

وهذا أوان الفحص عن أمر الأستاذ حسين أحمد أمين، وما كتبه

في حق شيخ العربية محمود شاكر:

وبدءة ذي بدء، فإني أقول للأستاذ حسين: لقد بنيت مقالتك هذه على إثر مقابلة مع الشيخ محمود لم تقع منك موقع الرضا، وكانت هذه المقابلة يوم ١٢ ديسمبر ١٩٨٣م، وإني لأعجب لك ومنك يا رجل: هذه خمسة عشر عامًا مجرَّمة - بتشديد الراء، أي تامة - منذ تلك الليلة التي أشعلتك نارًا، وأنت لا زلت طاويًا صدرك على هذه الحسيكة، فأي صبر على الكريهة هذا؟ وأي حمل ثقيل حملته وظللت تدور به حالًا ومرتحلًا طوال هذه السنوات الطِّوال التي يمحو الله فيها ما يشاء ويثبت.

ويحضرني الآن شاهد من الشعر وصورة من التشبيه، ولكني أمسك عنهما؛ صونًا لنفسي من الزلل، واستمساكًا بأصول أخلاقية ألزمت بها نفسي منذ أن عرفت طريقي للكتابة والمذاكرة والمحاضرة. وأنا أنشد لنفسي دائمًا قول ابن فرج الجياني الأندلسي:

فملَّكتُ النُّهى جَمَحَاتِ أمري   لأجريَ في العفاف على طباعي

يقول: جعلت عقلي حاكمًا على نفسي، كابحًا لجماح الهوى والخطأ، لكي أستمر على ما طُبعت عليه من العفة والشرف.

ثم إني علمت أنك كنت أعددت هذه المقالة في حينها، ودفعت بها إلى مجلة الهلال، ولكن الأستاذ/ مصطفى نبيل رفض نشرها، مع أن مصطفى نبيل من رؤساء التحرير الذين ينظرون إلى المكتوب لا إلى الكاتب، وهو أيضًا يفتح كل النوافذ، ولا يتعصب لاتجاه لحساب اتجاه، فما أعرض عن مقالتك إلا لما وجد فيه من انحراف وضلال، كما قالت العرب في كلامها الحكيم: «**لو كان خيرًا ما تركوه**». وكأني بك يا أستاذ حسين تنشد مصطفى نبيل قول أبي الأسود الدؤلي يعاتب الحصين بن الحر العنبري، وكان أبو الأسود قد أرسل له كتابًا يستجديه فأهمله، فقال أبو الأسود:

نـظـرْتَ إلـى عُـنـوانـه فَـنـبـذْتَـهُ   كَنَبْذِكَ نعلًا أَخْلَقْت من نِعالكا

[أخلقت: أي بليت وتقادم عليها عهد].

وأول ما أبدأ به أن أقول: إن ما حدث للأستاذ حسين، ومن قبله للسيدة صافيناز، من جفاف مقابلة الشيخ محمود شاكر، إنما هو ما أسميه: صدمة اللقاء الأول. فمحمود شاكر يحب أن يعجم عود من يزوره أول مرة، وهل يصبر على تكاليف العلم، وأعباء التلقي والسماع، أم هو إنسان جاء «يتفرج على هذه القعدة» ويرى بعض الشخصيات، ثم يخرج إلى الناس ويقول: إني حضرت ندوة محمود شاكر، كهؤلاء الذين يقولون: إننا من تلاميذ العقاد، لأننا كنا نحرص على حضور ندوته، ويعلم الله أنه ما كان يلقي إلى كثير منهم بالًا.

ومحمود شاكر ليس عنده وقت يضيعه في المجاملة والمصانعة. وهذا شيء عرفناه منه، يهاجم في اللقاء الأول هجومًا شرسًا، فإذا رأى الذي أمامه حريصًا على العلم راغبًا فيه أقبل عليه واستمسك به وشدَّ عليه يد الضنانة. وفي محنة هذا اللقاء الأول ثبت من ثبت محسنًا في ثباته، ونكص من نكص مسيئًا في نكوصه. ولو أنهم صبروا حتى يطمئن إليهم لكان خيرًا لهم.

على أنه مما يزيد في محنة اللقاء الأول أن يكون لهذا الزائر الوافد الجديد صورة سابقة عند الشيخ محمود، كأن يكون منتميًا إلى اتجاه معين، أو يكون قد كتب شيئًا لم يعجب الشيخ.

وسآخذ في مناقشتك الآن يا أستاذ حسين، وسأترك الحديث عن الشتائم التي وجهتها للشيخ، إلى آخر المقالة، حتى تكون آخر ما يذكره القارئ من أمرك.

أولًا قلت: إن مفتاح شخصية محمود شاكر يمكن في إحساسه العميق

بالفشل، وفي شعوره بأن حياته قد ضاعت سدى.

أي فشل يا أستاذ وأي ضياع؟ إن الذي يعرف محمود شاكر عن قرب لا يحس شيئًا من ذلك. وقد عرفت هذا الرجل معرفة وثيقة خلال ثلاثين عامًا، وخبرت سواده وبياضه، وكاشفني بذات نفسه ودخيلة أمره وتقلبه في العالمين، وقد رأيت إنسانًا سويًا واضحاَ مكشوفًا، لا يداري ولا يماري، يصرح ولا يكني، ينطق ولا يجمجم، باطنه وظاهره سواء، وهو سعيد منشرح مقبل على الحياة، يستمتع بطيباتها إذا أقبلت، ولا يحفل بها إذا أدبرت، وينعم بما أفاء الله عليه من مكتبة ضخمة عامرة، لم تتيسر لأحد من علماء عصرنا، قرأها كلها قراءة كتاب واحد، بذلك العقل الذكي الذي يجمع كل شاذَّة وفاذَّة، ثم هو سعيد أيضًا بالقلوب التي تجمعت حوله، طوائف من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات، وسعهم هذا البيت الكبير، الذي لم يعرف الرسميات فلم يُفتح لهم ساعة دون ساعة.

وقد وصفت كثيرًا مجلس محمود شاكر وما ضمّ من فئات الناس، ونقلت وصف الأديب الكبير فتحي رضوان له، وهو قوله: «كان بيته ندوة متصلة لا تنفض من أعضائها الثابتين: يحيى حقي إذا حضر من أوروبا، وعبد الرحمن بدوي، وحسين ذو الفقار صبري، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن من حظي أن أكون عضوًا دائمًا فيها، فقد كنت ألمّ بهم أحيانًا، فأراهم وأرى من العالم العربي كله، ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، في الزي والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبًا من هذه الندوة أحسست بسعادة غامرة، أن يبقى ركن في بلدي كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها أو

يعرف عنها شيئًا في مكان آخر». انتهى كلام الأستاذ فتحي رضوان.

ومن الحقائق التي لا تُدفع أنه لم يحظ أحد من الأدباء المعاصرين الكبار، الذين تقام لهم الموالد ما بين الحين والحين، بمعشار ما حظي به محمود شاكر من التلاميذ والمريدين الذين صار كثير منهم رؤوسًا ببلادهم ومواقعهم.

أما هذه الحدة التي في طبع الشيخ - -ونحن - نعترف بها- فليست نتيجة الإحساس بالفشل، أو ضياع الحياة سدى. هذه الحِدَّة يا سيدي جاءت نتيجة لإدراك الرجل لمأساة هذه الأمة العربية التي ورثت مجدًا شامخًا أضاعه الورثة من أبنائها.

وقد تنبه الرجل منذ طراءة الصبا وأوائل الشباب إلى محنة أمته العربية، في قطع صلتها بموروثها العظيم، ثم وقوعها في حبائل العدو، ينهش في عظمها ويُحكم الغُلَّ في أيديها، فسارت حياته في طريقين استويا عنده استواء واضحًا:

الأول: العلم والمعرفة يعب منهما عبًا، ويغُري الناس بهما إغراءً.

والطريق الثاني: التنبه الشديد لما يحاك لأمتنا العربية من كيد ومكر، وقد حارب في سبيل كشف ذلك وتعريته في جبهات كثيرة، مما فصلتُه في غير موضع من كتاباتي.

وقد أورثه شعوره بذلك الهم الكبير حدَّة في الطبع، وشراسة في الخطاب.

والحدة: إذا كان هذا هو مبعثها ومحرِّكها لم تكن مذمومة، فقد جاء في الحديث «**الحدة تعتري خيار أمتي**»، قال ابن الأثير: «الحدة كالنشاط والسرعة في الأمور والمضاء فيها، مأخوذ من حد السيف، والمراد بالحدة

هاهنا: المضاء في الدين والصلابة والقصد في الخير، ومنه الحديث: «**خيار أمتي أحِدَّاؤها**»، وهو مرجع حديد، كشديد وأشداء.

وقد تحدثت يا أستاذ حسين عن قلة إنتاج الرجل، مع هذه الشهرة العريضة والقراءة والثقافة التي لم يُحصِّل طه حسين جزءًا من المائة منها، وقد صدقت في هذا، لكنك لم تصدق في ذلك السياق كله، فقد ذكرت أنه مع شهرته لم يترك غير كتاب عادي عن المتنبي، وديوان شعر هزيل ضحل، ثم تحقيق لبعض كتب التراث. وهذا كله باطل:

فكتابه عن المتنبي ليس كتابًا عاديًا، فقد عرض فيه لقضايا ثلاث، لم يكشف القول فيها غيره، ولم يحسم الحكم فيها سواه: نسب المتنبي - حبه لخوله أخت سيف الدولة - ترتيب القسم الثاني من شعر المتنبي على السِّنين.

وقولك: «ديوان شعر هزيل ضحل» ليس لمحمود شاكر ديوان شعر مجموع، وإن كان له شعر معروف، أذاعه من قديم وطرب له الناس. ولعلك تقصد «القوس العذراء»، وهي قصيدة طويلة مستوحاة من قصيدة للشمَّاخ، وهذه «القوس العذراء» من عيون الشعر العربي، وقد هزت الدنيا وشغلت الأدباء، وكتب عنها كبار الأدباء: إحسان عباس، ومحمد مصطفى هدَّارة، ومحمد أبو موسى. ثم كتب عنها المفكر والأديب الكبير زكي نجيب محمود، ولا شك أنك تعرفه حق المعرفة، لأن له مع والدك تاريخًا قد يسوؤك بعضه!.

وكلمة زكي نجيب محمود عن «القوس العذراء» كلمة عالية جدًا، وقد أذاعها في مجلة الكتاب العربي (أغسطس ١٩٦٥م)، قال في أولها: «درة ساطعة هذه بين الدرر، وآية هذه من الفن محكمة من آيات الفن المحكمات».

وقال في آخرها: «وإني لأستأذن أديبنا شاكر في أن أهدي آيته هذه إلى شعراء اليوم ليروا بآذانهم وليسمعوا بعيونهم؛ إذا كانت للآذان رؤية، وإذا كان للعيون سمع، كيف يكون الفن الشعري صياغة وارتفاعًا في دنيا القيم من حضيض إلى أوج».

ثم إن قولك: «تحقيق بعض كتب التراث»، يدل على عدم معرفتك، أتسمِّي تحقيق ستة عشر جزءًا من «تفسير الطبري»، وستة أجزاء من «تهذيب الآثار» له، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وكلاهما لعبد القاهر الجرجاني، والمكافأة وحسن العقبى لابن الداية الكاتب، وفضل العطاء على العُسر لأبي هلال العسكري، وإمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي، وكتاب الوحشيات لأبي تمام، وجمهرة نسب قريش، وأخبارها للزبير بن بكار. أتسمي ذلك كله بعض كتب التراث؟.

وإن في بعض حواشيه على هذه الكتب ما يعد علامات ضخمة في طريق الفكر العربي الإسلامي. ولو كنت مُهيأ لإدراك مرامي هذه التعليقات لدللتك عليها. ثم انظر القائمة الببليوجرافية التي أصدرها المجلس الأعلى للثقافة ودار الكتب المصرية بذكرى الأربعين لوفاته وسترى فيها رصدًا جيدًا لإنتاج محمود شاكر منذ سنة (١٩٢٦م) إلى سنة (١٩٩٧م)، وهي السنة التي توفي فيها.

وإذا كنت ترى أن هذا الإنتاج كله قليل بالنسبة لرجل في مثل قامة محمود شاكر: فإن أثر العالم لا يقاس بكثرة إنتاجه، ففي تاريخنا التراثي أعلام احتلوا مكانة عالية بكتاب واحد أو كتابين ليس غير، فسيبويه إمام النحاة ليس له إلا «الكتاب»، وليس لابن سلاَّم إلا «طبقات فحول الشعراء»، والقرشي ليس له إلا «جمهرة أشعار العرب»، وابن عبد ربه ليس له إلا «العقد الفريد»، وابن خلكان ليس له إلا «الوفيات»، وليس لأبي الفرج

الأصبهاني إلا «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين».

وفي عصرنا الحديث لم يترك الأستاذ أمين الخولي من الكتب ما يجاوز أصابع اليد الواحدة، ومع ذلك فإن تلاميذه يرونه رأسًا في المنهج، وأنه فتح لهم أبوابًا من النظر والتأمل لم يفتحها غيره.

ويتبع وصف محمود شاكر بالحِدَّة وصفه بالتعالي والاعتداد بالنفس وحب الثناء. وهذه القضية ينبغي أن تعالج في هذا الإطار.

العلماء الكبار حين يرون أن الله قد وهبهم ما لم يهبه لغيرهم، يرتفعون بأنفسهم عما حولهم، وفي بعض اللحظات يرون أن من عداهم لا وزن لهم. رُوي أن إبراهيم بن المهدي، وهو أخو هارون الرشيد، وكان حاذقًا بالغناء، اختلف هو وإسحاق الموصلي -وكان أيضًا من أساطين الغناء والموسيقى- اختلفا في صوت، فقال إبراهيم لإسحاق: «إلى من نتحاكم والناس من عدانا بهائم؟».

وقال الأصمعي: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول - ولم يقله إن شاء الله بغيًا ولا تطاولًا-: «ما رأيت أحدًا قط أعلم مني».

على أنحب الثناء مركوز في الطباع، ثابت في أصل الخِلقة. قال أبو حيان التوحيدي: «ومن لم يرغب في الثناء فقد رغب عن ملة إبراهيم؛ لأن الله تعالى أخبر أنه سأل ذلك فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]، ولسان الصدق: هو الثناء الحسن.

وإذا بلغ الكبار هذا المبلغ من سعة العلم وغزارة المعرفة كان حقيقًا على الناس أن يُوسعوا لهم في المعذرة، وأن يتغمدوا أخطاءهم.

ذكر الحافظ في ترجمة التابعي الجليل «قتادة بن دِعامة السَّدوسي» أنه كان يرى القول بالقدر، وهي مقالة منكورة عند أهل السنة والجماعة، ثم

عقَّب الذهبي على ذلك، فقال في كتاب «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٧١): «ثم إن الكبير من أهل العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحرِّيه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحُه وورعه واتِّباعُه، يُغفر له زلله، ولا نضلِّله ونطرحه وننسى محاسنه». وهذا كلام عال نفيس في تأصيل موضوعية النقد ورحابة الصدر العلمي، والإنصاف في تغليب الإيجابي على السلبي في الحكم على الرجال، على حقد قول زفر بن الحارث:

أيذهب يومٌ واحدٌ إن أسأتُه ... بصالح أيامي وحُسن بلائيا

وقول المتنبي:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدًا ... فأفعاله اللائي سررن ألوفُ

وقول الآخر:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ ... جاءت محاسنُه بألف شفيع

وهكذا ينبغي أن يُنظر إلى محمود شاكر، أنه من هذا الطراز؛ رجل حصَّل من العلم ما لم يحصله غيره، وجمع من الكتب ما لم يجمعه سواه، وقرأ قراءة ما أطاقها أحد من جيله، ثم إنه راعه ما رأى فيه الأمة من جهل وتأخر، وفزع من قضية انتحال الشعر الجاهلي، واهتاج لما رآه من محاولة اغتيال تاريخ الأمة العربية، في علومها ومعارفها كلها، وطمس معالم حضارتها، ولم تكن المسالة عند الرجل من باب التوهم والظنون، والتماس المعابة عند الآخرين، فقد قامت دلائلها عنده واضحة جلية، ثم أثبتت الأيام صدقها فيما بعد.

وحين ظهرت أمامه صدع بالحق وكشف العلة، وحطَّم الأغلال، ولم يبال بمن يقع عليه مِعْوله، قديمًا كان أو حديثًا، من أبناء دينه أو من غيرهم، وكثير من الناس الذين يأخذون الأمور من أيسر طرقها يرون أن محمود شاكر قد حارب طه حسين وسلامه موسى ولويس عوض ليس غير؛ وهذا

غير صحيح؛ فإن محمود شاكر وهو بسبيل تصحيح النظر إلى تراث هذه الأمة، ثم الدفاع عنه، تناول أعلامًا كبارًا من المتقدمين بنقود قاسية جدًا، وفي هذا الطريق نقد الجاحظ والمرزوقي والتبريزي، بل إنه نقد الإمام الجليل أبا بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» الذي يراه أهل العلم رأسًا في هذا الباب، ونقد من قبله المتكلمين المسلمين، وبخاصة المعتزلة، في قضية إعجاز القرآن، وكان يرى أن المعتزلة قد خدعوا الناس بمقولاتهم العقلية، بل رأيناه هو يقسو على نفسه كثيرًا إذا زلَّ في فهم، أو غاب عنه وجه الصواب، ومن أمثلة ذلك استدراكاته على تحقيقاته التي يثبتها في آخر الكتاب، أو في الطبعة التالية، وهذه نماذج من تلك الاستدراكات التي شدد فيها على نفسه هو، وقد اخترتها من تحقيقه لكتاب جمهرة نسب قريش، للزبير بن بكار.

● يقول: «وقد أسأت أشدّ الإساءة في الحاشية رقم [٣] وينبغي طمس هذه الحاشية».

● ويقول عن شيء من تفسيره، وظهر له خطأه: «وفسَّرتُه متعجِّلًا»، ويقول في موضع ثالث: «وهو سهوٌ مني شديد».

● ويقول في مستدركات تحقيق طبقات فحول الشعراء: «عجلتُ فتلك ما قاله ياقوت، فأخطأت خطأ لا شك فيه، فلا أدري كيف تهاوى فيه ياقوت؟».

نحن إذن أمام رجل يتحرّى الصواب، ويروم الصدق، وقد التزم جانب المكاشفة والمصارحة، وترك التجمُّل والتكلف والمصانعة، ويعلم الله أننا لو رُزقنا بضعة رجال من طراز محمود شاكر لكان الحال غير الحال!.

ثم ذكرت يا أستاذ حسين ثورة الشيخ محمود على الأفغاني والشيخ محمد عبده، وقد غاب عنك أن الذي يقوله الشيخ في هذين الرجلين هو

رأي كثير من الناس، من قبل محمود شاكر ومن بعده، ولقد أطلعنا الأديب المثقف الرقيق علي شلش ﷺ، قبل وفاته بأيام، في بيت محمود شاكر، على وثائق خطيرة تدين الأفغاني، وتحقق رأي الناس فيه. أما الشيخ محمد عبده، فقد عابه كثير من الناس أيضًا لصلته بكرومر، وقصر الملك، ومن هؤلاء المفكر الكبير علي سامي النشار، وقد سجل ذلك في كتاب منشور، وقد درسناه عليه في أيام الطلب.

ثم ما كان يصح يا أستاذ حسين أن توقع الدسيسة بين الشيخ محمود، وهذا النَّفَر الكريم من الباحثين: الدكتور محمد عمارة، والأستاذ فهمي هويدي، وقد كنت كثير الملازمة للشيخ، وما أذكر أنه عرض بسوء لأي من الرجلين الجادين، ولقد يكون رأيه في محمد عمارة سيئًا أيام أن كان عمارة يقف في الجانب الغربي، فلما أذن الله له بالفرج والانعتاق، وانتقل إلى شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، ثم نَسِيَ ما كان يدعو إليه من قبل، رضي عنه محمود شاكر، وكذلك كنا نحن أيضًا: أعرضنا عن محمد عمارة يوم أن كان لويس عوض يفسح له صفحة كاملة في جريدة الأهرام في الستينات، والآن نحبُّه ونحرص على ما يكتب ونوصي بقراءته.

على أن محمد عمارة كان من أكثر الناس إجلالًا لمحمود شاكر، وإن لم يغش مجلسه، وكثير من المفكرين كانوا يحبون محمود شاكر غاية الحب، ولكنهم لا يغشون مجلسه، كأنهم يشفقون من الحدة إياها، وأذكر من كبار هؤلاء المحبين المعرضين: محمد سليم العوا وطارق البشري. وأشير هنا إلى أن محمد عمارة قد أسرع إلى مسجد عمر مكرم ليقدم واجب العزاء في الشيخ محمود، وإن لم يعرف أحدًا من أسرته، وقد شدّ على يديّ معزِّيًا، وقال لي: البركة فيك يا محمود، وهي كلمة ذات دلالة. فكأنه يقول: إننا نريد لفكر محمود شاكر أن يستمر، ولطريقه أن يظل مسلوكًا.

وكأنك يا أستاذ حسين حين ذكرت اسم محمد عمارة وأقحمته إقحامًا

وزجرت به زجًّا، إنما أردت أن تستدرج الرجل ليعفو عنك ويمحو في طبعة قادمة، ما دمغك به في كتابه «الجيد»: الإسلام بين التنوير والتزوير، الذي صدر عن دار الشروق سنة (١٩٩٥م)، فقد عقد فصلًا عنك، سمَّاه: «الهزل وغيبة العدالة في تناول الإسلام»، وقد وصفك في هذا الفصل بأنك من الذين يزعمون أنهم مجتهدون في الإسلام، ومجددون في فكره، مع افتقادهم وافتقارهم للحدود الدنيا من دراية العلم وعدالة العلماء، بل ومع اتصافهم بقدر من سوء النية في عرض قضايا الإسلام.

وقد ذكر محمد عمارة في حواشي هذا الفصل أنه التقاك «الأفصح والأكثر: لقيك»، وقد لقينا من كلام حسين أحمد أمين نَصَبًا!» في مكتبة دار الشروق بحضور صاحبها الأستاذ إبراهيم المعلم، وسألك عما سقطت فيه من الهجوم على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال لك: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن أشكك في كل شيء!.

وأقول: إن من حق محمد عمارة - -بعد أن كتب فيك ما كتب وقرأ كلامك اليوم- أن يُنشدك ونحن أيضًا نُنشدك معه، قول الفرزدق يهجو جديع بن سعد الأزدي:

لا تحسبنَّ دراهما أَعطَيْتَها تمحُو مَخَازيك التي بِعُمان

فماذا تنتظر يا أستاذ حسين من محمود شاكر، ثم من غيره ممن يحترمون تاريخهم ويوقّرون رجالهم، ماذا تنتظر منهم بعد أن أهنت الوارث الموروث؟

وليس يصح لك أن تستنصر باسم والداك العظيم رحمه الله، فهو كان على الجادة، أقام للحضارة العربية صرحًا شامخًا، وأنت انحرفت عن الطريق، وأخذت تضرب في هذا الصرح، ولكن من نِعَم الله أن جعل مِعْولك ضعيفًا، كما جعل كيد الشيطان ضعيفًا، فما ينفعك شيئًا، كلما

حزبك أمر أن تفزع إلى اسم أبيك، فلن يجزي والد عن ولده شيئًا، ولو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد ﷺ يدها.

وبما أنك قد سببت واحدًا من الصحابة الأكرمين، ولم يفعلها أبوك، فإننا ننشدك قول الأعشى:

كلا أبويكم فرعًا دِعامةً ... ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصًا.

ثم أنشدك قول الآخر (وقد أعجلتني عن أن أنسبه لك):

إن القديم إذا ما ضاع آخره ... كساعدٍ فلّه الأيامُ محطومُ

ثم أنشدك -وهو أخفُّ الشواهد عليك إن شاء الله- قول أبي تمام:

وابن الكريم مطالبٌ بقديمه ... غَلِقٌ وصافي العيش لابن الزُّمَّلِ

وأخيرًا أترحم على والدك العظيم، ثم أنشدك وأنشده قول جرير يخاطب الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز:

تزود مثل زاد أبيك فينا ... فنعم الزادُ زادُ أبيك زادا

ثم إنك غضبت من الشيخ محمود لأنه ذكر أمامك رأيًا في والدك لم يقع منك موقع الرضا، فاعلم أن ليس محمود شاكر أول من أبدى رأيًا غير طيب في والدك، فالعقاد فعل ذلك، وأظنك لم تنس كتاب زكي مبارك «جناية أحمد أمين على الأدب العربي»، وأذكر أن أساتذتنا في أيام الطلب كانوا يكثرون من نقد كتب أبيك في عصور الإسلام، كلٌّ في مجال تخصصه، ومن هؤلاء العالم الكبير الدكتور ضياء الدين الريس في كتابه الماتع: «النظريات السياسية الإسلامية»، وأنت الذي أصررت أن تستخرج رأي محمود شاكر في أبيك، وقد ذكرت أنك كلما ألححت عليه في الطلب قال لك «فَوِّتْ»، وكأنه رحمه الله كان يريد أن يقول ما قالته العرب قديمًا «اعفُ من ذي قبر» ثم أما بعد:

فيا أستاذ حسين أحمد أمين: لقد وصفت شيخ العربية وحارسها محمود محمد شاكر على لسان الحاج وهبه، وقد برئ منه في العدد الرابع من الجيل، فصار الكلام خالصًا لك، وخارجًا من كيسك وحدك- وصفت الشيخ بأنه فظ فظ فظ، وأنه يدور كالثور الهائج يهاجم ويطعن ويسب ويلعن. فأتيت بذلك منكرًا من القول وزورًا، ولقد أهنت الأمة العربية كلها في شخص علَم كبير من أعلامها، ورأس ضخم من رؤوسها، وهذه الإهانة لا يُعتذر عنها، ولا تسقط بالتقادم، وقد قال أبو الطيب الصعلوكي - -من فقهاء الشافعية في القرن الرابع-: **«عقوق الوالدين يمحوها الاستغفار وعقوق الأستاذين لا يمحوها شيء»**.

ولقد كان محمود محمد شاكر أستاذ الأستاذين. فيجب عليك أن تبرأ من هذا الكلام وتخرج من عُهدته، ثم تتوب إلى ربك وتستغفره بعد أن تغسل فمك سبع مرات إحداهن بالتراب، ليطهر من هذه البذاءات التي خرجت منه.

وعلى المستوى الشخصي فقد أدميت قلبي، وأوجعت ظهري، فلساني لا يطاوعني أن أقول لك ما يقوله بعض الناس في مثل هذه المواقف: سامحك الله، أو غفر الله لك، ولكني أدعو عليك بأن يُسخن الله عينك، وأن يُقيِّض لك من يكوي منك الرأس والدماغ، ولا يمنعني من الاسترسال في الدعاء عليك إلا حديثه ﷺ: **«لا تُبردوا عن الظالم»**، أي لا تشتموه وتدعوا عليه، فتخففوا عنه من عقوبة ذنبه. وقوله لعائشة رضي الله عنها وقد سمعها تدعو على سارقٍ سرقها، فقال: **«لا تُسبخي عنه بدعائك عليه»**. أي لا تخففي عنه الإثم الذي استحقه بالسرقة.

ولو قام تلاميذ محمود شاكر -وهم كُثُر في الشرق والغرب - بِرَدِّ

شتائمك عليك وبسط ألسنتهم بالسوء فيك، ما كان عليهم لوم ولا تثريب، ولا تجزع ولا تفزع من فعلهم، فأنت البادئ وأنت المعتدي، وقد قال أبو ذؤيب الهذلي:

لا تجزعن من سُنَّةٍ أنت سرتها   فأول راضي سُنة من يسيرها

وإذا كنت قد وصفت شيخنا بأنه يدور كالثور الهائج -وهذه عظيمة من العظائم- فإني أنشدك أيضًا لأبي ذؤيب، من القصيدة نفسها:

فلا تك كالثور الذي دُفنت له   حديدةُ حتفٍ ثم ظلَّ يُثيرها

وصدق الله العظيم: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ [الشورى: ٤١].

وكنت قد نقلت من قبل كلمة الأستاذ سمير غريب، أن ما قاله محمود شاكر في الفن الفرعوني «يمكن أن يستند إليه المتطرفون دينيًا». وهذا كله باطل من القول يأخذ بعضه برقاب بعض، فمحمود شاكر لم يكن يومًا متطرفًا، ولا محاربًا للعقل، وإنما هو رجل مؤمن بتاريخ أمته، وفيٌّ لثقافتها، مدرك لعبقريتها، يسوؤه ما تردت فيه من أسباب الضعف والتفكك، وفي سبيل دفاعه عن تاريخ أمته وعلومه ومعارفها خاض معارك كثيرة، وقد خاضها وحده غير متحيز إلى فئة ولا منتصر بجماعة، ولم يكن من بين من حاربهم إلا مسيحيٌّ واحد، وهو لويس عوض، ومن وراء لويس عوض كان من الذين صارعهم محمود شاكر واشتد في حربهم: طه حسين، وعبد العزيز فهمي، وسيد قطب، بل إن موقفه العنيف من الشيخ حسن البنا وجماعة الإخوان المسلمين معروف مذكور، وكان عنيفًا جدًا مع حسن البنا وجماعته، وهو ما كان يأخذه عليه كثير من المسلمين، وما أريد أن أستطرد في هذه القضية فلها مكان آخر.

رحمك الله يا أبا فهر ونوَّر قبرك، وجعل كل ما قدمته لأمتك، ولتاريخها وللغتها في موازينك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير مُحضرًا، وقطع عنك ألسنة المكذِّبين وادعاءات المبطلين، وما أحراك أن تُنشد هؤلاء قول الشريف الرضي:

وإن مقام مثلي في الأعادي ... مقام البدر تنبحه الكلاب
رمَوني بالعيوب ملفقاتٍ ... وقد علموا بأني لا أُعابُ
وأني لا تُدنِّسني المخازي ... وأني لا يروعني السِّبابُ
ولما لم يُلاقوا فيَّ عيبًا ... كَسوني من عيوبهم وعابُوا

وقد ادخرت نصين من كلام محمود شاكر يدينان هذه النابتة التي نبتت في أرض بلادنا وتسمَّت بالجماعات الإسلامية. وهذان النصان يكشفان عن توجه محمود شاكر الفكري وإدانته لطائفة من أبناء دينه، بعيدًا عن لويس عوض والمسيحية وسائر ما يدمغه به القوم.

يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مقدمة تحقيق أسرار البلاغة: «بل بلغت الاستهانة مبلغها في الدين، بعدما نشأ ما يُسمُّونه بالجماعات الإسلامية، فيتكلم متكلمهم في القرآن وفي الحديث بألفاظ حفظها عن شيوخه، لا يدري ما هي، ولا يرد بل يكذب أحاديث البخاري ومسلم بأنها من أحاديث الآحاد، بجرأة وغطرسة!.

بل جاء بعدهم أطفال الجماعات الإسلامية، فيقول في القرآن والحديث والفقه بما شاء هو، ويرد ما قاله مالك وأبو حنيفة والشافعي وابن حنبل، ويقول: نحن رجال وهم رجال! بل تعدى ذلك إلى صحابة رسول الله ﷺ بهذا اللفظ نفسه، فيقول: نحن رجال وهم رجال!.

أي بلاء حدث في زماننا هذا؟ إنما هو وباء الاستهانة بكل شيء، وباء

تفشى في مصر، بل تجاوزها، ورحم الله أبا العلاء المعري، وذكر وباء نزل بمصر وغيرها فقال:

ما خَصَّ مصر وبأ وحدَها بل كائن في كل أرضٍ وبأ

انطفأ سراج العلم، وسراج الخُلُق، وبقيت العقول في ظلمات بعضها فوق بعض. أيُّ نكبة نزلت بعلوم هذه الأمة العربية الإسلامية على يد الصغار في حقيقتهم، الكبار في مراتبهم التي أنزلتهم إياها تصاريف الزمان، فأطلقوا ألسنتهم في مواريث أربعة عشر قرنًا، بالاستهانة والقدح والازدراء».

وبعد:

فلئن كان الأستاذ حسين أحمد أمين قد أغضبنا في أول الأمر، فإننا نشكره في آخره؛ لأنه فتح لنا أبوابًا من القول، كشفت شيئًا من منهج شيخنا محمود محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولا زلنا ننتظر من الأستاذ حسين أن يبرأ من ذلك الكلام الذي قاله في حق شيخنا، ويعتذر عنه، وساعتها سنفرح ببراءة ساحته وخلوّ ذِمته؛ لأننا لا نحب أن نطوي صدورنا على مَوْجِدَة لأحد.

والحمد لله الذي لا موهبة إلا منه، ولا بلوى إلا بقضائه، ولا مَفْزَع إلا إليه، ولا يُسر إلا فيما يسرَّه، ولا مصلحة إلا فيما قَدَّره، له الحكم وإليه المصير، يحكم بين عباده وهو اللطيف الخبير.

وصلَّى الله على سيدنا محمد رسوله المبعوث، إلى الوارث والموروث.

[انظر: «محمود الطناحي ذكرى لن تغيب» إعداد محمد محمود الطناحي، و«مقالات الطناحي» (ص٦٠٨ - ٦٣٢)].

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
ديباجة الكتاب	٣
١- الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ	٧
تواضع وبغض للثناء	٧
علمه بالعربية	٧
من كانت له بداية محرقة فستكون له نهاية مشرقة	٨
ورع وعقل	٩
تقدير الشيخ للعلماء والمشايخ والدعاة والقضاة	١٠
منهجه في التدريس	١١
قلب نقي	٢٣
شجاعة آسرة	٢٤
استخفاء بالعمل	٢٥
إنما العلم الخشية	٢٦
من فتاواه وفوائده	٢٧
من أحاديثه	٣٤
٢- الشيخ العلامة أبو الأشبال أحمد محمد شاكر	٣٧
كلمة الحق	٤٣
الجزاء الأوفى	٤٨
ومضات من سلوك الشيخ وسيرته	٥١
٣- الشيخ العلامة محمد الخضر حسين	٥٩
ترجمته في سطور	٥٩
محمد الخضر حسين في آثاره العلمية	٦١
٤- الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي	٧٩
نفس تواقة للعلم	٧٩
شرف الخرطوم	٨٠
يا لها من ليلة ويا له من ورع	٨١
الفقيه الأصولي اللغوي المفسر يتجافى عن الفتيا، فلا نامت أعين المتجرئين	٨٢
زهده وورعه	٨٣
٥- سماحة الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي	٨٧

رفقه بالطلاب ٨٧
صبر جميل ٨٩
طرائف ٩١
بصيرة نافذة ٩٢
هم المناظر ٩٣
قصة داعية ٩٣
٦- الشيخ العلامة أحمد بن عيسى النجدي ٩٧
ثمار الدعوة ٩٧
حكمة وفطانة ٩٩
٧- العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٠٠
ترجمته في سطور ١٠٠
من صور أدبه العالي مع المخالف ١٠٥
نصيحة مهمة لكل معلم يشتكي كسل طلبته ١٠٦
التثبت من الأخبار ١٠٧
٨- الشيخ العلامة حافظ حكمي ١١٠
وقائع تدل على سرعة حفظ الشيخ حافظ للنصوص والبلاغة ١١٠
اهتمامه بطلابه ١١٢
جهود الشيخ من خلال مناظراته ١١٤
٩- العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز ١١٨
الرد على المخالف ١١٨
إجلال عجيب من عالم مبرز ١٢٠
من دعابات الألباني وابن باز رحمهما الله ١٢١
روائع من صور حفظ الشيخ ابن باز ١٢١
يسروا ولا تعسروا ١٢٢
أين منك حاتم؟ ١٢٣
عجل بالنصيحة ١٢٣
تمسكه بالسنة ١٢٤
عسى ما تأكل الناس ١٢٥
غضبه لله عز وجل ولرسوله ﷺ ١٢٦
لا لتقاعد ولا أجازة ١٢٦
إنها مبشرات ١٢٧
لا تعص الله ولو بخطوة ١٢٨
فتوى مهمة ١٢٨
ومن ذا الذي ما ساء قط؟ ١٢٩

تقديم قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ على قول كل أحد ١٣٠
الإنكار على من يمدحه وزجره والكتابة عنه أيضًا ١٣٢
منهج واضح في الحق منذ الصغر ١٣٤
من منهجه العلمي أنه يقول: لا أدري ١٣٥
المزاح والبكاء ١٣٦
البعد عن الدنيا ١٣٧
قوة الذاكرة ١٣٨
الهمة في العلم والعمل به ١٣٩
الحرص على النصيحة ١٤١
كرمه ١٤٢
صبره وجلده ١٤٦
الاهتمام البالغ في الكتب ١٥٠
مواقف تربوية مع التلاميذ والعلماء ١٥٠
١٠- الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني ١٥٥
نشأته والهجرة إلى الشام ١٥٥
بداية تلقيه للعلم ١٥٦
توجهه إلى علم الحديث واهتمامه به ١٥٧
من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ١٥٩
الدعوة في سبيل الله ١٦٣
مجالسه العلمية ١٦٦
في الجامعة الإسلامية في المدينة ١٦٧
مكايد الحاقدين ١٦٩
أبت المعاصرة إلا أن تكون حرمانًا ١٦٩
أثر علم الألباني على الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٧٠
من خلق الشيخ: إنصافه الآخرين، ورجوعه عند وضوح الحق لديه ١٧١
١١- الشيخ العلامة محمد بن صالح بن عثيمين ١٧٦
إذًا تصدق الآن ١٧٦
من مشكاة النبوة ١٧٧
أصر على دفع المبلغ ١٧٧
اعملوا ما شئتم وسألقي الدرس ١٧٨
أكبرت هذا الورع العظيم في شخصه ١٧٩
الاكتفاء بالاسم مجردًا ١٧٩
انج بنفسك ١٨٠
أنس بمقارعة الحجة بالحجة ١٨١

انظر الوالد ١٨٢
خصم مكافأة المحاضرات ١٨٢
الدوائر الحكومية ١٨٣
زيارة أحد المسئولين ١٨٣
الساعة الثالثة والنصف ١٨٤
سجد للسهو بعد السلام ١٨٥
شكروا للشيخ جهوده ١٨٥
كان يرتاح إلى نصحه ١٨٩
كلمة تدون بماء الذهب ١٩٠
لا تحرمونا هذا الأجر ١٩٠
ندعو له بالهداية ١٩١
يضع نعله تحت إبطه ١٩٢
يقوم الليل ويدعو ١٩٢
ينزل الناس منازلهم ١٩٣
١٢- الشيخ عبد الله بن قعود الخطيب المفوه والعالم الناصح والمفتي المحقق ١٩٤
مقالة الشيخ خالد الشايع ١٩٤
مقالة الشيخ الدكتور سعد بن مطر العتيبي عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء ٢٠١
١٣- الشيخ العلامة مقبل بن هادي الوادعي ٢٠٦
صفحات مضيئة من مراحل الشيخ التعليمية محصلاً ومعلمًا يستفيد منها طالب العلم ٢٠٧
الصفحة الأولى: الهمة العالية ٢١١
الصفحة الثانية: صبره على طلب العلم ونشره ٢١٢
الصفحة الثالثة: الثبات على الحق ٢١٣
الصفحة الرابعة: عدم سكوته عن باطل يسمعه وهو في مرحلة التحصيل ٢١٤
الصفحة الخامسة: عدم التفاته إلى المثبطين عن العلم ٢١٤
الصفحة السادسة: محافظته على وقته ٢١٥
مراقبته وخوفه من الله ٢١٥
تعظيم الشيخ للسنة ٢١٦
عبادة الشيخ ٢١٩
توكله على الله ٢٢٠
زهد الشيخ وورعه ٢٢٢
كرم الشيخ ٢٢٨

صبر الشيخ ٢٣٧
صفحه وعفوه وحلمه ٢٤١
حب الشيخ لطلابه ٢٤٣
تواضع الشيخ ٢٤٩
١- تواضعه في ملبسه ٢٤٩
٢- تواضعه في مسكنه ٢٥٠
٣- خدمته لضيوفه وطلابه بنفسه ٢٥١
مداعبته وحبه للأطفال الصغار من أبناء طلبته ٢٥٢
قبوله النقد من طلابه ومن غير طلابه ٢٥٣
اتهام نفسه بالتقصير ٢٥٤
٧- إشراك غيره في الكلام في مجامع الناس الكبيرة وعدم تفرده بذلك ٢٥٥
٨- ومن تواضعه أنه كان لا يسأل أحدًا شيئًا، وإن كان يحتاج إليه ٢٥٦
٩- ومن تواضع مسابقته لطلابه ٢٥٧
١٠- مشيه حافيًا أحيانًا ٢٥٧
١١- تواضعه في مركبه ٢٥٧
١٢- تواضعه في مطعمة ٢٥٨
١٣- عدم تأمره في سفره ٢٥٩
١٤- مساعدة أهل بيته ببعض الأعمال ٢٥٩
١٥- عدم رضاه بالألقاب الضخمة وإن كان يستحقها ٢٦٠
١٦- ابتداء من قابله بالسلام ٢٦٠
١٧- قبوله الهدية اليسيرة ٢٦٠
١٨- نزوله عند رغبة طلابه ومن جاء إليه ٢٦٠
شجاعة الشيخ ٢٦١
١- صدعه بالحق إذا عرفه وتبين له ٢٦١
٢- ثباته في مواقف خاف فيها كثير من الناس ٢٦٢
٣- عدم خوفه من أهل الشر، وعدم مبالاته بهم ٢٦٨
٤- عدم اتخاذه الحراس ٢٦٨
٥- إنكاره على المقلدين وهو طالب في الجامعة الإسلامية ٢٦٨
٦- مواقفه عند الحكام ٢٦٩
همة الشيخ العالية ٢٧١
فراسة الشيخ ٢٧٣
محافظة الشيخ على وقته ٢٧٤
اهتمامه بأمر المسلمين ٢٧٤
مواقف أكرم الله بها الشيخ ٢٧٧

طريقة تدريسه ٢٨٣
من طرائف الشيخ ومداعبته لطلابه ٢٨٥
١٤- العلامة الشيخ محمود محمد شاكر ٢٨٧
ترجمته في سطور ٢٨٧
الأسد في براثنه ٢٩٣
غرض واحد ٣٠٨
أعتذر إليك ٣١١
١٥- الشيخ الدكتور محمود محمد الطناحي ٣١٥
ترجمته في سطور ٣١٥
جواهر ودرر ٣١٧
تواضع عجيب ٣١٨
طرفة ٣٢٠
أدب عال ٣٢٠
وفاء يخلب ٣٢١
معاناة عالم ٣٢٤
محمود محمد شاكر ... والسهام الطائشة ٣٢٥
فهرس المحتويات ٣٤٧